سلسلة التعبد لله بأسمائه وصفاته: «العزيز الحكيم»



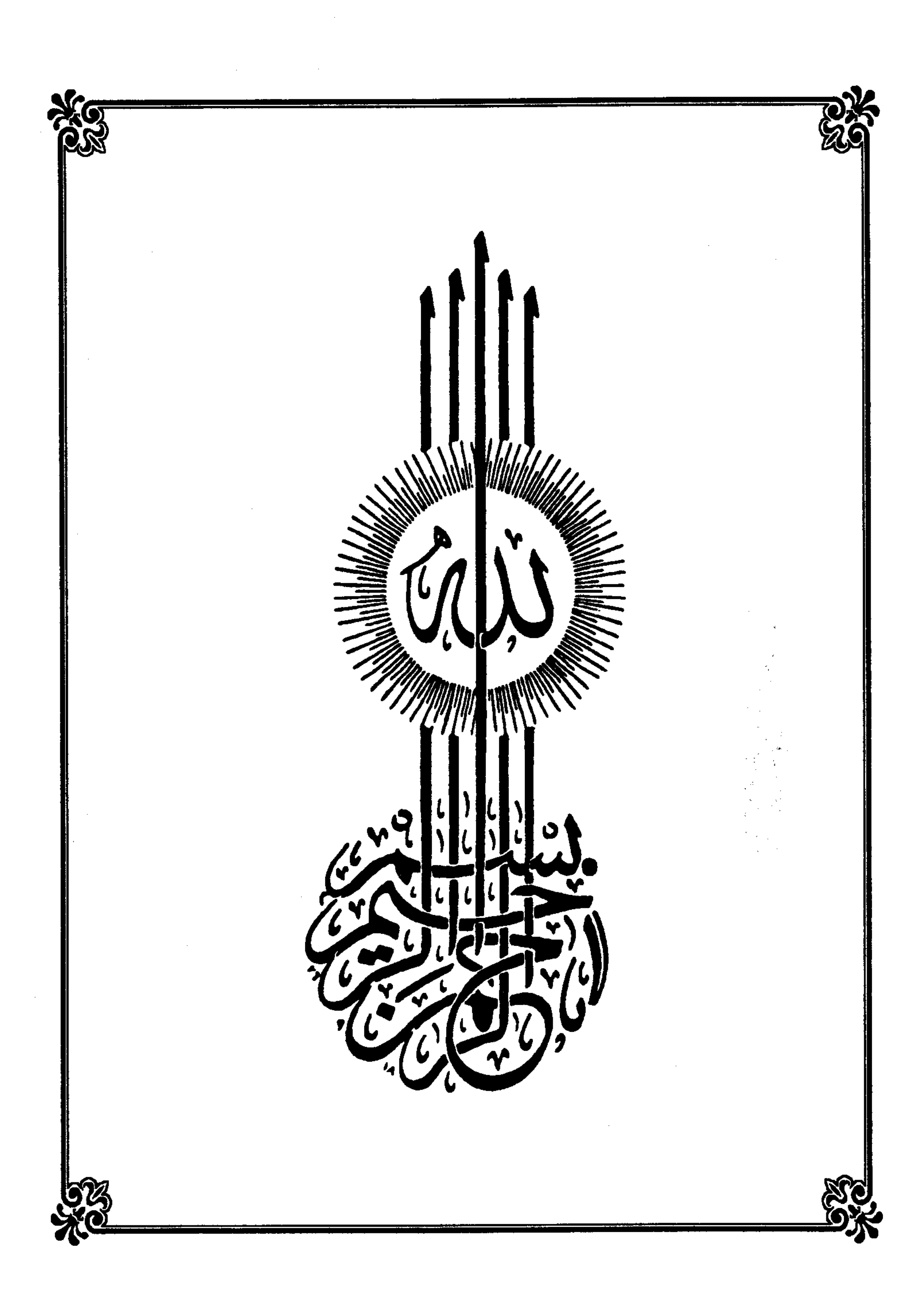
تأليف

سيد سعيد عبد الغني

تقديم

فضيلة الشيخ الدكتور
سعيد بن مسفر القحطاني
الداعية بالمملكة العربية السعودية

فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله العبد الرحمن البسام
عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية
ورئيس محكمة التمييز بمكة المكرمة


بسم الله الرحمن الرحيم

النصر والتمكين

هبة العزيز الحكيم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد الغني ، سيد سعيد

النصر والتمكين هبة العزيز الحكيم / سيد سعيد عبد الغني . —

مكة المكرمة ، ١٤٢٤هـ

٣٩٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (التعبد لله باسمائه وصفاته)

ردمك X-٢٢٥-٤٤-٩٩٦٠

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان ب - السلسلة

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٦٦٣٥

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٦٦٣٥

ردمك : x-٢٢٥-٤٤-٩٩٦٠



فسح هذا الكتاب الإعلام الداخلي بوزارة الإعلام بجدة

تحت رقم ٧٠٢٣/م/ج بتاريخ ١٤٢٤/٧/٢٣هـ

الطبعة الأولى

(١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)

أخي القارئ : نسعد بأي ملاحظات ، أو اقتراحات

ويوجد سعر خاص جداً للتوزيع الخيري

ت المؤلف : ٥٥٩٢٠٤٧ مكة المكرمة

تزكية وتوصية

لفضيلة الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام

عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ورئيس محمكة التمييز بمكة المكرمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله - ﷺ -

أما بعد:

فبخصوص هذه الكُتب والرسائل من تأليف فضيلة الشيخ / سيد سعيد عبدالغني؛ فهي مفيدة، نافعة، ومقيدة على طريقة السلف الصالح - رحمهم الله - في منهجها .

ولذا فإننا ننصح باقتنائها وقراءتها، كما نُرَغِّب أصحاب الإحسان بشراء كمية منها لتوزيعها على طلاب العلم ، فهذا من الدعوة إلى الله.

والله الموفِّق،،

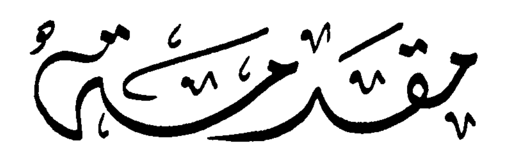
عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام

عضو مجلس كبار العلماء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.
أما بعد فمجموعة هذه الكتب والرسائل من
تأليف فضيلة الشيخ سيد سعيد عبد الغني
وهي مفيدة نافعة ومفيدة وعلى طريقة السلف الصالح
في منهجهم ولذا فإننا ننصح باقتنائها وتداولها
كما نرغب أصحاب الإحسان بشراء كمية منها
لتوزيعها على طلاب العلم وهذا من الدعوة إلى الله
والله الموفق.

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

عضو مجلس كبار العلماء



لفضيلة الشيخ الدكتور

سعيد بن مسفر القحطاني

الداعية بالمملكة العربية السعودية

مُقَدِّمَة

فضيلة الشيخ الدكتور / سعيد بن مسفر القحطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد فإن أصل الأصول ، وأوجب الواجبات، هو معرفة الله تعالى والإيمان به سبحانه، وهذه المعرفة لا تتم إلاَّ بمعرفة أسمائه وصفاته والإقرار بها. والتي بيَّنها الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم وبيَّنها رسوله ﷺ في سُنته.

والحديث عن الأسماء والصفات يتَّسم دائمًا بالحساسية والخطورة ، خصوصًا إذا لم يوفَّق المتحدِّث عنها إلى منهج أهل السُّنة والجماعة والذين سلكوا في هذه القضية وفي جميع المسائل الاعتقادية مسلك الحق حين اعتمدوا في استدلالاتهم على جميع القضايا على صريح الكتاب الكريم وصحيح السُّنة المطهَّرة .

فصانهم الله وحفظهم من الزيغ والضلال الذي وقع فيه أهل الأهواء والعقائد المنحرفة من الأشاعرة ، والمعتزلة ، والفلاسفة، والذين خاضوا في علم الكلام حتى ضلُّوا وأضلُّوا ووصل بعضهم في النهاية إلى إدراك ما هم عليه من الضلال فأعلنوها صريحة كما قال الفخر الرازي : ((لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأَيْتُها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ واقرأ في النفي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ومن جرَّب مثل تجربيتي عرف مثل معرفتي))[1] .

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٥ / ١١) .

وكما وصف أحدهم حالته وحالة أمثاله من المتكلمين في قوله :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلاَّ واضعـا كف حائـر على ذقـن أو قارعـا سن نـادم

وكما أقرُّوا على أنفسهم بما وصلوا إليه فقال أحدهم :

نهايــة إقــدام العقــول عقــال وأكثر سعي العالمين ضـلال
وأرواحنا في وحشة في جسومنــا وحاصل دنيانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ومن هنا يتقـرَّر وباعتـراف رؤساء القـوم أن منهج السلف أعلم وأعدل وأسلم، لأنهم خير القرون وأفضل الأُمَّة، وهذا ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهالله حيث يقول : « إن خيـر قـرون هذه الأمـة في الأعمـال والأقـوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة من علم وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة وأنهم أولى بالبيان كل مشكل هذالا يدفعه إلامكابر »(١) .

وممَّن وفَّقه الله إلى سلك طريق السلف وانتهاج منهجهم فضيلة الشيخ / سيد سعيد السيد عبد الغني .

ومن مؤلفاته القيِّمة سلسلته المباركة بعنوان (التعبُّد لله بأسمائه وصفاته) فبيَّن كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته تعبداً عملياً، كما بيَّن أيضًا أثر هذا التعبُّد في حياة المسلم وعلاقته مع ربه ومع كل مَنْ حوله .

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٤ / ١٥٧) .

وحثَّ في هذه السلسلة على وجوب التمسُّك بالأُسس التي أعتمد عليها السلف في الأسماء والصفات وهي:

١ - الإيمان بجميع الأسماء والصفات التي وردت بها نصوص القرآن والسُّنَّة الصحيحة .

٢ - تنزيه الله سبحانه وتعالى عمًّا لا يليق بكماله وجلاله سبحانه، وتنزيهه عن أن يشبه شيء من صفاته صفات المخلوق .

٣ - قطع النظر عن إدراك الكيفية التي اتَّصف الله بها بتلك الصفات لأن الصفة فرع عن الذات وما دام أن ذات البارئ سبحانه لا يمكن تكييفها فكذلك صفاته - عزَّ وجلَّ - .

وإني لأرجو الله أن يجزيه على جهده المبارك خير الجزاء ، وأن ينفع بهذه السلسلة طلبة العلم وطالبي الحق إنه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم .

كتبه /

د / سعيد مسفر القحطاني

دكتوراة في العقيدة

من جامعة أم القرى

المقدمة

وتحتوي على :

أولاً : شَرَف وعِظم العلم بأسماء الله تعالى وصفاته

ثانياً : أهمية التعبُّد لله بأسمائه وصفاته

ثالثاً : التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب النصر والتمكين

رابعاً : خطـة البحث

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله ، نحمده، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، ومحا به الظلمة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك ، فجزاه الله خير الجزاء ، خير ما جزى به نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته .

أما بعـــد :

إن التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى وصفاته العليا من أسمى وأعظم العبادات التي يتعبَّد بها العبد لربه وخالقه ومولاه ، ومن أشرفها وأحبها إلى الله تعالى ، وذلك لأنها تتعلَّق بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته ، ومن ثمَّ كان تعلُّم هذا العلم من أشرف ما يشتغل به العبد ، ومن أعظم ما يتفقَّه فيه المؤمن ، إذ أن مدار العبادات كلها على معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وكلَّما كان العبد على معرفة بأسماء الله - تعالى - وصفاته ، كان أعلم بالله ، وكان أعبَد له ، وكان أتقى وأخشى لله تعالى ، وكان ذلك العلم - الذي هو العلم بأسماء الله وصفاته - خير معين للعبد لطاعة ربه ، والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه .

أولاً : شَرَف وعِظَم العلم بأسماء الله تعالى وصفاته :

لقد نبَّه النبي - ﷺ - وسلفنا الصالح - رضي الله عنهم - وعلماؤنا الأجلاء من أهل السنة والجماعة ، على أهمية الاهتمام والاعتناء بهذا العلم ، والعمل به ، والتعبُّد بمقتضاه ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[(١)] .

ومن هذه الأقوال على عجالة ما يلي :

قال الإمام ابن العربي - رحمه الله - :

« شرف العلم بشرف المعلوم ، والباري أشرف المعلومات ، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم »[(٢)].

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله - :

« وهذا أشرف علم على الإطلاق ، ولا يعنى به إلاَّ الراسخون في العلم ، فإنه يتضمَّن معرفة الله، وصفاته ، وأفعاله ، ودينه ، ورسوله - ﷺ - ومحبة ذلك وتعظيمه ، والفرح به . وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة ، وقد بشَّر النبي - ﷺ - الرجل الذي كان يُحبُّ سورة الإخلاص وقال أُحِبُّها لأنها صفة الرحمن - عزَّ وجلَّ - فقال - أي الرسول - ﷺ - « **حُبُّك إياها أدخلك الجنة** »[(٣)] وفي لفظ آخر « **أَخْبِرْهُ أن اللهَ يحبه** » .

---

(١) الأعراف (١٨٠)
(٢) (أحكام القرآن) لابن العربي (٢ / ٩٩٣) .
(٣) رواه البخاري في كتاب (الآذان) باب (الجمع بين السورتين في الركعة) .

فدَّل على أن مَنْ أحب صفات الله أحبه الله ، وأدخله الجنة »[١] .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

« فشتان ما بين من يتلقَّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرَّد ذوقه ووجْده ، إذا استحسن شيئاً قال : هذا هو الحق .

فالسَّير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب ، وفتحه عجب ، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه غير تعبٍ ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ، ولا مشرد عن سكنه »[٢] .

ويقول الدكتور عمر سليمان الأشقر ـ حفظه الله ـ :

« وإذا كانت علوم الدين أفضل العلوم ، فإن العلم الذي يُعَرِّفنا بالله أفضل من غيره من العلوم ، ولذلك كانت النصوص المعرِّفة بالله وأسمائه وصفاته أفضل نصوص القرآن ، فآية الكرسي كما صحَّ في الأحاديث أفضل آية في كتاب الله ، و ﴿ قل هو الله أحد ﴾[٣] . تعدل ثلث القرآن .

وما عَظُمت هذه النصوص إلاَّ بحديثها عن الإله الواحد المعبود »[٤] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٩٧/١) .
(٢) (طريق الهجرتين) لابن القيم ص (٣٩٤) .
(٣) سورة الإخلاص آية (١) .
(٤) (أسماء الله وصفاته) للشيخ عمر سليمان الأشقر ص (٢٤) .

ثانياً : أهمية التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته :

وأمَّا عن التعبُّد لله تعالى بهذه الأسماء الحسنى ، وتلك الصفات الحميدة فإنه مطلب عقدي إيماني ، فإن جميع العبادات التي يتعبَّد بها العبد لربه ـ سبحانه وتعالى ـ ترجع إلى مقتضى الأسماء والصفات ، وأنها نابعة من علم العبد بأسماء الله وصفاته ، وكلَّما كان علم العبد بالله وبأسمائه وصفاته على بصيرة ، كانت عبادته صحيحة ومقبولة عند الله تعالى ، ولذلك ينبغي على العبد المسلم أن يتعرَّف على ذات الله وأسمائه وصفاته ، وما تتضمَّنه هذه الأسماء والصفات من المعاني ، وما تقتضيه من عبادات ، إذ أن لكل صفة من صفات الله عبودية مخصوصة ، وفاز وربح من فتح الله عليه كيف يتعبَّد إليه بهذه الأسماء وتلك الصفات .

ويُفصِّل في هذا الجانب العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ قائلاً :

« والأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ـ أعنى من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ـ وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح :

ـ فعلم العبد بتفرُّد الرب تعالى ـ [بالضر، والنفع، والعطاء ، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة] يُثْمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

- وعلمه [بسمعه تعالى ، وبصره ، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السرَّ وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تُخْفي الصدور] فيثمر له حفظ اللسان وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لايرضى الله ، وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

- ومعرفته [بغناه وجوده وكرمه وبرِّه وإحسانه ورحمته] توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

- وكذلك معرفته [بجلال الله وعظمته وعزِّه] تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها .

- وكذلك علمه [بكماله وجماله وصفاته العلى] يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية .

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات ، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم ، وآثارها ومقتضاها ، لأنه لا يتزيَّن من عباده بطاعتهم ولا تُشينه معصيتهم »[١] .

ثالثاً : التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب النصر والتمكين :

إن من التعبُّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، التعبُّد لله سبحانه باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزَّة والحكمة] ومن صوَر

---

(١) (مفتاح دار السعادة) لابن القيم (٤٤٢/٢ :٤٤٣) .

التعبُّد لصاحب العزة والحكمة طلب النصر على الأعداء ، والتمكين في الأرض ، وذلك لاعتقاد العبد المؤمن أن النصر من عند العزيز الحكيم الذي يملك مقاليد السماوات والأرض ، والذي له العزَّة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، الذي يملك النصر وأسبابه ، والذي يهبه لمن شاء من عباده ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾[1] .

فينصر من شاء بقوته ، ويمكِّن من شاء بحكمته ، لأن له جنود السماوات والأرض ، ولا يعجزه شيء من خلقه .

قال تعالى:﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[2].

- فمن أراد النصر الحقيقي على الأعداء ، ومن تطلَّع إلى التمكين في الأرض، فعليه أن يتعبَّد للعزيز الحكيم بطلب النصر منه ، ومنه وحده دون سواه ، فمن طلب النصر من صاحب العزَّة والحكمة ، نصره الله بعزته وحكمته وقدرته على الخلق ، ومن طلب النصر من غير العزيز الحكيم تركه الله وشِرْكَه ، وأذلَّه بين خلقه ، وحَرَمَه النصر ، ولم يمكنّه في الأرض .

- فهذا هو الطريق إلى النصر ، وهذا هو السبيل إلى التمكين ، فمن أراد الهدى والرشاد اتبع هدى خير العباد - محمد بن عبد الله - ﷺ - خير من تعبَّد لله - تعالى - وطلب النصر منه .

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

(٢) سورة الفتح آية (٧) .

وأمَّا من ضل وغـوى ، ويمَّم وجه شرقـاً وغرباً ، وزلَّت قدمـه ، وطلب النصر من غير العزيز الحكيم ، وابتغى العزة عند غيـر العزيز ، فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه ، وليحيا من حيَّ عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة .

قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾[1] .

- وما هذه إلاَّ محاولة للفْت أنظار إخواني المسلمين لأهمية وشرف التعرُّف على الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وكيفية التعبُّد بهذه الأسماء ، وتلك الصفات لنفوز برضا رب الأرض والسماوات .

- ومن ذلك التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب النصر والتمكين الذي هو هبة من صاحب العزَّة والحكمة ، سائلاً المولى عزَّ وجل بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا أن يتقبَّل عملي هذا ، ويجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه ، وأن يجعله لي ستراً من النار ، وأن يجعله سراجاً منيراً يضيئ الطريق لكل السالكين في درب التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

وأن يتجاوز عن الخطأ والزَّلل ، فما أصبت فيه فمن الله وفضله وكرمه ، وما أخطأت فيه فمن نفسي والشيطان ، طامعاً في كرم المولى عزَّ وجلَّ وعفوه وإحسانه وجوده ﴿ إن أريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج آية (٤٠) .

(٢) سورة هود آية (٨٨) .

رابعاً : [خطة البحث]

يتكوَّن هذا البحث من : [مقدمة - تمهيد - سبعة فصول - خاتمة - فهارس]

أولاً : المقدمة : وتشتمل على :

١ - شرف وعِظَم العلم بأسماء الله - تعالى - وصفاته .

٢ - أهمية التعبُّد لله بأسمائه وصفاته .

٣ - التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب النصر والتمكين .

٤ - خطة البحث .

ثانياً : التمهيد : ويشتمل على :

١ - تعريف العزيز لغة وشرعاً .

٢ - تعريف الحكيم لغة وشرعاً .

٣ - تعريف النصر لغة وشرعاً .

٤ - تعريف التمكين لغة وشرعاً .

٥ - النصر والتمكين في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة.

ثالثاً : الفصل الأول [عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات] ويشتمل على :

١ - أدلة ثبوت اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] من الكتاب والسُّنَّة .

٢ ـ عقـيدة أهل السنة والجمـاعة في الإيمان بالأسـماء والصفـات ، وأقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ .

رابعاً : الفصل الثاني : [التسبيح في القرآن والسنّة] ويشتمل على :

١ ـ معنى التسبيح لغة وشرعاً .

٢ ـ التسبيح في القرآن الكريم .

٣ ـ التسبيح في السنّة المطهرة

٤ ـ مدار العبادات على الذّكر .

خامساً : الفصل الثالث : [التسـبيح للعزيز الحكيم عند النصر والتمكين] وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : [التسبيح عند النصر والتمكين]

المبحث الثاني : [التسبيح عند النصر والتمكين من يهود بني النضير]

المبحث الثالث : [أسباب النصر وشروط التمكين]

المبحث الرابع : [كيفية التعبّد بالتسبيح عند النصر والتمكين]

سادسـاً : الفصل الرابـع : [التسبـيح للعزيـز الحكيم عند قتـال الأعداء] وتحـته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : [التسبيح عند قتال الأعداء]

المبحث الثاني : [علاقة التسبيح بقتال الأعداء]

المبحث الثالث : [التسبيح والأمر بالصَّف والثبات أمام الأعداء]

سابعاً : الفصل الخامس: [التسبيح للعزيز الحكيم واتباع الرسول الأُمِّي - ﷺ -] وتحته خمسة مباحث :

المبحث الأول : [التسبيح للعزيز الحكيم]

المبحث الثاني :[بعث الرسول **الأُمِّي** - ﷺ -]

المبحث الثالث :[تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم]

المبحث الرابع: [علاقة التسبيح للعزيز الحكيم ببعث الرسول الأُمِّي - ﷺ -]

المبحث الخامس: [كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم باتباع الرسول الأُمِّي - ﷺ -]

ثامناً : الفصل السادس : [التسبيح للعزيز الحكيم عند المِحَنِ والشدائد] وتحته ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : [التسبيح عند المصيبة والابتلاء]

المبحث الثاني : [التسبيح عند الشدة والضيق] .

المبحث الثالث: [كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم بالتسبيح عند المِحَنِ والشدائد]

تاسعاً : الفصل السابع : [التسبيح للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك] وتحته أربعة مباحث

المبحث الأول : [تسبيح العزيز الحكيم بتنزيهه عن الشريك] .

المبحث الثاني : [تسبيح العزيز الحكيم بتنزيهه عن الولد والصاحبة] .

المبحث الثالث : [تسبيح العزيز الحكيم بتنزيهه عمًّا يصفه المشركون] .

المبحث الرابع : [كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك] .

عاشراً : الخاتمــة : وتشتمل على :

١ ـ أهم ما توصلت إليه خلال البحث .

٢ ـ توصياتي من خلال البحث .

الحادي عشر : الفهارس :

فهرست الكتـاب فهرسة تُسهِّل علـى القارئ التعرُّف على فصـول ومباحث وجزئيات البحث .

هذا وصلِّ اللهم على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً .

وكتبه / أبو عبد الرحمن سيد سعيد عبد الغني

في يوم الأحد ١٤٢٣/٤/٢٦هـ

السعودية ـ مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ

التمهيد

{ معنى : [العزيز - الحكيم - النصر - التمكين] لغة وشرعا }

أولاً : معنى العزيز [لغة وشرعاً]

ثانياً : معنى الحكيم [لغة وشرعا]

ثالثاً : معنى النصر [لغة وشرعاً]

رابعاً : معنى التمكين [لغة وشرعا]

خامساً : النصر والتمكين في القرآن الكريم والسنّة المطهرة]

أولاً : [معنى العزيز لغة وشرعاً]

١ - المعنى اللغوي[١] :

العزيز : من صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه الحسنى .

قال الزَّجَّاج : هو الممتنع فلا يغلبه شئ .

وقال غيره : هو القويُّ الغالب كلَّ شئ .

وقيل : هو الذي ليس كمثله شئ.

ومن أسمائه عزَّ وجلَّ المُعزُّ وهو الذي يهب العِزَّ لمن يشاء من عباده والعزُّ : خلاف الذُّل .

والعزُّ في الأصل : القوة والشدة والغلبة .

والعزُّ والعزَّةُ : الرفعة والإمتناع ، والعـزَّةُ لله وفي التنـزيل : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] أي له العزة والغلبة سبحانه .

وفي التنزيل العزيز : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾[٣] أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العزة في الدنيا ، ولله العزة جميعاً أي يجمعها في الدنيا والآخرة بأن ينْصرَ في الدنيا ويُغَلِّبُ .

وعزَّ يعزُّ : عِزّاً وعِزَّةً وعَزَازَةً ، ورجلٌ عزيزٌ من قومٍ أعِزَّةٍ وأعزَّاء وعِزاز .

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة : عزز (٥/٢٩٢٥ : ٢٩٢٨) .
(٢) المنافقون آية (٨) .
(٣) فاطر آية (١٠) .

قال الشاعر :

بيض الوجوه كريمةٌ أحسابُهُم في كلِّ نائبة عزازُ الأنفِ

ورجلٌ عزيزٌ : منيع لا يُغلْبُ ولا يُقْهرَ .

والعزّةُ : الشدة والقوة

ويقال : عَزَّ يعَزٌّ بالفتح ، إذا اشتد .

وعَـزَزْتُ القُـوْمَ أعْـزَزْتُهُم وعَـزَّزتُهم : قَـوَّيْتُـهم وشَـدَّدْتُهُم وفي الـتنزيل ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾(١) أي قوَّينا وشدَّدنا .

٢ ـ المعنى الشرعي :

[العزيز] :

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« العزيز» « لا يقـهره شئ ، ولا يغلـبه غـالب ، بل يَقْهُـر كلَّ شى ويغلبـه ، ولأنه خلقه »(٢) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » « أي هو ذو العزة التي لا ترام »(٣) .

---

(١) يس آية (١٤) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الأنفال آية (١٠) (٤ /١٥) .

(٣) تفسيرابن كثير لسورة آل عمران آية (١٢٦) (١/٣٨٠) .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » « أي منيع الجناب »[١]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« « العزيز » أي الذي قد خضع له كل شئ »[٢] .

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ :

« العزيز : هو المنيع الذي لا يُغْلب » .

والعزُّ : قد يكون بمعنى (الغلبة) ، يقال منه : عزَّ يعُز بضم العين من يعز .

وقد يكون بمعنى (الشدة والقوة) ، ويقال منه : عزَّ يعَز بفتح العين .

وقد يكون بمعنى (نفاسة القدر) ، ويقال منه عزَّ الشئ يعِز بكسر العين .

فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شئ : وأنه لا مثل له ، والله أعلم »[٣] .

وقال الإمام البيهقي ـ رحمه الله ـ :

« قلت : العزَّةُ إن كانت بمعنى (الشدة) ، وهي القوة فمعناها يرجع إلى صفة القدرة .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٤/٣١٩) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الحديد آية (١) (٤ / ٢٩٢) .

(٣) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي(٢ / ٣٩٥) .

وكذلك إن كانت بمعنى (الغلبة) ، فمعناها يعود إلى القدرة .

وإن كانت بمعنى (نفاسة القدر) فإنها ترجع إلى استحقاق الذات تلك العزة »[١].

وقال الإمام ابن بطال ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » يتضمَّن العزة ، والعزة يحتمل أن تكون صفة ذات بمعنى القدرة والعظمة .

وأن تكون صفة فعل بمعنى القهر لمخلوقاته، والغلبة بهم ، ولذلك صحت إضافة اسمه إليها »[٢] .

وبوَّب الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ : باباً في كتاب التوحيد ـ في صحيحه ـ وسمَّاه : [باب ـ قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ سُبْحَانَ رَبك رَبّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ـ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

« والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة إثبات العزة لله رداً على من قال إنه العزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم ثم ذكر في الباب خمسة أحاديث »[٣].

---

(١) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي (١ / ٢٢٢) .
(٢) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٣ / ٣٨١) .
(٣) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (٣ / ٣٨٢) .

ثانياً : [معنى الحكيم لغة وشرعاً]

١ ـ المعنى اللغوي :[١]

الحَكَمُ : الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم له الحكم ، سبحانه وتعالى .

قال الليث : الحكم لله .

قال الأزهري : من صفات الله الحَكَمُ والحكيم ، ومعاني هذه الأسماء متقاربة ، والله أعلم بما أراد بها ، وعلينا الإيمان بأنها من أسمائه .

قال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى الحَكَم والحَكِيمُ وهما بمعنى الحاكم ، وهو القاضي ،فهو فَعيلٌ بمعنى فاَعِلٍ ، أو هو الذي يُحكِمُ الأشياء ويُتْقنها فهو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعلٍ.

وقيل : الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويُتْقنها : حكيم .

الحكيم : يجوز أن يكون بمعنى الحاكم مثل قدير بمعنى قادر ، وعليم بمعنى عالم .

قال الجوهري : الحُكْمُ : الحكمة من العالم ، الحكيم العالم وصاحب الحكمة . وقال النَّمِرُ بن تولب :

(١) انظر لسان العرب مادة حَكَمَ (٢ / ٩٥١ : ٩٥٤) .

وأَبْغِضْ بَغَيضَك بُغْضاً رُوَيْدًا إذا أَنْتَ حَاوِلْتَ أنْ تَحْكُما

والحُكْمُ : العلم والفقه والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حَكَمَ يَحْكُمُ .

قال النابغة :

واحْكَمْ كَحُكْم فَتَاة الحَيِّ إذَا نَظَرتْ إلى حَمامٍ سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

والحَاكِمُ : مُنَفِّذُ الحُكْمْ ، والجمع حُكَّام ، وهو الحَكَمُ

وحَكَّمُوُهُ بينهم : أمروه أن يحكم .

ويقال : حَكَّمنا فلاناً فيما بيننا أي أجزْنا حُكْمَهُ بيننا

حكَّمَهُ في الأمر فاحْتَكَمَ : جازَ فيه حُكْمُهُ

وحاكمنا فلاناً إلى الله : أي دعوناه إلى حكم الله

قال الأزهري : وَحَكَمَ الرجل يَحْكُمُ حُكْماً : إذا بَلَغ النهاية في معناه مدحاً لازماً .

٢ ـ المعنى الشرعي :

[الحكيم] :

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « حكيم في تدبيره ونَصرِه مَنْ نَصَرَ ، وخذلانه مَنْ خذل مِنْ خَلْقِه ، لا يدخل تدبيره وهنٌ ولا خلل » [(١)] .

(١) تفسير الطبري لسورة الأنفال آية (١٠) (٤ / ١٥) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « أي ذو الحكمة في قدره والأحكام »[١] .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الحكيم في قدره وشرعه »[٢] .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الحكيم في خلقه وأمره وشرعه »[٣]

وقال الإمام الحليمي ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار المتقن السديد إلاَّ من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قادر »[٤] .

وقال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « هو المُحْكم لخلق الأشياء ، صُرِفَ عن مفعل إلى فعيل ، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها ، وحسن التقدير لها »[٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (١٢٦) (١ / ٣٨٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٤ /٣١٩) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة الحديد آية (١) (٤ / ٢٩٢) .

(٤) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي(٢ / ٤١٣) .

(٥) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي (١ / ٥٣) .

ثالثاً : [معنى النّصر لغة وشرعاً]

١ - معنى النَّصر لغة :

« [نَصَرَ]

النَّصرُ : إعانة المظلوم ، نَصَرَه على عدوه ينصره ، ونَصَرَه يَنْصره نَصْرًا ، ورجل ناصِر من قوم نُصَّار . والاسم : النُّصْرة .

والنَّصِير : الناصر ، والجمع أنصار مثل شريف وأشراف ، ويجوز أن يكون نصور جمع ناصر كشاهد وشهود ، وأن يكون مصدراً كالخروج والدخول .

وانْتَصَر الرجُل : إذا امتنع من ظالمه .

وانْتَصَر منه : انتقم .

والانتصار : الانتقام .

والتَّنَصُّر : معالجة النَّصر .

وتناصروا : نَصَرَ بَعْضُهم بعضاً

ونَصَره يَنْصُره نَصْرًا : إذا أعانه على عدوه وشدَّ منه .

والأنصار : أنصار النبي - ﷺ - غلبت عليهم الصفة ، فجرى مجرى الأسماء ، وصار كأنه اسم الحي ، ولذلك أُضيف إليه بلفظ الجمع فقيل أنصاري .

والنُّصرة : حُسْن المعونة »[١] .

---

(١) (لسان العرب) لابن منظور مادة (نَصَرَ) [٥ / ٢١٠] .

٢ ـ معنى النصر شرعاً :

إن معنى النصر شرعاً أي في الإصطلاح الشرعي لا يختلف كثيراً عن معناه في اللغة ، فهو يدندن حوله ، ويحوم حول المعنى العام للنصر في اللغة .

فإن المعنى الشرعي للنصر يدور حول الإعانة ، والظهور على الأعداء ، والعلو عليهم ، وإعلاء الكلمة، وخذلان العدو ، والتمكُّن منه ، والفَرج من كل كرب ، والمخرج من ضيق الحال والشِّدَّة .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾[١] .

« ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب ، وأنه مُعْليهم على عدوهم ، ومُظْهِرَهُم عليه ، فنجَّز لهم ما وعدهم ، وأعلى كلمتهم ، وأطفأ نار حرب الذين كفروا »[٢].

ـ وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾[٣] .

---

(١) البقرة (٢١٤) .

(٢) تفسير الطبري (١ / ٥٧٩] / .

(٣) الحج (٤٠) .

« يقول تعالى ذِكْره : وليعيننَّ الله مَنْ يقاتل في سبيله ، لتكون كلمته العليا على عدوه .

- فَنَصْرُ الله عَبْده : معونته إياه .

- ونَصْرُ العبدُ ربَّه : جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا »(١) .

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

« أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقُرْب الفَرَج والمخرج عند ضيق الحال والشِّدَّة »(٢) .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

في قوله تعالى : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٣).

« والنصر من عند الله يكون بالسيف ، ويكون بالحجة »(٤) .

---

(١) تفسير الطبري [٥ / ٣٢٤] .
(٢) تفسير ابن كثير [١ / ٢٣٨] .
(٣) الأنفال (١٠) .
(٤) تفسير القرطبي [٧ / ٢٣٦] .

رابعاً : [معنى التمكين لغة وشرعاً]

١ ـ معنى التمكين لغة[١] :

« [التمكين]

تمكَّن بالمكان وتَمَكَّنَهُ : (على حذف الوسيط) .

وأنْشَدَ سيبويه :

لَمَّا تمكَّن دنياهم أطاعَهُمُ   في أيِّ نحوٍ يميلوا دينَهُ يميل

قال الجوهري :

ملَّكْنه الله من الشيءِ ، وأمْكَنَه منه ، بمعنى .

ـ وتَمَكَّن من الشيء واسْتَمْكَن : ظَفَر

ـ والاسم من ذلك المكانة .

قال أبو منصور :

ـ ويقال أمْكَنِي الأمرَ يُمَكِّنِي ، فهو مُمَكِّن

٢ ـ معنى التمكين شرعاً :

إذا كان المعنى اللغوي [للتمكين] يدور حول الظفر ، والاستيلاء ، والتحكُّم في الشيء ، فإن معنى [التمكين] في الشرع لا يبعد كثيراً عن هذا المعنى ، فهو

(١) (لسان العرب) لابن منظور مادة (مَكَنَ) [١٣ / ١٤١٤] .

بمعنى النصر على العدو ، والتمكُّن منه وقهره ، والظفر بالأرض والتحكُّم فيها ، والانتفاع بها وبخيراتها ، وإنفاذ السلطة والحكم على مَنْ عليها ، والهيمنة على مَنْ فيها ، وإعلاء الكلمة بلا منافس ولامنازع ، مع الأمن والطمأنينة .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾(١) .

« يقول تعالى ذِكْرُه : ولقد وطَّأنا لكم ، أيها الناس في الأرض ، وجعلناها لكم قراراً تستقرُّون فيها ، ومهاداً تمتهدونها ، وفراشاً تفترشونها »(٢) .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ في نفس الآية :

« أي جعلناها لكم قراراً ومِهادًا ، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة والمعايش جمع معيشة ، أي ما يتعيَّش به من المطعم والمشرب وماتكون به الحياة »(٣) .

وقال أيضاً : الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾(٤) .

« يقول تعالى ذِكْرُه : إن وطَّنَّا لهم في البلاد فقهروا المشركين ، وغلبوهم عليها »(٥) .

---

(١) الأعراف (١٠) .
(٢) تفسير الطبري [٣ / ٤٠٦ : ٤٠٧] .
(٣) تفسير القرطبي [٧/ ١٠٨] .
(٤) الحج (٤١) .
(٥) تفسير الطبري [٥ / ٣٢٥] .

خامساً : [النصر والتمكين في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة]

أولاً : النصر والتمكين في القرآن الكريم :

(أ) النصر في القرآن الكريم :

إن آيات القرآن الكريم التي ذُكِر فيها كلمة النصر ، ومادة نَصَرَ في القرآن الكريم كثيرة جداً نذكرمنها هنا على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

* فمن هذه الآيات التي ذكر الله فيها النصر، والتي يؤكّد فيها الله ـ سبحانه ـ وتعالى ـ أن النصرمن عنده وحده ، وأنه لا يملك هذا النصر إلاَّ هو بعزته وحكمته ـ جلَّ في علاه ـ قوله تعالى :

﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٢] .

* ويؤكد الله تعالى على أن من قدَّر الله نَصْرَه فلا يغالبه أحد ، ولا يعرقل نصره مخلوق ، وكذلك إذا قضى الله خذلان قوم فلا ناصر لهم . فقال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٣] .

---

(١) آل عمران (١٢٦) .
(٢) الأنفال (١٠) .
(٣) آل عمران (١٦٠) .

* ويُعلِّق الله - تعالى - النصر على مشيئتـه وحده - جلَّ في علاه - فهو وحده بعزته وحكمته ورحمته ومشيئته ينصر من شاء من عباده . فقال تعالى : ﴿ **ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾(١) .

* ويربـط الله تعـالى بين نصر المؤمـنين له ونصره لهم ، بل ويرتِّـب نصره سبحـانه وتعـالى للمـؤمنين على نصـرهم له - جلَّ في عـلاه - [ونصـر المؤمنين لله تعـالى بتوحيده ، ونصر دينه ، ونصر نبيه - ﷺ - ، والاستقامة على الـشريعة ، وتحقيق عـقيـدة الولاء والبـراء بكل صـورها ، ...] قال تعـالى : ﴿ **ولينـصـرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز** ﴾(٢) .

وقـال تعـالى : ﴿ **يا أيهـا الـذين آمنـوا إن تنصـروا الله ينصـركـم ويثـبت أقدامكم** ﴾(٣) .

* ويرسِّخ الله - سبحانه وتعالى - في عـقيدة المسلم أن النصر لا يُطلب إلاَّ منه ، ولا يملكه ولا يقـدر عليـه إلاَّ هو - جلَّ في عـلاه - وأنه ليس لهـم من دون الله ولياً ولانصيراً ، فلا يتطلَّعون إلى النصر عند غير الله وإلا باؤا بالهزيمة ، وضُرِبَتْ عليهم الذلَّة ، والمسكنـة وباؤا بغـضب من الله وحُرِمُـوا النصر ومُنِعُـوا من التمـكين . قال تعالى : ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾(٤) .

---

(١) الروم (٥) .
(٢) الحج (٤٠) .
(٣) محمد (٧) .
(٤) البقرة (١٠٧) .

ـ وقال تعالى : ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾[١] .

ـ وقال تعالى: ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾[٢] .

* ويبشِّر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين ، ويدعوهم أن يعظموا رجاءهم في الله ، وأن ينتظروا دائماً نصر الله بكل أمل ، وبكل تفاؤل ، ويستشعروا دائماً قرب نصر الله ، حتى لا ييأس مؤمن من نصر الله ، وحتى لا يدفعه تأخُّر النصر في نظره إلى طلبه من غير الله ، أو التطلُّع إليه عند أعداء الله .فقال تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾[٣] .

* ويمتنُّ الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين بنصره لهم يوم بدر ، يوم نصرهم وهم قلة ، وأعزَّهم وهم أذلَّة ، رغم كثرة عدد عدوهم ، وقوة سلاح خصمهم ، ولكن العزيز نصرهم بعزته ، وقضى بحكمته ظهورهم فقال ـ جلَّ شأنه ـ ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾[٤] .

* بل يمتن الله على عباده المؤمنين بأنه نصرهم في مواقع ومواطن كثيرة غير يوم بدر من المعارك والغزوات. فقال تعالى: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ﴾[٥].

---

(١) الأنفال (٤٠) .
(٢) الحج (٧٨) .
(٣) البقرة (٢١٤) .
(٤) آل عمران (١٢٣) .
(٥) التوبة (٢٥) .

* ويحث الله - جلَّ في علاه - عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وقتال الكفار، وحصد رؤوسهم، والتَّشفي فيهم، وشفاء صدرهم بنصر الله لهم على أعدائهم، فهو سبحانه وتعالي يحب أن يرى أعداءه الكفار يُعذَّبون بأيدي المؤمنين فقال تعالى : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾[1] .
* ويُحبُّ الله - تعالى - من عباده المؤمنين أن يتعبَّدوا إليه بنصره سبحانه وتعالى وذلك بتوحيده ، وعدم الإشراك به ، ونصر دينه ، وكذلك نصر رسله وذلك بالإيمان بهم ، وتصديقهم ، واتباعهم ، والدفاع عنهم ، والذَّب عن شريعتهم ، والسَّير على دربهم فقال تعالى: ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾[2] .
* ويمتدح الله عباده المؤمنين الذين ينصرون الله ورسوله بأنهم هم الصادقون ، الذي صدقوا الله فأخلصوا عبادتهم وعبوديتهم لله تعالى ، وكان جهادهم ونصرتهم خالصة لوجه الله ، وصدقوا وثبتوا مع رسل الله فقال تعالي مادحاً إياهم بالصدق قائلاً - جلَّ في علاه - : ﴿ **وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾[3] .
* ويحكم الله تعالى بالفلاح لهؤلاء المؤمنين الذين نصروا رسول الله - ﷺ - واتبعوه، وانقادوا لشرعه ، واتبعوا ملَّته ، واهتدوا بالنور الذي أُنْزل معه . فقال

---

(١) التوبة (١٤) .
(٢) الحديد (٢٥) .
(٣) الحشر (٨) .

تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(١) .

* ويؤكِّد الله - تعالى - أن المؤمنين حقاً الذين يستحقون الاتصاف بالإيمان هم أولئك الذين نصرو رسول الله - ﷺ - وعباده المؤمنين ، وآوهم، وكانت النُّصرة سجية فيهم ، وخُلُق تطبَّعوا عليه فقال تعالى : ﴿ والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾(٢).

* ومن حُبُّ هؤلاء المؤمنين للنصر على أعداء الله وأعداء الدين أنهم دائماً يسألون الله النصر على هؤلاء القوم الكافرين ، ولاءً لله ولدينه ولرسوله - ﷺ - وللمؤمنين ، وبراءة من الكفار والمشركين والمنافقين فيقولون دائماً ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾(٣) . وقولهم : ﴿ ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾(٤) .

* وأخبر الله تعالى عن قول الرِّبِّين وحوارى النبيين حينما يشتد بهم الكرب ، وعند لقاء العدو ، ولَّما ينزل بهم البلاء ، وإذا أصابتهم مصيبة في سبيل الله أنهم

---

(١) الأعراف (١٥٧) .
(٢) الأنفال (٧٤) .
(٣) البقرة (٢٥٠) .
(٤) البقرة (٢٨٦) .

يقولون: ﴿ وما كان قولهم إلاَّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[1]. بل ويتعبَّد رُسل الله الكرام - صلى الله عليهم وسلم ومن معهم من المؤمنين بطلب النصر من الله - صاحب العزَّة والحكمة - والتشوُّق إليه ، خاصة في أوقات الضيق ، وعند الكرب كما أخبر الله تعالى عنهم قائلاً : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[2] .

* ولقد وعد الله - تعالى - رسله الكرَام - صلى الله عليهم وسلم - الذين يُبلِّغون رسالات الله ، ويدافعون عن دينه ، ويحاربون أهل الشرك ، ويتصدَّون لكل جاحد ومنافق ، نصرة للدين ، وتعبُّداً للعزيز الحكيم .

قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[3] .

* ويتعبَّد رسول الله (نوح - ﷺ -) لصاحب العزَّة والحكمة العزيز الحكيم بطلب النصر على أعدائه الذين كذَّبوه ، وعصوه ، وأصرُّوا على الكفر والشرك فدعا

(١) آل عمران (١٤٧) .

(٢) البقرة (٢١٤) .

(٣) غافر (٥١) .

ربه طالباً منه النصر والتمكين فقال : ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾(١) وقال الله تعالى عنه : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾(٢) .

* ويتعبَّد أيضاً (نبي الله صالح - ﷺ -) للعزيز الحكيم - صاحب العزَّة والحكمة بطلب النصر على أعدائه الذين كذَّبوه ، وعصوه ، ولم يذعنوا للحق لَمَّا جاءهم، ولم يؤمنوا بالمعجزات لَمَّا ظهرت لهم ، فأخبر الله عنه قائلاً : ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾(٣) .

* وها هو أيضا نبي الله (لوط - ﷺ -) يقتفي أثر الأنبياء والمرسلين ويتعبَّد للعزيز الحكيم بطلب النصر من صاحب العزة والقوة على قومه المفسدين الذين عثوا في الأرض مفسدين ، وانتكست فطرتهم فقال : ﴿ قال رب انصرني على القوم المفسدين ﴾(٤) .

* ويوجب العزيز الحكيم - جلَّ في علاه - النُّصرة على عباده المؤمنين إذا استنصرهم إخوانهم في الدين ، وإذا استعان بهم أشقاؤهم في العقيدة ، فحينئذ يجب النُّصرة ، ويتحتم النفير على كل المسلمين ، بل ليس على رجالهم فحسب، بل قد يتعدَّى الأمر ، وتجب النُّصرة على النساء والصبيان والشيوخ إذا

---

(١) المؤمنون (٢٦) .
(٢) القمر (١٠) .
(٣) المؤمنون (٣٩) .
(٤) العنكبوت (٣٠) .

دعا الأمر ، وكانت الحاجة ، ومن لم يُلبِّ ، ومن تقاعس ، ومن جَبُن ، وخذل إخوانه في الدين عند استنصارهم ، وطلب النُّصرة ـ مع القدرة ـ فقد خان الله ، وخان الرسول ـ ﷺ ـ وخان الدين ، وخان المؤمنين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال تعالى موجب هذه النُّصرة في الدين والعقيدة : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾[1] .

* وأخيراً وليس آخراً يطمئن العزيز الحكيم عباده المؤمنين بأنه سينصرهم ، بل تفضَّل ـ جلَّ في علاه ـ بأن جعل هذا النصر لهؤلاء المؤمنين حقاً عليه ـ فهو حق تفضُّلي تفضّل به صاحب العزة والحكمة ، وذلك ليطمئن كل مؤمن في كل زمان ، وأن يتطلَّع للنصر ، ويصبو للتمكين ، وحتى لا ينهزم مادياً ولا معنوياً أمام أعداء الله فقال ـ جلَّ من قائل ـ : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾[2] .

(ب) التمكين في القرآن الكريم :

لقد ذُكر التمكين ، ومادة مَكَنَ في القرآن الكريم كثيراً ونذكر هنا أيضاً على عجالة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الآيات الكريمات :

* لقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز أنه مكَّن لنبيه يوسف ـ ﷺ ـ في الأرض ، وذلك بعد الابتلاءات والمحن والشدائد التي تعرَّض إليها هذا النبي

---

(١) الأنفال (٧٢) .

(٢) الروم (٤٧) .

الكريم - ﷺ - وبعدما صبر وأحسن واتقى فمنَّ الله تعالى عليه بالتمكين في الأرض كما قال تعالى : ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾[1] .

* ولقد امتنَّ الله تعالى - أيضا - على عبده الصالح (ذي القرنين) بأن مَكَّن له في الأرض من العلم ، والقوة ، والجنود وأسباب الغلبة ، والقدرة على الإصلاح ، ونشر الأمن والآمان في الأرض . فقال تعالى : ﴿ إنا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾[2] .

* ويمتن الله تعالى على عباده بذكر المسكن والمعيشة ، وأنه مكّنهم في الأرض وهيأها لهم بحيث تمكنّوا من البناء عليها ، وحرثها ، ووجوه الانتفاع بها ، ويحثهم سبحانه وتعالى على الشكر على هذا التمكين في الأرض : فقال تعالى: ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾[3].

* ويُحذِّر الله - سبحانه وتعالى - عباده من انتقامه منهم إذا لم يشكروه على تمكينه لهم في الأرض ، فلكم مكنَّ الله لكثير من الأمم ولكنهم عتو وأفسدوا في الأرض ، ولم يشكروا الله على هذه النعمة - نعمة التمكين في الأرض - فقال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض ما لم

---

(١) يوسف (٥٦) .
(٢) الكهف (٨٤) .
(٣) الأعراف (١٠) .

نمكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾(١) .

* ويمتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين الذين إن مكَّنهم الله في الأرض بعزته وقوته وحكمته أدَّوا شكر هذه النعمة ، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، اعترافاً منهم بفضل الله عليهم ، وتحقيقاً لعبوديتهم لله ـ تعالى ـ صاحب العزَّة والحكمة الذي تفضَّل عليهم بنعمة التمكين في الأرض، فقال تعالى : **﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾**(٢).

* **ونلحظ هنا** :أن الآية السابقة لهذه الآية قول الله تعالى : **﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾**(٣) وفي ذلك ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن تمكين الله لعباده المؤمنين لن يصلوا إليه إلاَّ إذا نصروا الله ، فإذا نصروا الله نصرهم الله وتفضَّل عليهم بالتمكين في الأرض ، ثم يأتي شكر الله على هذا النصر وهذا التمكين الذي هو هبة العزيز الحكيم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر

---

(١) الأنعام (٦)

(٢) الحج (٤١) .

(٣) الحج (٤٠) .

بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، [ويكون نصر العباد لله ـ تعالى ـ بنصر دينه والدفاع عنه ونشره، وكذلك بنصرر سوله ـ ﷺ ـ والاقتداء به ، والسير على هديه ، وكذلك بنصر عباده المؤمنين بمحبتهم ونُصْرتهم] .

* ويمنّ الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين من بني إسرائيل الذين آمنوا برسوله موسى ـ ﷺ ـ واتبعوه ، وصبروا على أذى فرعون وأتباعه ، بعدما استضعفهم وذبّح أبناءهم واستحيا نساءهم ، وأذاقهم أنواع العذاب ، وأفسد في الأرض فمنّ الله عليهم بأن جعلهم أئمة في الأرض ، وجعلهم الوارثين ، ومكّن لهم في الأرض ، جزاء إيمانهم وصبرهم وثباتهم على الحق لمّا جاءهم ، وفي ذلك إشارة لكل عبد يريد التمكين في الأرض . فعليه باقتفاء أثر هؤلاء المؤمنين ليكون له حسن العاقبة وليحظى بالتمكين في الأرض قال تعالى : ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾[١] .

* وأخيرا وليس آخراً يبين الله ـ تعالى ـ شرط الاستخلاف والتمكين في الأرض ، ونعمة الأمن على عباده المؤمنين، أن يُحقّقوا العبادة الخالصة لله ـ تعالى ـ النقية من كل ما يُكدِّرها ، الصافية من كل ما يشوبها ويُعكِّرها من الشرك والرياء والسمعة ، لا بد أن يُحقّقوا التوحيد الخالص ، والعقيدة الصافية، والعبادة المطلقة

---

(١) القصص (٥ : ٦) .

لرب السماوات والأرض ، والبعد عن كل الشرك ودروبه ، ووسائله، وما يفضي إليه قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** ﴾[1] .

ثانيا : النصر والتمكين في السُّنَّة المطهرة :

إن مادة النصر والتمكين ، وطلب النصر من صاحب العزَّة والحكمة في السُّنَّة المطهرة كثير جداً ، ونكتفي هنا في هذا المقام بالإشارة إلى بعض الأحاديث والمواقف لعدم الإطالة ، ومن ذلك :

* عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « **لا إله إلاَّ الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونَصَرَ عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده** »[2].

* وعن سالم ونافع عن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبِّر ثلاث مرات ثم يقول : « **لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون**

(١) النور (٥٥) .

(٢) رواه البخاري كتاب (المغازى) باب (غزوة الخندق وهي الأحزاب) .

تائبون، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون . صدق الله وحده ، ونَصَرَ عبده، وهزم الأحزاب وحده »(١) .

** وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : «ولينصرن الرجل آخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه ، فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره »(٢) .

* وعن إسماعيل بن أبي خالد قال : سمعت عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - يقول : « دعا رسول الله - ﷺ - على الأحزاب فقال : « اللهم مُنْزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »(٣) .

* وعن سليمان بن حبرد - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي - ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »(٤) .

* وعن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهْلكها بِسَنَةٍ عامة ، وأن لا يُسلِّط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح

(١) رواه البخاري كتاب (المغازي) باب (غزوة الخندق وهي الأحزاب) .
(٢) رواه مسلم كتاب (البر والصلة) باب (نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً) .
(٣) رواه البخاري كتاب (المغازي) باب (غزوة الخندق وهي الأحزاب) .
(٤) رواه البخاري كتاب (المغازي) باب (غزوة الخندق وهي الأحزاب) .

بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردُّ ، وإني أعطيتك لأُمتك أن لا أُهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها ـ أو قال مَنْ بين أقطارها » حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً »(١) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

« أمَّا زوى فمعناه جمع . وهذا الحديث فيه معجزات ظاهرة ، وقد وقعت كلها بحمد الله ، كما أخبر به ـ ﷺ ـ .

قال العلماء : المراد بالكنزين الذهب والفضة ، والمراد كنزى كسرى وقيصر، مُلْكي العراق والشام ، فيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب ، وهكذا وقع ، وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى »(٢) .

* وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونُصِرْت بالرعب فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض

---

(١) رواه مسلم كتاب (الفتن وأشراط الساعة) باب (هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي كتاب (الفتن وأشراط الساعة) [١٨ / ٢٢٢] .

فوضعت في يدي » . قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : وقد ذهب رسول الله - ﷺ - وأنتم تنتثلونها[١] .

- وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء وسأله رجلٌ : أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين قال : لا والله ، ماولّى رسول الله - ﷺ - ولكنه خرج شُبان أصحابه وخفافهم حُسْراً ليس بسلاح ، فأتوا قوماً رماة جمع هوازن وبني نضر ، ما يكاد يسقط لهم سهم ، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون ، فأقبلوا هنالك إلى النبي - ﷺ - وهو على بغلته البيضاء ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به ، فنزل واستنصر ثم قال : « أنا النبي لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب ثم صَفَّ أصحابه[٢] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الجهاد والسير) باب (قول النبي - ﷺ - نصرت بالرعب مسيرة شهر) .

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد والسير) باب (من صفَّ أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر) .





إفراد العزيز الحكيم بالتسبيح وطلب النصر والتمكين

الفصل الأول : عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات

الفصل الثاني : التسبيح في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة

الفصل الثالث : التسبيح للعزيز الحكيم عند النصر والتمكين

الفصل الرابع: التسبيح للعزيز الحكيم عند قتال الأعداء .

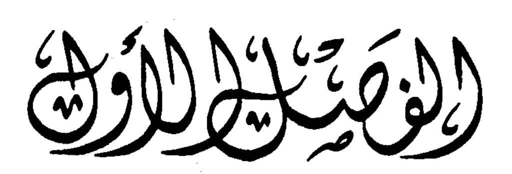
الفصل الخامس: التسبيح للعزيز الحكيم واتباع الرسول الأمي ﷺ

الفصل السادس : التسبيح للعزيز الحكيم عند الشدائد والمِحَن

الفصل السابع : التسبيح للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك







[عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات]

المبحث الأول : أدلة ثبوت اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزَّة والحكمة] من القرآن والسُّنَّة

المبحث الثاني : عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات ، وأقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ

[المبحث الأول]

أدلة ثبوت اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) من القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة :

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم :

إن أدلة ثبوت اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) لله تعالى من القرآن الكريم كثيرة جداً نذكر منها ما يأتي :

قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾(١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمُ ﴾(٢)

قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣)

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٤)

---

(١) آل عمران (١٢٦) .

(٢) الأنفال (١٠) .

(٣) البقرة (١٢٩) .

(٤) البقرة (٢٠٩) .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(١)]

قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٢)]

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٣)]

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[(٤)]

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[(٥)]

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٦)]

ثانياً : الأدلة من السنَّة المطهرة :

والأدلة أيضاً من السنة المطهرة على ثبوت اسم (العزيز) ، وصفة (العزة) لله تعالى كثيرة جداً ونذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :

---

(١) البقرة (٢٢٠) .

(٢) البقرة (٢٢٨) .

(٣) البقرة (٢٦٠) .

(٤) آل عمران (٦) .

(٥) آل عمران (٦٢) .

(٦) التوبة (٧١) .

عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلاَّ أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون »(١) .

وعن مصعب ابن سعد عن أبيه قال : جاء أعرابي إلى رسول الله - ﷺ - فقال علِّمني كلاماً أقوله : قال : « قل لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، والله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العزيز الحكيم » .

قال : فهؤلاء لربي . فما لي ؟

قال : « قل اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني »(٢) .

وعند الإمام البخاري - رحمه الله - : « في حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه الصحابي الجليل أنس بن مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وفيه « ... ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقُلْ يُسْمع ، وسَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلاَّ الله ، فيقول : وعزَّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخرجن منها من قال : لا إله إلا الله »(٣) .

---

(١) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ...﴾. ورواه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب(التعوذ من شر ماعمل، ومن شر مالم يعمل).واللفظ لمسلم.

(٢) رواه مسلم وانفرد به كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) .

(٣) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) .

وفي رواية الإمام مسلم - رحمه الله - : « ... فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله قال : ليس ذاك لك - أو قال ليس ذاك إليك - ولكن وعزَّتي وكبريائي وعظمتي وجِبْريائي لأخرجن من قال : لا إله إلا الله »(١) .

- وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « يبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة فيقول : رب اصرف وجهي عن النار ، لا وعزتك لا أسألك غيرها»(٢) .

وعن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ : « لا يزال يُلْقى فيها - أي النار - وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها ربُّ العالمين قَدَمَهُ فينْزوي بعضها إلى بعض ثم تقول : قَدْ قَدْ ، بعزتك وكرمك ، ولا تزال الجنة تفضلُ حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة »(٣) .

(وفي هذا الحديث دليل على اثبات صفة القدم لله رب العالمين على ما يليق بالله وعظمته ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة) .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الايمان) باب (حديث الشفاعة) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ... ﴾ .

(٣) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم .... ﴾ .

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

« والمراد منه أن النبي ﷺ قال عن جهنم أنها تحلف بعزة الله وأقرَّها على ذلك، فيحصل المراد سواء كانت هي الناطقة حقيقة أم الناطق غيرها كالموكلين بها»(١).

- وعن عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - أنه أتى رسول الله - ﷺ - قال عثمان : وبي وجع قد كاد يهلكني - قال : فقال لي النبي - ﷺ - « **امسحه بيمنيك سبع مرات وقل ؛ أعوذ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أجد** » .

قال: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي ، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم»(٢) .

وفي رواية ابن ماجه - رضي الله عنه - « اجعل يدك اليمنى عليه ثم قل : بسم الله أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شرِّ ما أجد ، سبع مرات ، ففعلت ذلك فشفاني الله - عز وجل »(٣).

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا تردُّ دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حين يُفْطر ، ودعوة المظلوم تُحْمل على الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب - عزَّ وجلَّ - : وعزتي لأنصرنَّ ولو بعد حين »(٤) .

---

(١) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٣ / ٣٨٢) .
(٢) رواه أبو داود كتاب (الطب) باب (كيف الرقى) .
(٣) رواه ابن ماجه كتاب (الطب) باب (ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به) .
(٤) رواه الترمذي كتاب (صفة الجنة) باب (ما جاء في صفة الجنة ونعيمها .

[المبحث الثاني]

(عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات ، وأقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ)

إن عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته ـ هي عقيدة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ فهي العقيدة الحقة في هذا الباب الذي تخبَّط فيه الكثير والكثير ، وزلَّت فيه الأقدام وزاغت فيه الأهواء ، وتعصبت فيه الأقوام ، وأفرط فيه البعض ، وفرَّط فيه البعض الآخر .

إن عقيدة أهل السنة والجماعة وسلفنا الصالح في هذه الأسماء والصفات التي تتعلق بذات الله تعالى هي[1]:

١ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات التي وردت في كتاب ربنا وفي سنة نبينا الصحيحة ـ ﷺ ـ ، وذلك لورود النصوص الصريحة بذلك ، فلا يسع أحد ردَّها أو عدم الإيمان بها .

٢ ـ وكذلك الإيمان بهذه الأسماء والصفات على مُراد الله تعالى وعلى مُراد رسوله ـ ﷺ ـ إيماناً لا يتسرَّب إليه الشك ، ولا يخالطه دخن .

---

(١) انظر : كتاب (العقيدة الصافية للفرقة الناجية) سيد سعيد عبد الغني [٣٢٩ : ٣٣٧] ففيه كلام مفيد في هذا الباب .

٣ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات على حقيقتها بدون تعرض لها بالتأويل وبدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

٤ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات مع الاعتقاد الجازم أن الله مغاير لخلقه في أسمائه وصفاته ، وأنه متفرِّد بالأسماء الحسنى والصفات العليا ، وأنه سبحانه في عليائه لا يشبه خلقه ، وليس كمثله شئ .

قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وَهُوَ السميع البصير ﴾ (١) .

من أقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ في الإيمان بالأسماء والصفات

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ:

« لا يوصف الله إلاَّ بماوصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث » (٢) .

ـ وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ :

« قال : في قول النبي ﷺ : (**إن الله ينزل إلى سماء الدنيا**) (٣) .

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية [٥ / ٢٦] .

(٣) جزء من حديث صحيح . رواه البخاري كتاب (التهجد) باب (الدعاء والصلاة في آخر الليل، وفي كتاب (الدعوات) باب [الدعاء نصف الليل] .
ـ رواه مسلم كتاب (المسافرين) باب (صلاة الليل مثنى مثنى) .
ـ ورواه أحمد حديث رقم (٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٧٧٩) وصححه الشيخ شاكر .
ـ ورواه أبو داود كتاب (الصلاة) باب (أي الليل أفضل) .

ما أشبه هذه الأحاديث : « نؤمن بها ، ونُصدِّق بها ، لا كيف ، ولا معنى ، ولا نردُّ شيئاً منها ، ونعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ حق ، نردُّ على رسول الله ﷺ ، ولانصف الله بأكثر مما وصف به نفسه ،بلا حد ولا غاية قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾[١] .

ونقول كما قال ، ونصفه بما وصف به نفسه ، ولا نتعدّى ذلك ، ولا يبلغه وصف الواصفين »[٢] .

وعلَّق على كلام الإمام أحمد ـ فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ قائلا :

« وقوله : (ولا معنى) أي : لا نثبت لها معنى يخالف ظاهرها كما فعله أهل التأويل، وليس مراده نفي المعنى الصحيح الموافق لظاهرها الذي فسرَّها به السلف ، فإن هذا ثابت ، ويدل علي هذا قوله : « ولا نردُّ شيئاً منها ، ونصفه بما وصف به نفسه » ، فإن نفيه لردِّ شيء منها ، ونفيه لعلم كيفيتها ، دليل على إثبات المعنى المراد بها »[٣] .

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها للشيخ محمد بن عثيمين ص (٣١:٣٢] .

(٣) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها للشيخ محمد بن عثيمين ص [٣٢ : ٣٣] .

قال الإمام ابن عبد البر - رحمهالله - :

« أهل السُّنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنّة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلاَّ أنهم لا يُكيِّفُون شيئاً من ذلك، ولا يحدُّون فيه صفة محصورة.

أما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرونها ، ولا يحملون شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرَّ بها مشبِّه ، وهم عند من أقرَّ بها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون : بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة - رحمهم الله - »[١] .

وقال القاضي أبو يعلى - رحمه الله - في كتاب « إبطال التأويل » :

« لا يجوز ردُّ هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها ، لكن ما رُوى عن الإمام أحمد وسائر الأئمة - رحمهمالله - إلى أن قال : ويدل على إبطال التأويل : أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرَّضوا لتأويلها ولا صرفوها عن ظاهرها ، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه ، لمافيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة »[٢] .

---

(١) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٨٧/٥] . وانظر كتاب (التمهيد) لابن عبد البر (١٤٥/٧) .

(٢) انظر : مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٨٩/٥ :٩٠] .

ـ وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ :

« آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مُراد الله ، وآمنت برسول الله ﷺ وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مُراد رسول الله ﷺ »(١) .

ـ وقال الإمام ابن قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ :

(وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف ـ رضي الله عنهم ـ ، كلهم متفقون على الإقرار ، والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تعرُّض لتأويله)(٢).

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

(ثم القول الشامل في جميع هذا الباب : أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به ـ رسوله ﷺ وبماوصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث) .

ومذهب السلف ـ رحمهم الله ـ : أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبماوصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ،ومن غيرتكييف ولا تمثيل ، ونعلم أن ما وُصِفَ الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه

---

(١) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها لابن عثيمين ص(٣٤) .

(٢) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها لابن عثيمين ص (٣٥) .

يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد .

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدَّسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية ، وله أفعال حقيقية ، فكذلك له صفات حقيقية .

هو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزَّه عنه حقيقة فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه)[1] .

قال الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ :

وقال الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن الآجري في كتابه الشريعة : (اعلموا وفقنا الله وإياكم للرشاد من القول والعمل : أن أهل الحق يصفون الله عزَّ وجلَّ بماوصف به نفسه عزَّ وجلَّ ، وبما وصفه به رسول الله ﷺ وبما وصفه به الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ، ولا يقال فيه كيف ؟ بل التسليم ، والإيمان)[2].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : [٥ / ٢٦] .

(٢) كتاب الشريعة للآجري ص (٢٧٧) .

- وقال الشيخ إسماعيل الصابوني - رحمه الله - :

(إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسُّنة يعرفون ربهم تبارك وتعالى بصفاته التي نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله على ما وردت به الأخبار الصحاح، ونقله العدول الثقات ولايعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، ولا يُكيفونها تكيف المشبِّه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف ، ومَنَّ عليهم بالتفهيم والتعريف حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه ، وتركوا العقول بالتعطيل والتشبيه ، واكتفوا بنفي النقائص)[1] .

وقال الإمام ابن خزيمة - رحمه الله - :

(سئل الإمام ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: « ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب أئمة الدين ، مثل مالك وسفيان والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق ويحيى بن يحيى وابن المبارك وأبي حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وأبي يوسف يتكلمون في ذلك ، وينهون أصحابهم عن الخوض فيه ، ويدلُّونهم على الكتاب والسنة)[2] .

---

(١) نقلاً عن كتاب (المنطق) لابن تيمية ص (٤) .

(٢) (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات) للكرمي ص (٦٢) .

ونقل الإمام اللالكائي عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ :

(أن أحمد بن حنبل سمع شخصاً يروي حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ، ولا تغير حال ، فأنكر أحمد ذلك وقال : « قلْ كما قال رسول الله ﷺ فهو كان أغير على ربه منك »)[(١)] .

وقال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ :

« أما الكلام في الصفات فإن ما روى منها من السنن والصحاح مذهب السلف إثباتها ، وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصِّر عنه)[(٢)] .

وقال الإمام إسماعيل الأصفهاني ـ رحمه الله ـ :

(جاءت الأخبار عن النبي ﷺ متواترة في صفات الله تعالى موافقة لكتاب الله تعالى، ونقلها السلف على سبيل الإثبات والمعرفة والإيمان به والتسليم ، وترك التمثيل والتكييف وأنه عزَّ وجلَّ أزلي بصفاته وأسمائه التي وصف بها نفسه، أو وصفه الرسول ﷺ بها ، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت كان بذلك

---

(١) كتاب (السنة) للالكائي [٣ / ٤٥٢] .

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي [١٨ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤] .

جاحداً ، ومن زعم أنها محدثة لم تكن ثم كانت دخل في حكم التشبيه في الصفات التي هي محدثة في المخلوق زائلة بفنائه غير باقية ، وذلك أن الله تعالى امتدح نفسه بصفاته ، ودعا عباده إلى مدحه بذلك وصدَّق به المصطفى ﷺ ، وبيَّن مراد الله فيما أظهر لعباده من ذكر نفسه وأسمائه وصفاته وكان ذلك مفهوماً عند العرب غير محتاج إلى تأويله)[١] .

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - :

(والصواب ما عليه السلف الصالح من أمر آيات الصفات وأحاديثها ، وكما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ، ولا تمثيل ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك البته ، خصوصاً الإمام أحمد، ولاخوض في معانيها ، ولا ضرب مثل الأمثال لها ، وإن كان بعض من كان قريباً من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئاً من ذلك فلا يُقتدى بهم في ذلك ، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن مبارك ، ومالك ، والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد وأبي عبيد ونحوهم)[٢] .

قول الشيخ عبد الباقي الحنبلي في الصفات :

قال الشيخ عبد الباقي الحنبلي رحمه الله في كتاب العيز والأثر في عقائد أهل الأثر : (يحرم تأويل ما يتعلَّق به تعالى وتفسيره كآية الاستواء ، وحديث النزول

---

(١) كتاب (الحجة في بيان المحجة) للإمام أبي القاسم إسماعيل بن الفضل الأصبهاني [١/ ١٦٩].

(٢) (فضل علم السلف على الخلف) لابن رجب بتصرف ص (٤٥ - ٤٦) .

وغير ذلك من آيات الصفات ، إلا بصادر عن النبي ﷺ ، أو بعض الصحابة ، وهذا مذهب السلف قاطبة فلا نقول في التنزيه كقولة المعطّلة بل نثبت ولا نحرّف، ونصف ولا نكيّف والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فمذهبنا حق بين باطلين ، وهدى بين ضلالتين ، وهو إثبات الأسماء والصفات مع نفي التشبيه والأدوات)[1].

وقال الشيخ حافظ أحمد الحكمي - رحمه الله - :

(وإثبات صفاته العُلى التي وصف بها نفسه ووصفه بها نبيه ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال ، من صفات الذات وصفات الأفعال ، مما تضمنته أسماؤه بلا اشتقاق كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحكم والرحمة والعزة والعلو وغيرها، ومما أخبر به عن نفسه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ ولم يشتق منه اسماً كحبه للمؤمنين والمتقين والمحسنين، ورضائه عن عباده المؤمنين ورضاه لهم الإسلام ديناً، وكراهته انبعاث المنافقين، وسخطه على الكافرين ، وغضبه عليهم وإثبات وجهه ذي الجلال والإكرام ، ويديه المبسوطتين بالإنفاق وغير ذلك ، مما هو ثابت بالكتاب والسنة والفطرة السليمة)[2] .

---

(١) كتاب (العين والأثر في عقائد أهل الأثر) للشيخ عبد الباقي الحنبلي ص (٣٥ - ٣٦) .

(٢) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) للشيخ أحمد الحكمي (١ / ١٢٩) .

وقال الشيخ حافظ الحكمي أبياتاً جميلة :

وكل ماله من الصفـات   أثبتها في محكم الآيات
أوصحَّ فيما قاله الرسول   فحقه التسليم والقبول[١]

وقال أيضاً رحمه الله ـ :

نَمُرُّها صريحـة كمـا أتت   مع اعتقادنا لما له اقتضت
من غير تحريف ولا تعطيل   وغير تكييف ولا تمثيـل
بل قـول أئمـة الهـدى   طوبى لمن بهديهم قد اهتدى[٢]

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

(اعتقاد انفراد الرب جلَّ جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله ، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أونفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب وعن كل ما ينافي كماله)[٣] .

---

(١) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) لشيخ أحمد الحكمي (١ / ٣٤٦) .
(٢) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) للشيخ أحمد الحكمي (١ / ٣٥٦) .
(٣) كتاب (القول السديد) ص (١٥) .

[حكم من جحد شيئاً من الأسماء والصفات]

لقد سمَّى الله تعالى ذاته بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عليا ، فله الأسماء الحسنى والصفات العُلى جلّ في عليائه ، وأوجب علينا الإيمان بهذه الأسماء والصفات، كما أخبر بها عن نفسه ، وكما بلَّغ عنه رسوله الكريم ﷺ، على ما يليق بجلال الله تعالى وعظيم سلطانه .

ولا يجوز التجرؤ على الله تعالى بجحود شيء من أسمائه أو صفاته ، فأي تجرؤ هذا على الذات الإلهية ، وأي تعدٍ هذا على الخصائص الربانية ، إنه تجاوز للحد الذي قد يُخْرِج صاحبه من الملَّة ويوقعه في دائرة الكفر ، وهاوية الضلال .

- **ولا يخلوا هذا الجحود من نوعين :**

[**إنكار تكذيب**] وهذاكفر محض لا شك فيه ولا جدال .

[**إنكار تأويل**] وهذا فيه تفصيل . فإن كان له مُسوِّغ في اللغة العربية ، يُعْتمد عليه ، فلا يُخْرِج صاحبه من الإسلام ، وإن وقع في هاوية البدع والضلال . وإن لم يكن لهذا التأويل مسوِّغ كان حكمه كحكم جحود التكذيب ، كفر يخرج صاحبه ومُعْتقده من الملَّة .

- **قال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - :**

الجَحْدُ : الإنكار ، والإنكار نوعان :

الأول :

إنكار تكذيب : وهذا كفر بلا شك ، فلو أن أحداً أنكر إسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسُّنَّة ، مثل أن يقول : ليس لله يد ، أو أنَّ الله لم يستو على عرشه ، أو ليس له عين ، فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأن تكذيب خبر الله ورسوله ﷺ كفر مخرج عن الملَّة بالإجماع .

الثاني :

إنكار تأويل : وهو أن لاينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها ، وهذا نوعان :

النوع الأول :

أن يكون للتأويل مُسوِّغ في اللغة العربية ، فهذا لا يوجب الكفر .

ومثال ذلك : « إذا قال قائل في قوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾[1] . أن المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى القوة والنعمة، قال الشاعر :

وكم لظلام الليل عنْدك من يد   تُحدِّث أن المانوية تكْذِبُ

فقوله « من يد » أي من نعمة، لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لاتخلق الخير ، وإنما تخلق الشر » .

---

(١) المائدة : ٦٤ .

النوع الثاني :

ألا يكون له مسوّغ في اللغة العربية ، فهذا حكمه الكفر ، لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً ، مثل أن يقول : المراد بقوله تعالى : ﴿ **تجري بأعيننا** ﴾(١) تجري بأراضينا ، فهذاكافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً ، فهو مكذب ، ولو قال في قوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾(٢) .

المراد بيده : السموات والأرض ، فهو كافر أيضاً لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية ، ولا هو يقتضي الحقيقة الشرعية ، فهو مُنْكرٌ ومكذِّب »(٣) .

ولقد جحدت قريش اسم (الرحمن) فوصفهم الله تعالى بالكفر ، رغم أنهم يقرُّون بوجود الله تعالى ولا يجحدونه ، ولكنهم جحدوا هذا الاسم - ضمن كفرياتهم وشركياتهم - قال تعالى : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾(٤) .

وفي حديث سهل بن عمرو : « لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحُديبية قال للكاتب : (**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**) .

---

(١) القمر : ١٤ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

(٣) انظر كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢ / ١٨٣ : ١٨٤) بتصرف بسيط .

(٤) الرعد : ٣٠ .

قال سهل : أما الرحمن فوالله ما أدري ماهي ولكن أكتب باسمك اللهم»[(١)].

فليحذر كل جاحد أو متأول لاسم من أسماء الله تعالى ، أو لصفة من صفاته جلّ في عليائه ، فإن بطش الله شديد ، وعذابه أليم ، والله عزّ وجلّ يغار ، ولا يغفر أن يُشْرك به أو يُكْفر به ، فليحرص الجميع على التوحيد وسلامة المعتقد ، فوالله إنه مفرق الطريق بين الجنة والنار والعياذ بالله .

أسماء الله تعالى ليست محصورة بعدد

إن أسماء الله تعالى توقيفية ، ومعنى توقيفية أنها موقوف علمها على الله تعالى ، وعلى رسوله الله ، فلا مجال للإجتهاد فيها ولا مكان للرأي في تحديدها ، فالله عز وجلّ سمّى نفسه بماشاء ، وسمّاه رسوله ﷺ بما أوحى إليه ربه ، وبما أذن له به من الأسماء الحسنى .

قال أبو الحسن القابس ـ رحمه الله ـ :

أسماء الله تعالى وصفاته لا تُعْلم إلاّ بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، ولا يدخل فيها القياس ، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين »[(٢)] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الشروط) باب (الشروط في الاجتهاد) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم غير واحد) [١١/٣٢٠] .

وهذه الأسماء الحسنى ليست محصورة بعدد معين ، فإن أسماء الله تعالى لا يحصيها ولا يعلم عددها إلاَّ هو جلَّ في علاه ، وتقدَّست أسماؤه ، وعَظُمَ سلطانه، ولا إله غيره ، ولا يُعْبد إلاَّ إياه .

وأما ما جاء في الحديث الصحيح بذكر عدد معين فإنه ليس على سبيل الحصر ، ففي الحديث الشريف ، عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن رسول الله ﷺ قال : (**إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلاَّ واحدة - من أحصاها دخل الجنة**)[1] .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال : (**لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحدة - لا يحفظها أحدٌ إلاَّ دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر**)[2] .

فلا يفهم من هذا الحديث أن أسماء الله تعالى محصورة في هذا العدد (تسعة وتسعين) ، فإن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك بكثير ، فلا يحصى أسماء الله تعالى إلا هو سبحانه في عليائه ، فإن معنى الحديث غيرما يتوهمه البعض في هذا الباب وقد نبَّه العلماء - رحمهم الله - على ذلك قديماً وحديثاً - :

- قال الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - :

ونقل النووي - رحمه الله - اتفاق العلماء عليه فقال : ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما

(١) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (إن لله مئة اسم إلا واحدة) .
ورواه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب (في أسماء الله تعالى) .
(٢) رواه البخاري كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم غير واحدة) .

مقصود الحديث أن هذه الأسماء مَنْ أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء .

ويؤيده قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان « **أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**[(١)] »[(٢)] .

قال الإمام الخطابي - رحمه الله - :

(في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصصة بهذا العدد، وليس فيه منع ما عداهامن الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معاني ، وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله « أحصاها » لا قوله « لله » . وهو كقولك لزيد ألف درهم أعدَّها للصدقة ، أو لعمر مائة ثوب من زاره ألبسه إياها)[(٣)] .

ومقصود المثالين عند الإمام الخطابي - رحمه الله - أنه ليس معنى أن زيداً لـمَّا أعدَّ ألف درهم للصدقة ليس معنى ذلك أنه لا يملك غيرها .

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (٥ / ٢٦٦) ح (٣٧١٢)، وابن حبان برقم (٩٦٨) من طريق أبي سلمة الجهني، والحاكم (١ / ٥٠٩ ، ٥١٠) ، والحديث صحَّح إسناده الشيخ شاكر في تخريجه للمسند .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (٢٢٣/١١) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (٢٢٣/١١ : ٢٢٤) .

وكذلك ليس معنى أن عمراً أعدَّ المائة ثوب لمن زاره ، ليس معنى ذلك أنه لا يملك غيرها .

وهكذا ليس معنى أن لله تسعة وستعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، ليس معنى ذلك أنه ليس له أسماء غيرها .

قال القاضي أبي بكر بن الطيب ـ رحمه الله ـ :

« ليس في الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلاَّ هذه العِدّة ، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة ، ويدل على عدم الحصر أن أكثرها (يعني أكثر أسماء الله المذكورة في الكتاب والسُّنة) صفات ، وصفات الله لا تتناها»[١] .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ :

(وأما قوله ﷺ : « **إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة** » فليس معناه أنه ليس له إلاَّ هذه الأسماء ، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة ، فقوله : «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى ، وليس استئنافية منفصلة ، ونظير هذا قول القائل : عندي مئة فرس أعددتها للجهاد

---

(١) فتح الباري شرح صحيح ، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (١ / ٢٢٤) .

في سبيل الله ، فليس معناه أنه ليس عنده إلاَّ هذه المئة ، بل معناه أن هذه المئة معدَّة لهذا الشيء)(١) .

المقصود بالإحصاء لأسماء الله تعالى :

ليس المقصود بإحصاء أسماء الله تعالى مجرد العلم والحفظ لهذه الأسماء ، ولا كتابتها ، والاحتفاظ بها ، بل إن الأمر أعظم وأشمل من ذلك ، فيتسع الأمر إلى أن يشمل ثلاثة أمور :

يقول فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ :

« معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ ، ولكن معنى ذلك :

أولاً : الإحاطة بها لفظاً .

ثانياً : فهمها معناً .

ثالثاً : التعبُّد لله بمقتضاها ، ولذلك وجهان :

الوجه الأول :

أن تدعو الله بها ، لقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾(٢) .

---

(١) (القول المفيد على كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين (٢ / ١٨٦) .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .

أن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك ، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك ، فعند سؤال المغفرة تقول : يا غفور ، وليس من المناسب أن تقول : يا شديد العقاب اغفر لي بل هذا يشبه الاستهزاء ، بل نقول أجرني من عقابك .

الوجه الثاني :

أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء ، فمقتضى الرحيم الرحمة ، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله ، ومقتضى الغفور المغفرة ، إذاً فافعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك ، هذا هو معنى إحصائها فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب، لأن الأعمال الصالحة سبب للدخول وليست بدلاً ، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح ، عن النبي ﷺ قوله (**لن يُدْخل الجنة أحداً عَمَلُه . قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : ولا أنا إلاَّ أن يتغمَّدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قلَّ**)[1] .

فلا تغتر يا أخي بعملك ، ولا تعجب فتقول : أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة)[2] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (القصد والمداومة على العمل) .
ورواه مسلم كتاب (المنافقين) باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله) ، واللفظ لمسلم .

(٢) (القول المفيد علي كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/٢٥٨: ٢٥٩) .

أسماء الله مترادفة متباينة :

أسماء الله تعالى كلها حسنى ، سواء ما سمَّى بها نفسه ، أو سمَّاه بها رسوله ﷺ وذلك على ما يليق بعظمة الله تعالى ، وجلاله ، وعظيم سلطانه ، وهذه الأسماء هل هي مترادفة ؟ أم هي متباينة ؟ وللإجابة على هذه الأسئلة ينبغي لنا أن نعلم المقصود بالترادف ، والمقصود بالتباين .

فالترادف : هو ما اختلف لفظه واتفق معناه .

والتباين : هو ما اختلف لفظه ومعناه .

وعلى هذا الضوء نستطيع أن نقول أن أسماء الله تعالى من ناحية (الترادف) فهي مترادفة باعتبار دلالاتها على ذات واحدة ، وعلى مسمى واحد ، فإن اسم السميع يدل على ذات الله تعالى ، وكذلك اسم البصير فإنه يدل علي ذات الله العليا ، وكذلك الحكيم ، والعزيز ، والرحيم ، وكل أسماء الله تعالى فإنها تدل على ذات الله جلَّ في علاه ، فهي مترادفة باعتبار أنها تدل على مسمى واحد .

وأما من ناحية (التباين) فإن أسماء الله عزَّ وجلَّ متباينة باعتبار معانيها التي تدل عليها ، فإنَّ كل اسم من هذه الأسماء يدل على معنى خاص به يختلف عن أي اسم آخر ، ولذلك فلقد تعددت صفات الله تعالى بما تضمنته هذه الأسماء من معاني مختلفة .

فإن اسم (الرحيم) يدل على معنى الرحمة ، ويدل على صفة الرحمة لله تعالى ، واسم (السميع) يدل على معنى السمع ، وصفة السمع ، وهذا المعنى

وتلك الصفة تختلف وتتباين عن صفة ومعنى الرحمة ، وإن كان الجميع يدل على ذات واحدة ، ويقصد به مسمًّى واحد .

ولكن قد يدل الاسم على أكثر من معنى ولكن من طريق دلالة اللزوم ، وما يتضمنه هذا الاسم من بعض المعاني التي يدل عليها هذا الاسم دلالة تفهم وتستنبط من هذا الاسم بدلالة اللزوم .

فمثلاً : اسم (الخلاَّق) فهو يدل على معنى (الخَلْق) ويدل على صفة الخَلْق ولكن إذا تأملنا فإن هذا الاسم يدل أيضاً من باب دلالة اللزوم على معنى (العلم) وصفة (العلم) . إذ كيف بمن يملك الخلق ويقدر عليه أن يكون على غير عِلْمٍ، فإن من لزوم الخلق العلم ، فلا يصح الخلق عن جهل .

وكذلك من لزوم (الخَلْق) ومن لزوم اسم الخلاَّق أن يكون ذلك الخَلْق عن قدرة ، فإن (الخلاَّق) لا بد له من [علم وقدرة] . قال تعالى : ﴿ وهو الخلاق العليم ﴾[1] .

وعليه:

فإن الاسم من أسماء الله تعالى يدل على الذات الإلهية وعلى المعنى الذي تضمنه هذا الاسم (أي الصفة المتَضَمَّنَة في هذا الاسم) . وعليه فإنه يجب علينا

---

(١) يس (٨١).

الإيمان بهذا الاسم على أنه اسماً من أسماء الله تعالى ، ونؤمن أيضاً بما تضمنَّه من الصفة التي تستفاد منه . وأيضاً يجب علينا الإيمان بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحُكْم إيماناً جازماً ، لايتسرَّب إليه الشك ولا التعطيل ولا التحريف ، ولا التأويل ، ولا التكيف ولا التمثيل .

فإذا آمنا بأن من أسماء الله تعالى (السميع) فيجب أن نؤمن بأن من صفات الله عزَّ وجلَّ (السمع) ، وعليه أيضًا يجب الإيمان والاعتقاد الجازم بأن الله عزَّ وجلَّ (يسمع) سمعاً حقيقياً منزَّهاً عن التشبيه والتمثيل ، والتعطيل والتحريف والتأويل ، سمعاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه . قال تعالى: ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما** ﴾(١) .

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ **قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾(٢) ،(٣) .

أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف :

إنَّ أسماء الله تعالى كلها حسنى، سمَّى بها الله نفسه ، وسمَّاه بها رسوله ﷺ ، ووجب علينا الإيمان بها ، واعتقاد أنها ليست كأسمائنا ، ولا تشبه أسماءنا

---

(١) المجادلة : (١) .

(٢) طه : (٤٦) .

(٣) انظر كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن صالح العثيمين [١٨٥/٢] .

إلا من ناحية اللفظ ، وتختلف عن أسمائنا من ناحية الكمال ، فإن لله عزَّ وجلَّ الأسماء الحسنى البالغة في الحسن والكمال والعظمة .

وأسماء الله عزَّ وجلَّ أعلام وأوصاف ، ليست أعلاماً محصنة تدل على الذات فقط ، بل هي أعلام تدل على الذات ، وأوصاف تدل على ما يتضمنه هذا الاسم من أوصاف . ومثال ذلك : اسم (الرحيم) فإنه اسم يدل على ذات الله جلَّ في علاه ، وكذلك يدل هذا الاسم على صفة لله عزَّ وجلَّ لازمة له وهي (الرحمة) فدل ذلك الاسم على (الذات والصفة) .

وذلك بخلاف ما ذهب إليه أهل الباطل من المعطِّلين الذين زعموا أن أسماء الله تعالى مجردة من المعاني ، وقالوا أنها لا تدل إلاَّ على الذات فقط ولا معنى لها، فادعوا كذباً وزوراً وافتراءاً على الله أن الله [سميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، وعزيز بلا عزة، وعليم بلا علم] ، وعلَّلوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد الذات !!!

وهذا كلام باطل مردود عليهم ، ولا تقوم به حجة ، وليس لهم عليه برهان فالكتاب والسنة والعقل شهود على بطلان ذلك ، فكم من آية كريمة يصف فيها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه بصفات عديدة مع أنَّ ذاته واحدة ، وهو الواحد الأحد ، قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو

العرش المجيد فعال لما يريد ﴾[١] .

وعلى ذلك فأسماء الله تدل علي معاني وأوصاف فالسميع تدل على السمع، والبصير يدلُّ على البصر ، والعليم يدلُّ على العلم ، والعزيز يدلُّ على العزة[٢] .

---

(١) البروج : (١٢ : ١٦) .

(٢) انظر : كتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ص (١٢ : ١٣) ، وكتاب (القول المفيد شرح كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين (٢ / ١٨٤) .

أنـواع الصفـات

إن لله تعالى الصفات العليا والصفات المُثْلى ، ذات الكمال المطلق ، فلا تدانيها أي صفات ، فهو سبحانه وتعالى المتفرِّد بصفات الكمال جلَّ في علاه .

وهذه الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام(١) .

الأول : [صفات ذاتية] ويقال معنوية ، وهي الصفات الملازمة لذات الله تعالى لا تنفك عنه أبداً ، والتي لم يزل سبحانه وتعالى ولا يزال متصفاً بها ، وهي ملازمة لذاته جلَّ في علاه ، مثل [السمع ، البصر ، العلم ، القدرة ، ..] وهي معنوية ، لأن هذه الصفات معاني . قال تعالى : ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليماً** ﴾(٣) .

فيجب الإيمان بهذه الصفات وعدم جحودها ، وعدم تأويلها ، بل الإيمان بها على مراد الله تعالى ، وعلى منهج رسول الله ﷺ ، ووفق فهم السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ من أهل السنة والجماعة . والحذر من الوقوع في هوة الضلالة والبدع .

---

(١) انظر : كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن صالح العثمين (٢ /١٨٧: ١٨٨) وذلك بتصرف وانظر كتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) للشيخ نفسه ص (٥١) .

(٢) المجادلة : ١ .

(٣) النساء : ٣٢ .

الثاني : [**صفات فعلية**] وهذه الصفات هي التي يفعلها الله عزَّ وجلَّ ، وهي تتعلَّق بمشيئة الله تعالى ، إن شاء فعلها ، وإن لم يشأ لم يفعلها ، فهي متعلقة بمشيئة الله تعالى ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يتَّصف بها دائماً ، ومثال ذلك : [الكلام] فإن الله عزَّ وجلَّ يتَّصف بالكلام ، ولكنه سبحانه يتكلم وقتما شاء ، ومع من شاء من خلقه . فصفة الكلام إذًا صفة فعليه يفعلها الله تعالى إذا شاء وبكيفية تليق بجلاله. { ومن الصفات الفعلية أيضا : [النزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، الخلق ، .... } .

مع ملاحظة : أن الصفة قد تكون صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ، فتكون ذاتية من حيث الأصل ، وفعلية من حيث آحاد الحدوث ، فمثلاً الكلام والخلق من صفات الله الذاتية من حيث الأصل، فهما، ملازمان لذاته، فسبحانه وتعالى ما يزال، ولا يزال متكلماً خالقاً ، فهما من صفات الكمال ، وهو سبحانه وتعالى متَّصف بكل صفات الكمال .

وأما من ناحية اعتبار آحاد الكلام وآحاد الخلق ، فهما من الصفات الفعلية التي يفعلها الله سبحانه وتعالى ، وقتما شاء ، وكيفما أراد ، لأن الكلام والخلق يتعلقان بمشيئته ـ جلَّ في علاه ـ فمتى شاء أن يتكلم تكلَّم ، وتَكلَّم بما شاء ومع من شاء من خلقه . ومتى شاء أن يخلق خلق ما شاء من مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾(٣).

ثالثاً : [**صفات خبرية**] وهذه الصفات هي عبارة عن أجزاء وأبعاض بالنسبة لنا كمخلوقين ، أمَّا في حق الخالق فلا يقال ذلك في حق الله تعالى تقدَّست أسماؤه وعَظُمت صفاته ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾(٤) . لكن يقال في حق الله تعالى أنها صفات خبرية ، وذلك لأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه في كتابه العزيز ، وأخبر بها عنه رسوله ﷺ في سنته المطهرة ، وهذه الصفات الخبرية يجب الإيمان بها وإثباتها لله - عزَّ وجلَّ - على ما يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، ومن ذلك [الوجه، العين، الساق، اليد، القدم، .....] .

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ٤٧ .

(٣) النحل : ٨ .

(٤) الشورى : ١١ .

قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾[(٣)] .

تقسيم نصوص الصفات وطريقة الناس فيها :

تنقسم نصوص الكتاب والسنة الواردة في الصفات إلى قسمين : (واضح جَليّ ، ومُشْكل خفي) ، (فالواضح) ماتضح لفظه ومعناه ، فيجب الإيمان به لفظاً وإثبات معناه حقيقة بلا ردٍّ ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، لأن الشرع وَرَدَ به ، فوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول والتسليم .

وأما (المشكل) وهو مالم يتضح معناه لإجمال في دلالته أو قصر في فهم قارئه ، فيجب إثبات لفظه لورود الشرع به ، والتوقُّف في معناه وترك التعرُّض له لأنه مُشْكل لا يمكن الحكم عليه ، فنرُدُّ علمه إلى الله ورسوله ﷺ وقد انقسمت طرق الناس في هذا المُشْكل إلى طريقتين :

الطريقة الأولى : طريقة الراسخين في العلم الذين آمنوا بالمحكم والمتشابه وقالوا : ﴿ كل من عند ربنا ﴾[(٤)]، وتركوا التَّعرُّض لما لا يمكنهم الوصول إلى

---

(١) الرحمن : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) القلم : ٤٢ .

(٣) الفتح : ١٠ .

(٤) آل عمران :٧ .

معرفته والإحاطة به ، تعظيماً لله عزَّ وجلَ ، وتأدباً مع النصوص الشرعية ، وهم الذين أثنى الله عليهم بقوله : ﴿ **والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا** ﴾[١] .

الطريقة الثانية : طريقة الزائغين الذين اتبعوا المتشابه ، طلباً للفتنة وصدًا للناس عن دينهم ، وعن طريقة السلف الصالح ، فحاولوا تأويل هذا المتشابه إلى ما يريدون لا إلى ما يريده الله ورسوله ﷺ ، وضربوا نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض ، ويعمونهم عن هدايتها ، هؤلاء هم الذين ذمَّهم الله بقوله : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾[٢]، [٣] .

ـ تقسيم توحيد الأسماء والصفات إلى قسمين[٤]:

وينقسم التوحيد القولي (الأسماء والصفات) إلى قسمين ، كل منهما وردت به آيات الكتاب العزيز :

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) آل عمران : ٧ .

(٣) شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن عثيمين (٣٢ ـ ٣٣) . وانظر : كتاب (العقيدة الصافية للفرقة الناجية) سيد سعيد عبد الغني ص (٣٣٠ : ٣٣١) .

(٤) أصل هذا التقسيم مأخوذ عن الدكتور/محمد خليل هراس، ضمن شرحه لنونية ابن القيم، فليُراجع للاستفادة.انظركتاب (العقيد الصافية للفرقة الناجية)سيد سعيد عبدالغني(٣٣١:٣٣٤) .

القسم الأول : « سلْب » أي نفي للنقائص والعيوب عن الله تعالى .

القسم الثاني : « إثبات » وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى . (وسوف يأتي الكلام عليه في الكلام على صفات الله تعالى وإثباتها له).

أما القسم الأول : وهو (السلب) فهو وسيلة ومقصود لغيره ، فإن السلب لا يُراد لذاته ، وإنما يقصد لما يتضمَّنه من إثبات الكمال ، فكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص ، فإنه متضمن للمدح والثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة ، وهذا السلب على قسمين:

ـ قال العلاَّمة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته :

توحيدُهم نوعان قولي[1] وقعـــ ـــلي[2] كلا نوعَيْه ذو برهان

فالأول القولي ذو نوعين أيْـــ ـــضًا في كتاب الله موجودان

إحداهما سلب وذا نوعان أيـــ ـــضًا فيه حقًا فيه مذكـوران

سلب النقائص والعيوب جميعها عنـــه هما نوعان معقـولان

سلب لمتصل ومنفصل همــا نوعـان معروفان أما الثانـي

---

(١) قولي : وهو توحيد الأسماء والصفات .

(٢) فعلي : وهو توحيد الألوهية .

القسم الأول : سلب متصل :

وضابطه : نفي كل ما يناقض صفة من الكمال التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسله ﷺ ، كنفي الموت المنافي للحياة ، قال تعالى : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت** ﴾(١) .

ونفي العجز المنافي للقدرة ، قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾(٢) .

وكذلك نفي وسلب السِّنة والنوم المنافي لكمال القيومية ، قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾(٣) .

وكذلك نفي وسلب الجهل والنسيان عن الله تعالى ، المنافي لعلمه الكامل المحيط بكل ما في السماوات والأرض قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾(٤).

وكذلك نفي وسلب الإرادة المنافي للاختيار ، والذُّل المنافي للعزة ، والسَّفه المنافي للحكمة .

---

(١) الفرقان : (٥٨) .

(٢) ق : (٣٨) .

(٣) البقرة : (٢٥٥) .

(٤) آل عمران : (٥) .

القسم الثاني : سلب منفصل :

وضابطه تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تنبغي إلاَّ له ، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته ، فإنه متفرِّد بتمام الملك والقوة والتدبير ، وفي إلهيته فهو وحده الذي يجب أن يألهه الخلق، ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم ، في أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ **قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾(١) .

ففي هاتين الآيتين نزَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه عن ثلاثة أشياء :

١ ـ عن الشرك معه في الملك .

٢ ـ عن المعاونة من خلقه له .

٣ ـ عن الشفاعة بغير إذنه .

وقال تعالى ـ نافياً عن نفسه اتخاذ الصاحبة (الزوجة) ، ومنزِّهاً نفسه عن الولد والنِّد والشريك : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(٢) . (٣) .

---

(١) سبأ : (٢٢ ـ ٢٣) .

(٢) الإخلاص : (١ ـ ٤).

(٣) انظر (شرح النونية) للدكتور محمد خليل هراس (٥٤ ـ ٥٩) .

الصحابة رضوان الله عليهم ـ لم يتنازعوا في باب الأسماء والصفات

إن باب الأسماء والصفات من أهم أبواب العقيدة الإسلامية ، فهو يتعلق بذات الله تعالى ، وصفاته العليا ، فهو أشرف الأبواب لتعلقه بأشرف ذات ، ولذلك لقد أوضحه الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز أكمل توضيح ، وأحسن بيان ، فهو القائل جلَّ في عليائه : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[(١)] . والقائل سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[(٢)] . والقائل جلَّ شأنه وعظمت صفاته : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[(٣)] .

وقال سبحانه واصفاً نفسه بنفسه قائلا جل ذِكْرُه : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[(٤)] .

وأثبت لنفسه سبحانه وتعالى ـ كل صفات الكمال حيث قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾[(٥)].

---

(١) الأعراف : (١٨٠) .

(٢) النحل : (٧٤) .

(٣) الشورى : (١١).

(٤) الإخلاص : (١ ـ ٤) .

(٥) النحل : (٦٠) .

قال الشخ السعدي - رحمه الله - :

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أي المثل الناقص والعيب التام .

« ولله المثل الأعلى » وهو كل صفة كمال ، وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه من الوجوه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو التعظيم ، والإجلال ، والمحبة ، والإنابة ، والمعرفة »(١) .

- وأيضاً لقد لقَّن الرسول ﷺ أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - العقيدة الصحيحة والصافية ، وخاصة ما يتعلَّق بذات الله المقدَّسة وصفاته العليا ، وها هي أحاديثه الشريفة خير برهان على ذلك مما يضيق المقام بذكرها وحصرها . حتى تركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك . فجزاه الله عنهم وعنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، خير ما جزى به نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته ﷺ .

- وها هم الصحابة الكرام خير الناس وخير القرون بشهادة الرسول ﷺ القائل: [**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمنه ،ويمينه شهادته**](٢) ، وفي رواية أخرى قال ﷺ : [**خير أمتي قرني**........](٣) لقد تربَّى هؤلاء الصحابة - رضي الله عنهم - على

(١) تفسير السعدي لسورة النحل آية (٦٠) ص (٣٩٥) .

(٢) ، (٣) رواهما البخاري كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضل أصحاب النبي ﷺ) .

العقيدة الصحيحة الصافية، فلقد أخذوها من المنبع الصافي ، من كتاب الله تعالى ، ومن الرسول ﷺ وخاصة ما يتعلّق بالذات العليا ، ، فكانت المسألة عندهم واضحة وضوح الشمس لا غبار عليها ، ولذلك لم يستشكل عليهم شيء في هذا الباب ، باب الأسماء والصفات ، فلم يُنْقل لنا عن أحدهم أي خلاف أو تنازع في هذا الباب ، وذلك من شدة وضوح هذه المسألة ، وأنهم قد تلقّوها بالقبول والاعتقاد الجازم الذي لا يتسرَّب له أي شك أو تردُّد ، فكان مصدرهم الكتاب والسنة ، ولذلك كانت النجاة نصيبهم ، والاجتماع حليفهم ، والاختلاف أبعد ما يكون عنهم .

وهذا الاجتماع من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - في باب الأسماء والصفات لأكبر دليل على عظم هذا الباب لأنه يتعلّق بذات الإله المقدَّسة ، وصفاته العليا ، وذلك بخلاف غيرها من المسائل التي ورد لنا تنازع الصحابة فيها من مسائل الأحكام وغيرها .

وهنا كلام قيم لابن القيم الجوزية - رحمه الله تعالى :

- قال ابن القيم - رحمه الله - :

« وقد تنازع الصحابة - رضي الله عنهم - في كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيمانا، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به

الكتاب والسُّنَّة ، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، ولم يُحرِّفوها عن مواضعها ، ولا ضربوا لها أمثالاً ، ولم يقل أحدهم يجب صرفها عن حقائقها وحمله على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً ، وأَجْروها على سنن واحدة »[١] .

- **وقال رحمه الله في نونيته المشهورة :**

العلم قـال الله قـال رسولـه ... قال الصحابة هم أولوا العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فـلان
كلا ولا جحد الصفات لربنـا ... في قالب التنزيه والسبحـان
كلا ولا نفي العلو لفاطر الأكوان ... فوق جميع ذي الأكـوان
كلا ولا عزل النصوص وإنهـا ... ليست تفيد حقائق الإيمـان
إذ لا تفيدكـم يقينـاً لا ولا ... علماً فقد عزلت عن الإيقـان
والعلم عندكم ينـال بغيرهـا ... بزبالة الأفكـار والأذهـان[٢]

---

(١) كتاب (أعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم (١ / ٤٩) .

(٢) (نونية ابن القيم مع شرحها) للشيخ خليل هراس [٢ / ١٥٢] .

وأوضح العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ قائلاً :

« انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف والأئمة على التسليم المطلق خاصة بما جاء في الكتاب والسنّة عن الذات الإلهية وصفاتها ، ولم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة النبوية كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخراهم لم يسعوها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً »[1] .

(١) كتاب (أعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم (١/ ٤٩) .

الفصل الثاني

[التسبيح في القرآن الكريم والسُّنة المطهرة]

أولاً : معنى التسبيح لغة .

ثانياً : معنى التسبيح شرعاً

ثالثاً : التسبيح في القرآن الكريم

رابعاً : التسبيح في السُّنة المطهرة

خامساً : مدار العبادات على الذِّكْر

[التسبيح في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة]

[أولاً] معنى التسبيح لغة :

« التسبيح : التنزيه .

وسبحان الله : معناه تنزيهاً لله .

تقول سبَّحت الله تسبيحاً له ، أي نزهته تنزيهاً .

قال الزَّجاج : وسبحان في اللغة : تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن السوء .

وقال ابن جِنِّي : سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه ، اجتمع في سبحان التعريف ، والألف والنون وكلاهما علة تمنع الصرف .

وفي التهذيب : سبَّحتُ الله تسبيحاً وسبحاناً بمعنى واحد ، فالمصدر تسبيح ، والاسم سُبْحان يقوم مقام المصدر .

قال أبو إسحاق : السُّبُّوح : الذي يُنَزَّه عن كل سوء .

القُدُّوس : المبارك ، وقيل . الطاهر »(١) .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

سبحان : اسم موضوعٌ مَوْضِعَ المصدر ، وهو غير متمكن لأنه لا يجري بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ولم يجر منه فعل ، ولم ينصرف

---

(١) لسان العرب (مادة سَبَحَ) (٤/١٩١٤ - ١٩١٥) .

لأن في آخره زائدتين تقول : سبَّحتُ تسبيحاً وسبحاناً ، مثل كفرَّتُ اليمين تَكْفيراً وكُفْراناً[١] .

[ثانياً] معنى التسبيح شرعاً :

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

« فسبحان الله ... » فتنزيه لله وتبرئة له مما يفترى به عليه هؤلاء المشركون به من الكذب »[٢] .

وقال أيضاً - رحمه الله - :

« سبحان الذي أسرى بعبده .. » تنزيهاً للذي أسرى بعبده وتبرئة له مما يقول فيه المشركون من أن له من خلقه شريكاً ، وأن له صاحبة وولداً ، وعلواً له وتعظيماً عما أضافوه إليه ،ونسبوه من جهالتهم وخطأ أقوالهم »[٣] .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((« سبحان » . ومعناه التنزيه والبراء لله عز وجل من كل نقص . فهو ذِكْر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الإسراء آية (١) المجلد الخامس (جـ١٠ / ١٣٤) .
(٢) تفسير الطبري لسورة الأنبياء آية (٢٢) (٥ / ٢٤٦) .
(٣) تفسير الطبري لسورة الإسراء آية (١) (٥/٥) .

وقد روى طلحة بن عبيدالله الفياض ـ أحد العشرة ـ أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : (تنزيه الله من كل سوء)))(١) .

ـ وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((« تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ... » :

تُقدِّسه السموات السبع والأرض ومن فيهن ـ أي من المخلوقات ـ وتنزِّهه ، وتعظِّمه ، وتبجِّله ، وتكبِّره عمَّا يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته .

ففي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد))(٢) .

ـ وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

((« سبح لله ... » يُخْبر تعالى أن ما في السموات وما في الأرض من شيءٍ يسبِّح له ، ويمجِّده ، ويُقدِّسه ، ويصلي له ، ويوحِّده »(٣) .

ـ وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

« معنى التسبيح : التنزيه عما لايليق به سبحانه وتعالى من الشريك، والولد ، والصاحبة ، والنقائص مطلقاً ، وسمات الحدوث مطلقاً »(٤) .

(١) تفسير القرطبي لسورة الإسراء آية (١) المجلد الخامس (جـ١٠ / ١٣٤) .
(٢) تفسير ابن كثير لسورة الإسراء آية (٤٤) (٣ / ٤١) .
(٣) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٤ / ٣١٩) .
(٤) شرح صحيح مسلم والامام النووي في كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) (١٧/٢١) .

ـ وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((«فسبحان الله »: أي : تنزّه ، وتقدّس عن كل نقص لكماله وحده))(١) .

[ثالثاً] التسبيح للعزيز الحكيم في القرآن الكريم :

إن آيات التسبيح لله تعالى في القرآن الكريم كثيرة جداً ، تدل على عظمة وإجلال ووحدانية الله تعالى ـ جلّ في علاه ـ وكثير من هذه الآيات التي فيها التسبيح لله تعالى تشير إلى اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزّة والحكمة) ، لتبين لنا العلاقة بين التسبيح والعزة والحكمة لله ـ تعالى ـ وتضيء لنا طريق التعبّد للعزيز الحكيم باسميه الحسنيين (العزيز الحكيم) وصفتيه الحميدتين (العزّة والحكمة) عن طريق التسبيح والتقديس والتنزيه ومن هذه الآيات :

ـ قوله تعالى :

﴿ سبّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٢).

ـ وقوله تعالى :

﴿ سبح له ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) .

ـ وقوله تعالى :

﴿ يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٤) .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الأنبياء آية (٢٢) ص (٤٧٠) .
(٢) سورة الحديد آية (١) .
(٣) سورة الحشر آية (١) .
(٤) سورة الحشر آية (٢٤) .

ـ وقوله تعالى :

﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

ـ وقوله تعالى :

﴿ يسبح لله مافي السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾[٢].

[رابعاً] التسبيح للعزيز الحكيم في السُّنة المطهرة :

إن الأحاديث النبوية الشريفة المُطهَّرة التي تحث على التسبيح للعزيز الحكيم ـ جلَّ في عليائه ـ كثيرة جداً ، بل أكدَّ النبي ـ ﷺ ـ ورغَّب في هذا النوع من الذِّكْر لصاحب العزَّة والحكمة ـ في مواطن ومواقف كثيرة إعلاناً من العبد لمولاه عن عبوديته ، وتعبُّده ، وتوحيده ، وتوقيره ، وتقديسه لخالقه وإلاهه ، وتنزيهاً لصاحب العزَّة والحكمة من النقص ، والعيب ، وإثباتاً لكل صفات الكمال والإجلال والتعظيم لصاحب العظمة والعزَّة والحكمة ـ جلَّ وتفرَّد وتعالى في عليائه ـ .

ومن هذه الأحاديث ما يلي :

ـ عن مصعب بن سعد، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : علِّمني كلاماً أقوله . قال : « قُلْ : لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العزيز الحكيم » .

---

(١) سورة الصف آية (١) .

(٢) سورة الجمعة آية (١) .

قال : فهؤلاء لربي . فما لي ؟

قال : « قل : اللهم اغفر لِي وارحمني وإهدني وأرزقني »(١) .

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« مَنْ قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عَدْل عشر رقاب ، وكُتِبَتْ له مائة حسنة ، ومُحِيَتْ عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرْزا من الشيطان ، يومه ذلك ، حتى يُمْسى ، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلاَّ أحد عمل أكثر من ذلك ، ومن قال : سبحان الله وبحمده ، في يوم مائة مرة ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كانت مثل زَبَد البحر »(٢).

- هكذا يكون التسبيح لله تعالى ، والتعبُّد بهذه العبادة للعزيز الحكيم سبباً لمغفرة ذنوب العبد وإن كَثُرَتْ ، وإن صَعُبَ حَصْرُها ، ولو بَلَغَتْ في كثرتها مثل زَبَدِ البحر الذي يصعب جمعه وحصره ، وما ذاك إلاَّ لفضل هذه العبادة العظيمة ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) حديث رقم (٦٧٨٨) [تحفة الأشراف] (٣٩٤٠) .

(٢) رواه البخاري في كتاب (بدء الخلق) ، باب (صفة إبليس وجنوده) حديث رقم (٣٢٩٣) . وكتاب (الدعوات) باب (فضل التهليل) حديث رقم (٦٤٠٣) .

- ورواه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) حديث رقم (٦٧٨٣) . =

وهذا التعبُّد المحمود . فما أجمل التسبيح ، وما أعظم غفران الذنوب من رب عزيز حكيم ، غفور رحيم .

- فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** »(١) .

- وعن مصعب بن سعد - رضي الله عنه - حدَّثني أبي قال : كُنَّا عند رسول الله - ﷺ - فقال : « **أيعجز أحدكم أن يكسب، كل يوم ألف حسنة ؟** » فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : « **يُسبِّح مائة تسبيحة ، فيُكْتَبُ له ألف حسنة ، أو يُحَطُّ عنه ألف خطيئة** »(٢) .

= - ورواه الترمذي في كتاب (الدعوات) باب (٦٠) حديث رقم (٣٤٦٨) .
- ورواه ابن ماجة في كتاب (الأدب) باب (فضل لا إله إلا الله) حديث رقم (٣٧٩٨) . [تحفة الأشراف] (١٢٥٧١) .

(١) رواه البخاري في كتاب (الدعوات) باب (فضل التسبيح) حديث رقم (٦٤٠٦) .
- ورواه أيضا في كتاب (الإيمان والنور) باب (قول الله تعالى : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) حديث رقم (٧٥٦٣) .
- ورواه أيضا في كتاب (التوحيد) باب (إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى ، أو قرأ ...) حديث رقم (٦٦٨٢) .

(٢) رواه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء) باب (التهليل والتسبيح والدعاء) .

[خامساً] مدار العبادات على الذِّكْر :

إن ذِكْرَ الله تعالى بأنواع الذِّكْـر من [التسبيح ، والتكبير ، والتهليل ، ...] عليه مدار العبادات كلها ، وأعمـال البِّر والتقوى ، فإن الذي يُسبِّح العزيز الحكيم ، صـاحب العـزة والحكمـة ، وينزِّهه عن كل نقص وعـيب ، ويصـفه بكـل صفـات الكمـال ، والجمـال ،والتعظيم ، والإجـلال ، والإكـبار ، فـسوف يُحْسِن العبـادة ويتقنها لأنه يعلم أنه يعبد إلاهاً له صفات الكمال فهو سميع، بصير، عليم ، خبير ، عزيز ، حكيم ، ... فـيقوم بأداء العـبادات ويتوجَّـه بها لهذا الإله وحـده ولا يشرك معه أحـداً ، ويُحَسِّن ويُكَمِّل هذه العبادات لعظمـة ومقام من يتوجَّه إليـه بالعبادة ، ولعلمه واحـاطته بكل شيء ، فيكون ذلك كله عـوناً ودافعاً للعـبد أن يُخْلِصَ هذه العبـادات كلها لهذا الإله [العـزيز الحكيم] ، وأن يكون عمله وعبـادته كلها على أكمل وجه ، بل وبحبٍّ ورضا عن الإله [العزيز الحكيم] .

فلاعجب إذا قلنا أن مدار العبادات على الذِّكْر ـ الذي يشتمل على التسبيح ـ.

قال الشيخ السعدي ـ يرحمه الله ـ :

« عن مـوسى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ حـينمـا سأل ربه أن يرسـل إلى أخيـه هارون معه وَذَكَرَ عِلَّة ذلك ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾[1] قال : «ثم ذكر الفـائدة في ذلك فقـال : « كي نسبـحك كثيـراً ونذكرك كـثيراً ». عَلِـمَ عليه

(١) سورة طه آية (٣٣ : ٣٤) .

الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله ، فسأل الله أن يجعل أخاه معه ، يتساعدان ويتعاونان على البِّر والتقوى ، فيكثر منهما ذكر الله ، من التسبيح ، والتهليل ، وغيره من أنواع العبادات »(١) .

(١) تفسير السعدي لسورة طه آية (٣٣ : ٣٤) ص (٤٥٤) .

الفصل الثالث

[التسبيح للعزيز الحكيم عند النصر والتمكين]

المبحث الأول : [التسبيح عند النصر والتمكين]

المبحث الثاني : [التسبيح عند النصر والتمكين من يهود بني النضير]

المبحث الثالث : [أسباب النصر وشروط التمكين]

المبحث الرابع : كيفية التعبُّد بالتسبيح عند النصر والتمكين]

[المبحث الأول]

[التسبيح عند النصر والتمكين]

قال تعالى : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾[(١)] .

إن التعبُّد للعزيز الحكيم باسميه الحسنيين (العزيز الحكيم) وبصفتيه الحميدتين (العزَّة والحكمة) فيه إعلان من العبد لخالقه وإلاهه عن مدى عبودية هذا العبد لهذا الإله ، ومدى إعترافه له بالوحدانية والتفرُّد في أسمائه وصفاته ، ومدى تنزيهه عن النِّد والشريك ، والمثل والشبه ، فلا إلاه معه ، ولا شريك له ، ومنزَّه عن كل عيب ونقص ، ولذلك كان من أنواع التعبُّد للعزيز الحكيم [تسبيحه] - جلَّ في علاه - هذا التسبيح الذي يحمل كل معاني التنزيه عن كل نقص وعيب ، والتقديس للذات الإلهية ، وإثبات كل صفات الكمال والعظمة ، والكبرياء والإجلال لصاحب العزة التي فيها تسبيح لله ، جلَّ في علاه ونلحظ هذا الملحظ في كثير من الآيات التي فيها تسبيح لله - تعالى - تُخْتم بصفتي العزَّة والحكمة كما

---

(١) سورة الحشر آية (١ : ٢) .

هو في الآية الكريمة التي معنا وهي قول الله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

فحريٌ بالعبد الموحِّد أن (يسبِّح) لهذا الإله (العزيز الحكيم) فهو أحق مَنْ يُفْرَد بالعبادة ، وأحق من ينزَّه عن العيب والنقص ، وأحق من يوصف بصفات الكمال والعظمة ، وأحق من يُعْبد ويُفْرد بالعبادة، والمدح والثناء، والخشية والرهبة ، والخشوع ، والإنابة ، والتوقير والتبجيل ، والإجلال والتعظيم .

وكل ذلك يتمثَّل ويُقْصَد ويُبْتغى في تسبيح العبد لخالقه العزيز الحكيم ، فلا يتوجَّه بهذه العبادة [التسبيح] إلاَّ لهذا الإله صاحب العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة ، فإن التسبيح الذي يحمل معنى الذُّل والخضوع ، والتسليم والتفويض ، والتنزيه والتقديس ، والإجلال والإعظام لا يستحقه إلاَّ من انفرد بالعزَّة المطلقة قال تعالى : ﴿فلله العزة جميعاً ﴾[٢] فيُعزُّ من يشاء بعزَّته ، ويُذِّل من يشاء بحكمته وقدرته على خلقه . قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[٣] .

---

(١) سورة الحشر آية (١) .

(٢) فاطر (١٠) .

(٣) آل عمران (٢٦) .

فلا يجـوز للعبد أنْ يتوجَّـه بهذه العبادة [التـسبيح] لغيـر ذلك الإله [العزيز الحكيم] الذي يُسبِّح له كل مَنْ في السماوات والأرض إذعـاناً وخضوعاً ، وتنزيهاً وتقديسـاً لمن يملك مقـاليد السـماوات والأرض ، والذي يُصـرِّف أمور خلقـه بعزَّة وقوة وإرادة وحكمة ، فَحُقَّ له هذا الإذعان والخضوع ، والتنزيه والتقديس ، المنفي عن غيره من سائر المخلوقات، والآلهة المزعومـة الباطلة التي لا تملك من أمرها شيئاً ، فضـلاً عن أن تملك لغيرها ضـراً أو نفعـاً ، وليس لها عزَّة ولا تملك حـولاً ولا قوة ، ولا تتصف بإحكام ولا حكمة ، فسبحان العزيز الحكيم .

بين التسبيح والتقديس :

إن من أسماء الله تعالى الحسنى [السبُّوح والقـدُّوس] وهناك ارتباط وصلة وثيقة بين التسبيح والتقديس ، فـهما عبادتان لا يتوجَّه بهما إلاَّ لله - جلَّ في علاه - صاحب العزَّة والحكمة ، وقد يدخل معنـى أحدهما في الآخر، وكلاهما يدل على إفراد الله تعالى بالعبودية ، وبكل صفات المدح ، وتنزيهه عن النقص والعيب .

قال الإمام الحليمي - رحمه الله - :

« السبُّوح » : إنه المنزَّه عن المعائب والصفات التي تعـترى المحدثين من ناحية الحدث والتسبيح : التنزيه .

« القـدُّوس » : ومعناه الممـدوح بالفضائل والمحـاسن . فالتقديس مـضمَّن في صريح التسبيح ، والتسبيح مضمَّن في صريح التقديس .

لأن نفي المذام إثبات للمدائح : كقولنا « لا شريك له ولا شبيه » إثبات أنه واحد أحد .

وكقولنا : لا يعجزه شيء إثبات أنه قوي .

وكقولنا : إنه لا يظلم أحداً إثبات أنه عَدْل في حكمه ، وإثبات المدائح له نفي للمذام عنه :

كقولنا : إنه عالم نفي للجهل عنه .

وكقولنا : إنه قادر نفي للعجز عنه .

إلاّ أن قولنا هو كذا ظاهرة التقديس ، وقولنا ليس بكذا ظاهرة التسبيح ، ثم التسبيح موجود ضمن التقديس ، والتقديس موجود في ضمن التسبيح ، وقد جمع الله - تبارك وتعالى - بينهما في سورة الإخلاص فقال عزّ اسمه ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾[1] فهذا تقديس ، ثم قال : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً ﴾[2]. فهذا تسبيح ، والأمران راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والشبيه عنه »[3] .

(١) سورة الإخلاص آية (١ - ٢) .

(٢) سورة الإخلاص آية (٣) .

(٣) انظر : « المنهاج في شعب الإيمان » للإمام الحليمي [١ : ١٩٧] فصل ذكر الأسماء التي تتبع اثبات نفي الشبه عن الله تعالى .

إن التعبُّد للعزيز الحكيم بالتسبيح ينبغي أن يكون في كل أوقات العبد من ليل ونهـار ، وراحة وانشغـال ، وقيـام وقعـود ، وحِلٍّ وترحال ، فـلا يخلو وقت للعـبد المسلم من ذكر ربه وتسـبيحـه إياه ، بل ينبغي أن يكون هذا اللسان دائمـاً رطباً من ذكر الله ـ تعالى جلَّ في عـلاه ـ كما أوصى بذلك سـيد المسبِّـحين وخير من تعـبَّد لرب العـالمين ـ محـمـد بن عبـد الله الرسـول الأمين ﷺ حين قـال معـلِّماً الأمـة ، ومرسِّخـاً للعبودية على لسان الموحِّـدين بالذِّكْر والتسبـيح حيث قال : « ولا يـزال لسانك رطباً بذكر الله »(١) .

(١) رواه الترمـذي كتاب (الدعـوات) باب (ما جاء في فـضل الذكر) (٥ / ٤٥٨) ، ورواه ابن ماجة كتاب (الأدب) باب (فضل الذكر) ، (٢ / ١٢٤٦) .

[التسبيح عند النصر والتمكين]

وهكذا ينبغي أن يكون العبد دائماً على صلة بالله تعالى بالذِّكْر والتسبيح لصاحب العزَّة والحكمة في كل أوقاته ، وجميع أحواله ، وخاصة في مواضع معينة يكون التسبيح فيها للعزيز الحكيم أولى وأفضل ، وأظهر للعبودية ، ومظهراً من مظاهر التعبُّد للعزيز الحكيم ، ومن هذه المواضع والأوقات والأحوال [عند النصر والتمكين] .

ـ فإذا كان التسبيح للعزيز الحكيم في كل الأوقات عبادة للعزيز الحكيم ، فإنه يكون أكثر تحقيقاً للعبودية ، وألصق بالاعتراف لله تعالى بقدسيته وربوبيته ، وألوهيته لهذا الكون ، وأن الأمر كله له ـ جلَّ في عليائه ـ حينما يتحقق النصر على الأعداء ، وحينما يمنُّ الله بعزَّته وحكمته على عباده المؤمنين الموحِّدين بالتمكين في الأرض ، وحينما يُذِلُّ العزيزُ أعداءَ عباده المؤمنين ، وحينما يشاء الحكيم بحكمته أن تعلو كلمة عباده الموحِّدين وتكون لهم الغلبة . وهنا لا يجد العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم بهذين الاسمين العظيمين ، وهاتين الصفتين الحمدتين ، لا يجد أمامه [وبكل العبودية لله تعالى، والتذلُّل بين يديه ، والخشوع لجلاله ، وعظمته ، وبكل الاعتراف للعزيز الحكيم بالفضل والمنَّة ، والكرم والعطاء ، والنصر والتأييد] . إلاَّ أن يرفع رأسه إلى السماء ، ويطلق لسانه بالتسبيح للعزيز الحكيم ، [سبحان الله العزيز الحكيم] ، نعم إنه العزيز الحكيم المستحق لهذا التسبيح دون غيره ، فهو الذي له التفرُّد في صفاته وأفعاله ، ويفعل ما يشاء بعزَّته وقدرته ، ويُعزُّ عباده المؤمنين بعزته، ويُهْلك الكافرين ويهزمهم ويُخْزهم بأمره وحُكمه وحكمته .

فإن الذي نصر المؤمنين الموحِّدين هو الذي يستحق هذا التسبيح ، وهذا التقديس ، وهذا الإجلال والإعظام ، وهذا الإله العظيم الحكيم الذي بلغت حكمته كل شيء ، ونفذت في كل شيء ، فنصر عباده المؤمنين ، وهزم الكفار والمشركين ، فكما أنه هو المتفرِّد بالعزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة ، وأنه هو وحده الذي نصر عباده المؤمنين ، وهو وحده الذي هزم الكفار والمشركين ، فكذلك هو وحده المستحق للتسبيح والتنزيه والتقديس ـ جلَّ في علاه ـ .

فإن الألوهية تحتاج إلى عزة وقوة لكي يدير بها الإله هذا الكون ، ويتصرَّف في هذه المخلوقات ، وهذه القوة وتلك العزة لا بد أن تكون تابعة لحكمة يُدبِّر بها هذا الإله العظيم أمر هذا الكون ، وينظِّم حياة هؤلاء المخلوقات ، وهذا الإله العزيز الحكيم لا بد أن يكون متَّصف بكل صفات الكمال والإجلال ، والعظمة والكبرياء ، وأن يُنزَّه عن كل صفات النقص والعيب والقصور ، ويجب أن يُسبِّحه هؤلاء الخلق جميعاً ، وينزِّهونه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

فيتعبد العبد المسلم لهذا الإله العزيز الحكيم بأن يسبِّحه ، فينزِّه خالقه ومولاه عن صفات العيب والنقص ، ويثبت له كل صفات الكمال والعظمة والإكبار ، ومن هذا التعبُّد طلب النصر من هذا الإله العزيز الحكيم الذي يملك أسباب النصر بعزته ، ويهبه لمن يشاء من عباده بحكمته ، ولا يعجزه أي عدو مهما بلغت قوته ، ومهما كان عدده فسبحانه العزيز المنزَّه عن الضعف الحكيم المنزَّه عن العشوائية والعبث . فسبحان العزيز الحكيم الذي ينصر عباده المؤمنين .

[المبحث الثاني]

التسبيح عند النصر والتمكين من يهود بني النضير

قال تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ... ﴾(١) .

لقد بدأ الله عزَّ وجلَّ هذه السورة الكريمة وهي (سورة الحشر) وتُسَمَّى (سورة بني النضير)(٢) بالتسبيح ، ويقرِّر - سبحانه وتعالى - في بداية هذه السورة الكريمة تسبيح كل ما في السماوات وما في الأرض للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - فهو المستحق الأوحد للتسبيح والتقديس والتنزيه عن كل عيب ونقص .

فهو سبحانه المستحق لهذه العبادة، لأنه هو وحده العزيز فلا عزيز بحق غيره، وليس لأحد كان العزَّة المطلقة إلاَّ هو جلَّ في عليائه ، وهو صاحب الحكمة البالغة التي لا يملكها، ولا يتَّصف بها إلاَّ هو ، فهو صاحب العزَّة المطلقة والحكمة البالغة ، الذي بعزَّته وقوته هزم يهود بني النضير وألقى في قلوبهم الرعب ، وأخرجهم من ديارهم وحصونهم المنيعة ، وحرمهم من ديارهم وأموالهم ،

---

(١) سورة الحشر آية (١ : ٢) .

(٢) فعن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - قال : « قلت لابن عباس - رضي الله عنه - سورة الحشر ، قال : قُلْ سورة النضير » ، رواه البخاري كتاب (المغازي) باب (حديث بني النضير) حديث رقم (٤٠٢٩) .

وزروعـهم وأراضيـهم ، بل جعلهم يـخربون بيـوتهم التي بنوها وزيَّنوها وجـمَّلوها بأيديهم ، وكذلك خـرَّب بعضهـا المؤمنون شفـاءً لصدورهم ، وكيـداً لأعدائهم ، وعِبْرةً لخصومهم فكان ذلك كله آية من آيات العزيز الحكيم ، صاحب العزَّة والقوة والقدرة ، والحكم والحكمة والإحكام ، ـ جلَّ في عليائه ـ .

فـإن الذي فـعل هذا الفـعل في هؤلاء اليـهـود ، وهزمـهـم وألقـى في قلوبهم الرعب وأخـرجـهم من ديارهم ، ولم تُغْن عـنهم أمـوالهـم ، ولا جيـوشـهم ، ولا حصونهم ، ولا أسلحتهم من عزَّة الله شيئاً ، فإنه سبحانه وتعالى يستحق التسبيح ، ويستحـقه وحده ، فإن العزيز الحكـيم هو المُتصرِّف الأَوْحـد في الكون ، والكون كله بما فيـه وبمن فيـه يخضع لعزَّته وحـده ، ولحكمتـه وحده ، وكذلك فـهو الذي يُسبَّح بحمـده وحـده ، فكمـا لا يشاركـه في عـزَّته وحكمـته أحـد ، فكذلك لا يُصْرف التسبيح إلاَّ له ـ جلَّ في علاه ـ .

فبدأ سـبحانه وتعـالى (سورة الحشر) بالتـسبيح له مِنْ كل ما في الـسموات وما في الأرض لعـزَّته وحكمتـه ، ومن عزَّته وحكمتـه هزيمة هؤلاء اليهـود ، ونصر عبـاده المؤمنين ، وتمكينهم منهم ومن أموالهم وديارهم وأراضـيهم . وكأنهـا إشارة وتنبـيه لعـبـاده المؤمنين أنه يجب عليـهم التسـبـيح للعزيز الحـكيم ، صاحب العـزَّة المطلقة والحكمة البالغة ، يجب التسبيح له ، وإفراده بهذه العبادة ، بعد هذا النصر وهذا التمكين الذي لم يأت عن قـوة من المؤمنين ، ولا كثرة عدد ، ولا قـوة عتاد ، بل جاء هذا النصـر والتمكين من العزيز الحكيم وحـده ، وبعزَّته وحده ، وحكمـته

وحده ، فلا يُسبَّح إلاَّ هو ، ولا يُعْبد إلاَّ هو ، ولا تُقدَّس إلاَّ ذاته ، ولا يُتعبَّد لأحد بأسمائه وصفاته إلاَّ للواخد الأحد ، العزيز الحكيم .

فكان هذا التسبيح المؤكَّد والمقررٌ في أول (سورة الحشر) والمختوم بهذين الاسمين الحسنيين (العزيز الحكيم) وهاتين الصفتين الحميدتين (العزَّة والحكمة) ثم اتباعهما بقصة بني النضير ، ومَنَّه سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بالنصر والتمكين ، لإشارة واضحة ، ودرساً في العبودية ، وطريقاً للتعبُّد للعزيز الحكيم بهذه العبادة (عبادة التسبيح) وخاصة بعد النصر والتمكين ، واعترافاً بفضل وعزَّة وحكمة العزيز الحكيم في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، فلا يكون إلاَّ الالتجاء إلى الله والتوجُّه للعزيز الحكيم بالتسبيح والتنزيه فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فعزَّته غلبت كل شيء وحكمته أحاطت بكل شيء . فلا يُعِزُّ إلاَّ هو ، ولا يُذِلُّ إلاَّ هو ، فهو العزيز الحكيم ، فأيضا لا يُسبَّح ولا يُقَدَّس ، ولا يُنَزَّه عن النقص والعيب والشريك والشبيه والنظير و .... إلاَّ هو جلَّ في عليائه ، وعَظُم في سلطانه ، وتبارك وتعالى عن مشابهة خلقه ، ومماثلة غيره . فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدا فسبحان العزيز الحكيم الذي سبَّح له ما في السماوات وما في الأرض إعترافاً بعزَّته المطلقة ، وحكمته البالغة .

النبي - ﷺ - يُحرّق نخل يهود بني النضير :

لقد حرّق رسول الله - ﷺ - نخل يهود بني النضير وقطّع بعضها ، إظهاراً لنصر المسلمين ، وكيداً لليهود الكافرين ، وإخافة لكل اليهود المعاندين ، وتحدُّثاً بنعمة العزيز الحكيم الذي مكنَّه من هؤلاء اليهود ، وأزلّهم له بعد ما همّوا بقتله غدراً وعدواً - عليهم لعنة الله أجمعين - .

- فعن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهم جميعاً - أن رسول الله - ﷺ - قطع نخل بني النضير ، وحرّق .

ولها يقول حسان بن ثابت - رضي الله عنه - :

وها على سراة بني لؤيٍّ حريق بالبويرة مستطيرٌ

وفي ذلك نزلت : ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ﴾[1]

قال الإمام النووي - رحمه الله - :

« قوله (حرّق) بتشديد الراء ، (البويرة)(بضم الباء الموحدة ، وهي موضع نخل بني النضير .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الجهاد والسير) باب (حرق الدور والنخيل) حديث رقم (٣٠٢١) ، ورواه مسلم كتاب (المغازي) باب (جواز قطع أشجار الكفار وتحريفها) . حديث رقم (٤٥٢٨) ، تحفة الأشراف (٨٤٥٧) .

(واللينة المذكورة في القرآن هي أنواع التمر كلها إلاَّ العجوة ، وقيل كرام النخل ، وقيل لكل النخل ، وقيل كل الأشجار للينها ، وقد ذكرنا قبل هذا أن أنواع نخل المدينة مائة وعشرون نوعاً .

وفي هذا الحديث جواز قطع شجر الكفار وإحراقه . وبه قال عبدالرحمن بن القاسم ونافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق والجمهور .

وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنهم - والليث بن سعد وأبو ثور والأوزاعي في رواية عنهم لا يجوز »[1] .

سبب إجلاء بني النضير عن ديارهم :

لقد وردت قصة إجلاء بني النضير في كُتُب التفسير ، وكُتُب السِّير ، وأثبتت خيانة يهود بني النضير للرسول - ﷺ - وهمُّهم بقتل الرسول - ﷺ - فأخبر - سبحانه وتعالى - نبيه - ﷺ - بمكرهم وكيدهم وخيانتهم ، فرجع النبي - ﷺ - إلى المدينة ، وعزم على غزوهم وقتالهم بعد ما نجَّاه الله العزيز الحكيم بعزَّته وحكمته من بين أيديهم الغاشمة ، الملوثة بدماء الأنبياء والصالحين من عباد الله الموحِّدين .

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي كتاب (المغازي) باب (جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها) (١٢/٢٧٧) .

- ولقد ذُكِرَ أكثر من قصة لخيانة هؤلاء اليهود للرسول - ﷺ - في هذه الحادثة وإن اجتمعت كلها على بيان مدى غدر وخيانة هؤلاء اليهود عليهم لعنة الله، ومن هذه القصص ما يلي :

[القصة الأولى]

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

« قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله - ﷺ - إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلهما عمر بن أمية الضمير للجوار الذي كان رسول الله - ﷺ - عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان من بني النضير وبني عامر عقدوا حلف ، فلما أتاهم رسول الله - ﷺ - يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أجبت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله - ﷺ - جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال رسول الله - ﷺ - ، فأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج فلقوا رجلاً مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال رأيته داخلا المدينة فأقبل أصحاب رسول الله - ﷺ - حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت

من الغدر به ، وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله - ﷺ - بقطع النخل والتحريق فيها »(١) .

[القصة الثانية]

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في الفتح :

« وروى ابن مردويه قصة بني النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري.. فأجمع بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبي - ﷺ - : أُخْرِج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك . ففعل . فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر فأرسلت أمرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير ، فأخبر أخوها النبي - ﷺ - قبل أن يصل إليهم ، فرجع ، وصبَّحهم بالكتائب فحصرهم يومه ، ثم غدا على بني قريظة فحاصرهم فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بني النضير ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلاَّ السلاح ، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم فيهدمونها ، ويحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٤ / ٣٢٠) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني كتاب (المغازي) باب حديث بني النضير (٧ / ٣٨٥) .

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - :

« القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] يعني قوله جلّ ثناؤه : « سبّح لله » صلّى لله ، وسجد له .

« ما في السماوات وما في الأرض » من خلقه .

« وهو العزيز الحكيم » يقول : وهو العزيز في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيتهم إياه ، الحكيم في تدبيره إياهم .

يقول تعالى ذكره بقوله : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾[2] ، الله الذي أخرج الذين جحدوا نبوة محمد - ﷺ - من أهل الكتاب ، وهم يهود بني النضير من ديارهم ، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم ، حين صالحوا رسول الله - ﷺ - على أن يؤمّنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم ، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم ، ويخلوا له دورهم ، وسائر أموالهم ، فأجابهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك ، فخرجوا من ديارهم ، فمنهم من خرج إلى الشام ، ومنهم من خرج إلى خيبر ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ وقوله

(١) سورة الحشر آية (١) .

(٢) سورة الحشر آية (٢) .

: ﴿ لأول الحشر ﴾ يقول تعالى ذكره : لأول الجمع في الدنيا ، وذلك حشرهم إلى أرض الشام »(١) .

فنأخذ العظة والعبرة من إجلاء بني النضير ، ومن نصر الله للمؤمنين ، بل ونتعلَّم التعبُّد لله العزيز الحكيم ، وذلك بأن نُسبِّح الله صاحب العزة والحكمة ، ونُنَزِّه هذا الإله العظيم عن كل نقص وضعف وعيب ، ومن هذا التنزيه أن يُنزِّه العبدُ ربَّه عن العجز والضعف ، ويعتقد أن العزيز صاحب العزة قادر على نصر عباده وهم قلَّة ، ويُعزُّهم وهم أذلة ، وهذا الإله العزيز الحكيم يُنزَّه أيضاً عن الضعف فهو العزيز القوي الذي يملك هزيمة أعدائه وأعداء أوليائه فهم لا يعجزونه ، فينطلق العبد بهذا التسبيح للعزيز الحكيم ، ويطلب النصر من صاحب العزة والحكمة الذي لا يملكه إلاَّ هو ، ثم بعد أن يمنَّ الله على عباده المؤمنين بالنصر والتمكين يستمرون أيضًا في التسبيح والتعبُّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح شكراً لصاحب العزة والحكمة على هبة النصر والتمكين .

(١) تفسير الطبري لسورة الحشر آية (١ : ٢) (٧ / ٢٥٣ : ٢٥٤) .

[المبحث الثالث]

[أسباب النصر وشروط التمكين]

الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله ـ عنه ومعالم النصر والتمكين

إن النصر والتمكين هبة يهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمن شاء من عباده المؤمنين وذلك بعزته وقدرته ، ووفق حكمته ، وتبعاً لحُكْمه وإحكامه ، فهو [العزيز الحكيم] ، الذي لا يخرج عن عزته وقدرته أحد ، والذي يملك النصر وأسبابه ، قال تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[١] . ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ شاء بحكمته أن يتلمَّس عباد الله المؤمنين أسباب النصر ، وأن يُحقِّقوا شروط التمكين حتى يتفضَّل عليهم بالنصر ، ويهبهم التمكين ، ويورثهم أموال الكفار وأراضيهم ، ويجعلهم الوارثين ، ويُعْلي كلمتهم ، ويرفع شأنهم .

قال عياض الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: [أبو عبيدة ـ ويزيد بن أبي سفيان ـ وابن حسنة ـ وخالد بن الوليد ـ وعياض[٢]].

ـ قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : إذا كان قتالاً فعلكيم أبو عبيدة . قال : فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه ، فكتب إلينا : « إنه قد جاءني

(١) آل عمران (١٢٦) .

(٢) وليس عياض هذا المتحدِّث .

كتابكم تستمدونني ، وإني أدلُكم على مَنْ هو أعزُّ نصراً ، وأحصن جنداً ، الله عزَّ وجلَّ - فاستَنْصِروه ، فإن محمداً - ﷺ - قد نُصِرَ في يوم بدر في أقل من عُدَّتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني .

قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ .

قال : وأصبنا أموالاً فتشاورنا ، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة »[١].

- إن الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوضِّح لنا معالم النصر والتمكين من خلال هذه الرسالة القيِّمة التي لا أقول أنها توزن بالذهب ، فإنها أعظم وأغلى وأثمن من الذهب ، إنها ترسِّخ العقيدة الحقَّة الصحيحة في قلوب المسلمين عبر السنين ، وعند كل جيل ، إنها توضِّح معالم النصر والتمكين ، إنها تحدِّد الأسباب الحقيقية للنصر والتمكين ، إنها تضع الميزان الحق الذي يوزن به مقومات النصر والتمكين .

- إن هذه الرسالة الصغيرة الحجم ، القليلة المقاطع ، المعدودة الكلمات توضِّح من هو أعزُّ نصراً ، ومن هو أحصن جنداً ، إنها توجِّه عقائد المسلمين إلى أن النصر والتمكين بيدي العزيز الحكيم ، وأنه وحده الذي يملكه، ولا يشاركه فيه

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (٢٣) (١/٣٧٨) ، وقال ابن كثير - رحمه الله - وهذا إسناد صحيح ، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بندار عن غندر بنحوه .

أحد ، فهو [العزيز] صاحب العزّة والقوة الكاملة المطلقة ، وهو [الحكيم] صاحب الحكمة التامة البالغة ، ينصر من يشاء بعزّته وقوته ، ويُمكّن لمن شاء بحكمته ، ويمنعه عمن شاء وفق عزّة وحكمة يعلمها ـ جلَّ في علاه [فإن النّصر والتمكين هبة من العزيز الحكيم] يهبها لعباده المؤمنين الذين تعبّدوا له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، خاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة].

ـ إن الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يُعلّم الأجيال المسلمة في كل مكان وعبر السنين والأزمان ، ومع اختلاف ظروفهم ، وتغيُّر أحوالهم ، ألاَّ يطلبوا النصر إلاَّ ممن يملكه ـ جلَّ في علاه ـ إيماناً بقوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقوله تعالى أيضاً مؤكّداً لهذا المعتقد ، ومرسّخاً لهذه الحقيقة . ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٢).

فإن العزيز الحكيم إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فإذا أراد أن ينصر عباده المؤمنين ، وإذا شاءت حكمته أن يمكّن لهم في الأرض فإنه يؤيدهم بجنوده التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى . قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

(٢) سورة الأنفال آية (١٠) .

(٣) سورة المدثر (٣١) .

- فلمّا طلب المسلمون المجاهدون في سبيل الله المدد من أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لكي يتحقّق لهم النصر، وحتى يحصل لهم التمكين ، أرشدهم إلى صاحب المدد الحقيقي ، ودلّهم على مَنْ يملك أسباب النصر ، ومَنْ يهبِ التمكين ، ومَنْ هو أعزّ نصراً ، وأحصن جنداً ، لكي يستنصروه ويطلبوا منه النصر ، ويسألونه التمكين .

وأرشدهم في ذلك بالتأسي بسيد الأنبياء والمرسلين - محمد بن عبد الله - ﷺ - وكيف أنه تعبّد للعزيز الحكيم ، وطلب منه النصر والتمكين ، وذلك يوم بدر حيث كانوا أذلة ، في قلة من العدد والعُدَّة ، ولكن الرسول - ﷺ - يعلم أسباب النصر ، وشروط التمكين ، وأنه لا بد من التعبُّد للعزيز الحكيم - الذي يملك النصر - بطلب النصر منه، والتذلُّل بين يدي صاحب العزّة والحكمة، وعدم التوكُّل إلاّ عليه - جلّ في علاه - والثقة في معيته ونصره لعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[1] .

فجاء النصر وتحقّق التمكين ، مع عدم وجود مقومات النصر المادية ، وحيثيات التمكين المحسوسة، [فنصرهم وهم قلة ، ومكّن لهم وهم أذلة]. قال تعالى مُصوِّراً حالهم هذا في كتابة العزيز: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾[2].

(١) سورة الروم آية (٤٧) .

(٢) سورة آل عمران آية (١٢٣) .

فأرشدهم الفاروق ـ رضي الله عنه ـ إلى الاقتداء بالرسول ـ ﷺ ـ وبصحبه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وذلك بالتعلُّق بالعزيز الحكيم الذي يملك النصر وأسبابه ، والذي هو الأعزُّ نصراً ، والأحصن جنداً ، وطلب منهم أن يتعبَّدوا للعزيز الحكيم بطلب النصر ، وحصول التمكين ، وأن يتوكَّلوا على مولاهم ويثبتوا ويقاتلوا أعداءهم وهم متوكلون على مَنْ يملك النصر ، ومَنْ بيده ملكوتَ كل شيء ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾(١) . فهذا وعد الله تعالى لعباده المؤمنين بأن ينصرهم ويمكنَّ لهم في الحياة الدنيا ، ويكرمهم ويعزَّهم يوم يقوم الأشهاد .

قال تعالى: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(٢).

فلمَّا عملوا بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وتوكَّلوا على العزيز الحكيم ، وطلبوا النصر من صاحب العزَّة والحكمة ، وتعبَّدوا لمن يملك النصر ، ووثقوا بوعد الله بنصر عباده المؤمنين ، جاءهم النصر المبين ، ومكَّن لهم العزيز الحكيم في الأرض ، وأظهرهم على عدوهم .

وقال راوي الحديث عياض الأشعري ـ رضي الله عنه ـ : « فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ ، وأصبنا أموالا ... » .

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) .

(٢) سورة غافر آية (٥١) .

فسبحان العزيز الحكيم الذي يملك النصر والتمكين ويهبه لعباده المتعبِّدين له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

الإمام القرطبي - رحمه الله - يوضِّح أسباب النصر وشروطه :

يعلِّق الإمام العلامة القرطبي - رحمه الله - على قصة المؤمنين اتباع طالوت مع جالوت وجنوده ، وهو يُعظِّم فعلهم ، ومدى توكلهم على الله تعالى ، وطلبهم من الله تعالى الصبر والثبات ، وتثبيت الأقدام أمام العدو ، وكيف أنهم أخلصوا لله تعالى : [العزيز الحكيم]، فأمدهم بالعون وأنزل عليهم السكينة، وألهمهم الصبر ، ورزقهم الثبات ، فهو صاحب القوة والعزَّة والحكمة والحكم - جلَّ في علاه - .

فقال رحمه الله :

« قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك ، حتى ينكسر العدد الكبير منا قُدَّام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا !!

وفي البخاري : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد) باب (عمل صالح قبل القتال) .

وفيه[١] مسند أن النبي - ﷺ - قال: «هل ترزقون وتنصرون إلاَّ بضعفائكم»[٢] فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة !!

- قال تعالى : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾[٣].

- وقال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا ﴾[٤] .

- وقال تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٥] .

- وقال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[٦] .

- وقال تعالى : ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[٧].

[فهذه أسباب النصر وشروطه] ، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا !!!

---

(١) المقصود أن الحديث في صحيح البخاري أيضاً .

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد) باب (من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب) .

(٣) سورة آل عمران آية (٢٠٠) .

(٤) سورة المائدة آية (٢٣) .

(٥) سورة النحل آية (١٢٨) .

(٦) سورة الحج آية (٤٠) .

(٧) سورة الأنفال آية (٤٥) .

بل لم يبق من الإسلام إلاَّ ذِكْره ، ولا من الدين إلاَّ رسمه ، لظهور الفساد ، ولكثرة الطغيان ، وقلة الرشاد ، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، وعمَّت الفتن ، وعَظُمت المحن ، ولا عاصم إلاَّ مَنْ رحم ! »(١).

ـ وهكذا يوضِّح لنا الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ : [أسباب النصر وشروطه] ويُرْسي ويرسِّخ أركان وأعمدة النصر وشروط تحققه للجماعة المسلمة التي تصبوا إليه ، والتي تسعى لتحققه ، فعلى كل فئة ، وكل جماعة تصبو إلى النصر والتمكين في الأرض أن تحقق هذه الشروط التي أرساها الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ والتي استمدها من كتاب الله ، ومن سنة النبي ـ ﷺ ـ ، وهي تتلخص في هذه النقاط الآتية :

١ ـ الأعمال الصالحة : الظاهرة ، والباطنة .

٢ ـ الإحسان إلى الضعفاء ، ورعايتهم والشفقة بهم ، وإكرامهم .

٣ ـ الصبر (خاصة عند البلاء وعند ملاقاة الأعداء) .

٤ ـ الاعتماد والتوكل على الله ـ تعالى ـ .

٥ ـ التقوى .

٦ ـ الإحسان : (في الأقوال والأعمال ، في معاملة العباد وفي العبادات) .

٧ ـ نُصْرة الله ـ تعالى ـ بِنَصْرِ دينه، وكتابه ، وسنة نبيه ـ ﷺ ـ، وعباده المؤمنين) .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٤٩) ، المجلد الثاني (جـ٣ / ١٦٦ : ١٦٧) .

٨ ـ الثبات عند لقاء العدو .

٩ ـ ذكر الله كثيراً ـ (وخاصة عند لقاء العدو) .

١٠ ـ طلب النصر من الله (ومن الله وحده ـ جلَّ في علاه ـ دون سواه) .

فيجب على الأُمَّة الإسلامية إذا أرادت النصر العظيم ، والفتح المبين ، وإذا اشتقات إلى النصر ، وإذا طاقت نفسها أن تتصدَّر الأُمم ، وتتقدَّم لتحتل مكانتها المرموقة والتي تليق بها كأُمَّة إسلامية لها الصدارة والزعامة والقدوة والقيادة ، إذا أرادت ذلك وصبت إليه فعليها مراعاة (أسباب وشروط النصر) ـ السالفة الذِّكر ـ كما قرَّرها الإمام الجليل القرطبي مستمدها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله مَنْ ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾[1] .

شروط التمكين في الأرض :

إن التمكين في الأرض هبة يهبها الله ـ عز وجلَّ ـ لمن شاء من عباده المؤمنين الذين يتعبَّدون [للعزيز الحكيم] الذي يملك الأمر كله ، وله جنود السماوات والأرض يؤيد بها من يشاء من عباده ، وينصر بها من أراد من أوليائه ، ويمكِّن بها لمن اقتضت حكمته أن يمكِّنه في الأرض ، فهو العزيز الحكيم ، صاحب العزَّة والقوة ، وصاحب الحكم والحكمة والإحكام .

---

(١) سورة الحج آية (٤٠) .

قال تعالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[١].

ووعد سبحانه وتعالى نَصْر عباده المؤمنين والتمكين لهم في الأرض إذا تعبَّدوا له ، وطلبوا النصر منه ، وتوكَّلوا على صاحب العزَّة والحكمة ، قال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[٢] .

- فإن العزيز الحكيم الذي يملك النصر وأسبابه ، والذي يهب التأييد والتمكين لمن اقتضت حكمته أن يكون من المنتصرين والمؤيدين ومن أهل التمكين، ليهب النصر والتمكين عن عزَّة وقدرة على إنفاذ الأقدار ، وتوجيه الأمور حسب ماتقتضيه حكمته . فإن نصر العزيز الحكيم يتفرَّد به هذا الإله العظيم ، فهو نصر وتمكين جاء عن عزَّة وقدرة وحكمة .

قال تعالى : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾[٣] .

ولكن مع ذلك كله فإن العبد المؤمن لابد له وأن يأخذ بالأسباب ويعد العُدَّة، ويحقِّق شروط النصر والتمكين كما أشار إليها العزيز الحكيم في محكم التنزيل مع توكله على الله ، وثقته في نصر العزيز الحكيم وتأييده لعباده المؤمنين قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم

---

(١) سورة الفتح (٧) .

(٢) سورة الروم (٤٧) .

(٣) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

وليبدِّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾(١) .

- فبيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآية العظيمة الفئة التي يتنزَّل عليهم النصر ، والجماعة التي يمنُّ العزيز الحكيم عليهم بالتمكين والاستخلاف في الأرض ، ووضَّح سبحانه الشروط التي يتصفون بها وعلى رأس هذه الشروط :

١ - الإيمان بالله (وذلك حق الإيمان كما أمر الله تعالى ، وعلى منهج رسول الله - ﷺ - ...) .

٢ - الأعمال الصالحة (على اختلافها وتنوُّعها بين الأعمال الظاهرة والباطنة والقولية والفعلية ...) .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

« هذه من وعوده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها ، فإنه وَعَدَ مَنْ قام (بالإيمان والعمل الصالح) من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفين في تدبيرها ، وأن يمكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها .

ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ، ونعمته عليها بأن يتمكَّنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ، في أنفسهم وفي غيرهم ، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار ، مغلوبين ذليلين ، وأنه يُبدِّلهم أمناً من بعد خوفهم ،

---

(١) سورة النور آية (٥٥) .

حيث كان الواحد منهم لا يتمكَّن من إظهار دينه ، وما هو عليه إلاّ بأذى كثير من الكفار ... »(١) .

ففهم هؤلاء الصحابة الكرامُ - رضي الله عنهم - هذه الشروط ، وانتبهوا لهذه المقومات ، وتلك الحيثيات التي جعلها الله تعالى مناطاً لنزول النصر ، وتحقق الاستخلاف ، وتعجيل التمكين في الأرض من : [الإيمان بالله حق الإيمان - والأعمال الصالحة المشتملة على فعل الأوامر والانتهاء عن النواهي ، وفعل كل ما يرضى الله - جلَّ في علاه - واجتناب كل ما يُغْضب العزيز الحكيم ، صاحب [العزة والحكمة] .

فهم خير القرون وأفضلها ، وخير من آمن بالله تعالى ، وعمل الصالحات على وجه الأرض - بعد الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - فمنَّ عليهم [العزيز الحكيم] بالنصر ، وتفضَّل عليهم بالاستخلاف ، ورزقهم التمكين في الأرض ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، حقاً إنه دين القيِّمة .

قال الشيخ - السعدي - رحمه الله - :

« فقام صدر هذه الأمة(٢) - رضي الله عنهم - [من الإيمان - والعمل الصالح] بما يفوق على غيرهم ، فمكَّنهم من البلاد والعباد ، وفُتِحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحصل الأمن التام ، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة »(٣).

---

(١) تفسير السعدي لسورة النور آية (٥٥) ص (٥٢١) .

(٢) المقصود بصدر هذه الأمة أي الجيل الأول ، وهم الصحابة - رضي الله عنهم - .

(٢) تفسير السعدي لسورة النور آية (٥٥) (ص ٥٢١) .

التمكين ماض إلى يوم القيامة :

ولكن قد يظن ظان أن هذا النصر ، وهذا التمكين ، وذلك الاستخلاف خاص بالصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ ، وأنه موقوف على فئة مخصوصة من الناس ، وأنه مطلب صعب المنال ، ولا يتحقق لكل أحد ، ويحتاج إلى الصعب من الأعمال والأسباب ، وأنه قد مرَّ زمانه ، وانقضى وقته ، ولا رجعة له ، وأنه أصبح سراباً ، وأوفر الحظ منه التغنى بما سبق من نصر واستخلاف وتمكين في الأرض لمن سبق من السلف الصالح ـ فليس لنا إلاَّ التغنِّي بهذه الأمجاد والافتخار بها تارة ، والبكاء والتحسر على ذهاب واندثار هذه الأمجاد ، وتلك المآثر ، تارة أخرى .

ـ ولكن الأمر غير ذلك ، فهذه سُنَّة من سُنَنِ الله في عباده المؤمنين ، وهبة وهبها العزيز الحكيم لكل من تعبَّد له وطلب منه النصر والتمكين ، وتعبَّد له بأنه هو الذي يملك النصر وأسبابه ، وهو الذي يُمكِّن لعباده المؤمنين ويستخلفهم في الأرض فهو القائل ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

تأمُّلات في آية التمكين :

- ولننظر إلى قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾[1].

١ - فلقد بدأ الله عزَّ وجلَّ الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وعد الله ﴾ : فجعل الله سبحانه وتعالى هذا النصر والاستخلاف والتمكين في الأرض وعداً عليه ، ومَنْ أوفى بعهده من الله ؟!!! - لا أحد ورب الكعبة - ، فهكذا يُطَمْئِن الله عباده بأن هذا الاستخلاف والتمكين هبة يهبها العزيز الحكيم لكل من حقَّق شروطه ، وتلمَّس أسبابه ، ليسعى كل مؤمن لتُحصيل هذه الشروط والقيام بها على أكمل وجهها لكي يتفضَّل صاحب العزَّة والحكمة عليه بالنصر والتمكين ، فإنه وعد الإله الحق .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ . وذلك بياناً وتوضيحاً من عالم السرِّ وأخفى - جلَّ في علاه - والذي يعلم خفايا الإنسان ، وما توسوس به نفسه ، حتى لا يقع في صدر أحد أن هذه الهبة ، وهذا التمكين خاص بأحد دون أحد ، فأطلق الله - عز وجلَّ - اللفظ ، وبيَّن أنه عام في الذين آمنوا ، وأنها

---

(١) سورة النور آية (٥٥) .

تفـيد الاسـتغراق ، وتشـمل كل المؤمنين على اخـتلاف ألسنتـهم وألوانهم ، وتباعد أقطارهم ، وتعدُّد أزمانهم .

٣ ـ وقولـه تعالـى : ﴿ منكم ﴾ أتت هذه الكلمة لزيادة التأكيد على أن المقصود ـ بالذين آمنوا ـ أنهم منكم ومن أمـثالكم ، وليـس هذا الوعد ، وهذه الهـبة ، كانت خاصة بـالمؤمنين السابقين في الأمم السابقة عليكم، وأن الأمر مـقتصر عليهم ، ونُسِخَ في حقكم ، لا ولكن هذا الوعد للذين آمنوا منكم أنتم مِمنْ حقَّق شروط الاستخلاف والتمكين في الأرض .

قال الإمام ابن عطية ـ رحمه الله :

« والصحـيح في الآية أنهـا في استخـلاف الجمـهور ، واسـتخلافـهم هو أن يُملِّكهم البـلاد ، ويجـعلهم أهلهـا ، كـالذي جـرى في الشـام والعراق وخـرسـان والمغرب »(١) .

وقال الإمام ابن العربي ـ رحمه الله :

« قلنا لهم هذا وعـد عـام في النبـوة ، والخـلافة ، وإقـامـة الدعـوة ، وعمـوم الشريعـة ، فنفذ الوعد في كل أحـد بِقَدْره وعلى حـاله ، حتى في المفتين والقـضاة والأئمة »(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة النور آية (٥٥) المجلد السادس (ج ١٢ / ١٩٦) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة النور آية (٥٥) المجلد السادس (ج ١٢ / ١٩٦) .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

« قلت : هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم ... فصحَّ أن الآية عامة لأمة محمد ـ ﷺ ـ غير مخصوصة ، إذ التخصيص لا يكون إلاَّ بخبر ممن يجب له التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم »(١) .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« فقام صدر هذه الأمة من (الإيمان والعمل الصالح) بما يفوق على غيرهم ، فمكَّنهم من البلاد والعباد، وفُتِحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام، والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة ، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة ، مهما قاموا (بالإيمان والعمل الصالح) فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله ، وإنما يُسلِّط الله عليهم الكفار والمنافقين ويُديِلُهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين (بالإيمان والعمل الصالح) »(٢).

ما يجب على المؤمنين بعد النصر والتمكين :

إن من أعظم التعبُّد لله تعالى ـ صاحب العزَّة والحكمة ـ الذي نصر عباده المؤمنين وأيَّدهم بعزَّته وقوته ، ومكَّن لهم بحكمه وحكمته ، أن يؤدي المؤمنون شكر هذه النعمة التي تفضَّل بها [العزيز الحَكيم] عليهم فنصرهم على أعدائهم ،

(١) تفسير القرطبي لسورة النور آية (٥٥) المجلد السادس (ج ١٢ / ١٩٦ : ١٩٧) .

(٢) تفسير السعدي لسورة النور آية (٥٥) ص (٥٢١ : ٥٢٢) .

ومكّن لهم في ملكه وسلطانه ، بعزّته وقوته ، وجعل الدائرة لهم ، وجعل كلمتهم هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وإن قلّ عددهم، ووهنت أسلحتهم ، فوجب عليهم الشكر لرب الأرض والسماوات الذي تفضّل عليهم بهذا الفضل العظيم ، لكي تدوم هذه النعمة ، ولكي يزيدهم الله تعالى من نصره وتأييده لهم ، واستخلافهم وتمكينهم في الأرض ، ومن مظاهر شكر صاحب العزة والحكمة على نعمة النصر والتمكين ما يلي :

١ ـ عبادة الله وحده .

٢ ـ عدم الإشراك بالله (ومنها عدم طلب النصر والتمكين إلاّ منه ... وعدم نسبة هذا الفضل إلاّ لله وحده العزيز الحكيم) .

٣ ـ إقامة الصلاة .

٤ ـ إيتاء الزكاة .

٥ ـ الأمر بالمعروف .

٦ ـ النهي عن المنكر .

٧ ـ الحذر من بطش وانتقام الله ـ عزّ وجلّ ـ وتحوّل نعمه ـ ولله عاقبة الأمور ـ .

ـ قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[1] .

---

(١) سورة النور آية (٥٥) .

ـ وقال تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[١] .

قال الحسن وأبو العالية ـ رضي الله عنهما ـ :

« هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة »[٢] .

وقال الضحاك ـ رحمه الله ـ :

« هو شرط شرطه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من أتاه الملك »[٣] .

وقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ :

« فينا نزلت ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[٤].

فأُخْرجنا من ديارنا بغير الحق إلاَّ أن قلنا ربنا الله ، ثم مُكِّنا في الأرض فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي »[٥] .

---

(١) سورة الحج آية (٤١) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة الحج آية (٤١) المجلد السادس (ج ١٢ / ٤٩) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الحج آية (٤١) المجلد السادس (ج ١٢ / ٤٩) .

(٤) سورة الحج آية (٤١) .

(٥) تفسير ابن كثير لسورة الحج آية (٤١) (٣ / ٢١٧) .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« ثم ذكر علامة من ينصره ، وبها يُعْرف ، أن من أدعى أنه ينصر الله ، وينصر دينه ، ولم يتّصف بهذا الوصف ، فهو كاذب فقال :

﴿ الذين إن مكنهم في الأرض ﴾ أي مكناهم إياها ، وجعلناهم المتسلّطين عليها ، من غير منازع ينازعهم ، ولا معارض .

﴿ أقاموا الصلاة ﴾ في أوقاتها ، وحدودها ، وأركانها ، وشروطها في الجمعة والجماعات .

﴿ وأتوا الزكاة ﴾ التي عليهم، خصوصاً وعلى رعيتهم عموماً، آتوها أهلها، الذين هم أهلها .

﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسّنه شرعاً وعقلاً ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً ، معروف قُبْحُهُ ، والأمر بالشيء والنهي عنه ، يدخل فيه ، ما لا يتم إلاّ به ، فإذا كان المعروف والمنكر ، يتوقّف على تعلّم وتعليم ، أجبروا الناس على التعلّم والتعليم ، وإذا كان يتوقّف ، على تأديب مُقدّر شرعاً ، أو غير مُقّدر ، كأنواع التعزير ، قاموا بذلك ، وإذا كان يتوقّف على جعل أناس ، متصدين له ، لزم ذلك ، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلاّ به .

﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي : جميع الأمور ، ترجع إلى الله ، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى . فمن سلّطه أي : على العباد ، من الملوك ، وقام بأمر الله ، كانت له العاقبة الحميدة ، والحالة الرشيدة . ومُن تسلّط عليهم ، بالجبروت ، وأقام هو نفسه، فإنه ، وإن حصل له ملك مؤقت ، فإن عاقبته غير حميدة ، فولايته مشؤومة ، وعاقبته مذمومة »(١) .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الحج آية (٤١) (ص ٤٩٠) .

[المبحث الرابع]

كيفية التعبُّد بالتسبيح عند النصر والتمكين

إن العبد المؤمن يتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ومن التعبُّد لله تعالى [طلب النصر والتمكين] من العزيز الحكيم الذي يملك النصر ، ويهب التمكين ، ويتفضَّل على من شاء من عباده بالاستخلاف في الأرض . قال تعالى : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

وذلك التعبُّد لصاحب العزَّة والحكمة بطلب النصر والتمكين في الأرض له صور عدَّة ، نذكر منها ما يلي :

١ ـ **طلب النصر والتمكين من العزيز الحكيم** : فإن العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ليعلم يقين العلم أن النصر والتمكين في الأرض مِنَّة وهبة ، يمتن بها الله على عباده المؤمنين ويهبها لمن شاء من أوليائه المخلصين ، كما قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكِّن لهم في الأرض** ﴾(٢) وما كان هذا الاستخلاف ، وذلك التمكين في الأرض إلاَّ بعْدما تعبَّد هؤلاء الصفوة للعزيز الحكيم ، الذي يهب النصر والتمكين والاستخلاف لمن طلبه وتعبَّده بأنه لم يطلبه من سواه .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦) .

(٢) سورة القصص آية (٥ : ٦) .

٢ ـ **الاستعانة بالتسبيح على النصر والتمكين** : إن من أعظم ما يستعين به العبد المؤمن المتعبِّد لربه ومولاه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا على طلب [النصر والتمكين] في الأرض (التسبيح) لصاحب العزة والحكمة ، الذي هو نوع من أنواع الذِّكر لله تعالى ، فإن هذا التسبيح الذي يحمل بين ثناياه تنزيه العزيز الحكيم عن العجز والنقص ، وإثبات العزة والقوة له ـ جلَّ في عليائه ـ وأنه هو الذي يملك الأمور كلها، وبيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه هو الذي يهب النصر والتمكين لعباده المؤمنين .

كما أرشد إلى ذلك العزيز الحكيم في محكم التنزيل حيث قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾[١] .

٣ ـ **التسبيح عند النصر والتمكين** : إن من مظاهر التعبُّد [للعزيز الحكيم] أن يرطِّب العبد المؤمن لسانه بذكر الله تعالى وتسبيحه ، وتقديسه ، وتنزيهه ، وذلك اعترافاً بفضل الله تعالى، وشكراً لله تعالى على [هبة النصر والتمكين].

فإن الذي وهب هذا النصر ، والذي تفضَّل بهذا التمكين هو صاحب العزة والقوة، المنزَّه عن العجز والضعف ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، الذي يستحق التسبيح والتقديس من عباده المؤمنين المتعبِّدين له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) .

كما نلمح ذلك في قوله تعالى : ﴿ سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾(١). فأرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى التسبيح بعدما تفضَّل عليهم بالنصر والتمكين من يهود بني النضير ، شكرا لله تعالى على هبة النصر والتمكين .

٤ - **تلمُّس أسباب النصر** : إن من التعبُّد لله تعالى ، صاحب العزة والحكمة ، الذي يملك النصر وأسبابه ، أن يتلمَّس العبد المؤمن أسباب النصر - بعد التوكل على خالق الأسباب ، ودعائه واستغاثته وطلب النصر منه وحده فإن الأخذ بالأسباب نوع من أنواع التعبُّد لله تعالى ، فهو الذي أمر بذلك في محكم التنزيل حيث قال - جلَّ في علاه - ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾(٢) .

وإن من هذه الأسباب المعينة على النصر ، دعاء الله ، وذكره سبحانه وتعالى، ومن ذلك التسبيح والتقديس والتنزيه لصاحب العزة والحكمة الذي يملك الأمر كله .

---

(١) سورة الحشر آية (١ : ٢) .

(٢) سورة الأنفال آية (٦٠) .

٥ ـ **تحقيق شروط النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض :** ينبغي على العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، عندما طلب النصر والتمكين من العزيز الحكيم ، وحينما يصبو للاستخلاف في الأرض أن يحقق شروط التمكين والاستخلاف في الأرض ، وقد أشار المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكِّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم** ﴾[1] .

فبيَّن سبحانه وتعالى أن نصره واستخلافه وتمكينه إنما يتنزَّل على من اتصف من عباده بصفتين :

١ ـ الإيمان .

٢ ـ الأعمال الصالحة .

وما يندرج تحتهما مما يرضى الله من الأقوال والأفعال ، كما فصَّلها ووضَّحها الإمام القرطبي[2] ـ رحمه الله ـ مستنبطاً ذلك من الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة ومنها : [الأعمال الصالحة ـ الإحسان إلى الضعفاء ـ الصبر ـ الاعتماد والتوكل على الله ـ التقوى ـ الإحسان في الأقوال والأفعال ـ الثبات عند لقاء العدو ـ ذكر الله كثيراً ـ طلب النصر من الله ....] .

---

(١) سورة النور آية (٥٥)

(٢) انظر : تفسيرالقرطبي لسورة البقرة آية (٢٤٩) ، المجلد الثاني (ج ٣ / ١٦٦ : ١٦٧) .

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾[٢].

٦ - **شكر الله تعالى على نصره وتمكينه لعباده المؤمنين في الأرض** : إن من أعلى مقامات التعبُّد لله تعالى - صاحب العزة والحكمة - الذي يهب لعباده النصر والتمكين أن يشكره عباده على هذه الهبة ، ويؤدون حق هذه النعمة عليهم من [عبادة الله وحده ، عدم الإشراك به - عزَّ وجلَّ في علاه - إقامة الصلاة - إيتاء الزكاة - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وغير ذلك من شرع الله الحنيف ...] .

كما قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٤] .

---

(١) سورة محمد آية (٧) .

(٣) سورة الفتح آية (٧) .

(٣) سورة النور آية (٥٥) .

(٤) سورة الحج آية (٤١) .



[التسبيح للعزيز الحكيم عند قتال الأعداء]

المبحث الأول : التسبيح عند قتال الأعداء

المبحث الثاني : علاقة التسبيح بقتال الأعداء .

المبحث الثالث : التسبيح والأمر بالصَّف والثبات أمام الأعداء .

[المبحث الأول]

[التسبيح عند قتال الأعداء]

قال تعالى : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(١) .

إن المتعبِّد لله - عزَّ وجلَّ - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) لا يفتر لسانه عن ذكر الله وخاصة [التسبيح] لصاحب العزة والحكمة - جلَّ في علاه - فهو يعلم ويعتقد أن العزيز الحكيم هو المتفرِّد بالعزة المطلقة ، والحكمة البالغة ، وأن القوة له جميعاً ، وأنه هو القادر على كل ما يريد ، ويفعل كل ما يشاء ، وله الكبرياء في الأولى والآخرة ، فيتعلَّق قلبه بصاحب العزة والقوة والإرادة ، ويتبرأ من كل ما عداه ، ويُنزِّهه عن النقص والعيب والعجز ، ويُعبِّر عن هذه العقيدة الصحيحة الصافية بهذه العبادة العملية بإطلاق هذا اللسان [بالتسبيح] لهذا الإله العزيز الحكيم ، القادر على كل شيء ، الفعَّال لما يريد، ذي العرش المجيد ، الذي أهلك الجنود ، فرعون وثمود.

---

(١) سورة الصف آية (١ : ٤) .

فحريٌ بهذا العبد أن يلتجأ إلى هذا الإله صاحب العزة والقوة ، والحكمة والإرادة بقلبه متوكلاً عليه ، وواثقاً في عونه ونصره ، ويطلق لسانه (بالتسبيح) متعبِّداً لصاحب العزة والحكمة مُنزِّهاً إياه عن كل ما يعترى المخلوق من الضعف ، والعجز ، والنقص ، والعيب ، طالباً من إلاهه النصر والتأييد ، والتثبيت ، والرسوخ أمام الأعداء ، وعند ملاقاة الخصوم والحاقدين .

وعند التصدِّي لكل أعداء الدين ، من الكفار والمشركين والمنافقين ، فما أحوج العبد المتعبِّد لربه بأسمائه وصفاته أن يلتجأ في هذه المواقف الصعبة إلى ربه ومولاه ، ذي القوة والعزة ، والبطش والجبروت ، فإن النفوس تضعف ، وإن العزائم تفتر ، وإن القلوب تتقلَّب ، وإن الأحوال تتغيِّر ، فيحتاج العبد أن يلتجأ إلى العزيز الحكيم ، ليعزَّه بعزته ، وينصره بنصره ، ويؤيِّده بتأييده، ويُثبِّته بعونه وقوته ، ويربط على قلبه بحكمته وإرادته، ويكتب له الخير، ويقدِّره له عن حكمة وإحكام.

فلا يجد العبد أمامه إلاَّ التوجُّه بتعبُّده للعزيز الحكيم ، متقرِّباً إليه به ولسانه رطب بالتسبيح والتقديس ، مُتعبِّدًا لربه ، وخالقه ، طالباً الثبات والتأييد ، طامعاً في إعزاز العزيز له أمام عدوه ، ومستعيناً بالحكيم ، صاحب الحكم والحكمة في إعلاء كلمة التوحيد ، وإذلال معسكر الكفر والطغيان والمنافقين أجمعين .

فهذا اللسان المسبِّح للعزيز الحكيم المنزِّه له عن الشريك والندِّ والمثيل والشبيه، والذي يُبرئ صاحب العزة والحكمة عن كل نقص وعيب ، ويفرده بكل صفات الكمال والعظمة والإجلال ، ليطلب منه وحده النصر ، ويطمع في عزته وحده

ليعزَّه على عدوه، فمن كان له التفرُّد في العزة والحكمة ، والعظمة والإجلال ، فإن له التفرُّد في التوجُّه إليه والركون اليه وطلب العون والمدد منه وحده أمام كل عدو لئيم ، وكل منافق خبيث ـ فتتجلَّى عبادة (التسبيح) في هذا الموقف ـ موقف ملاقاة الأعداء ـ فتكون خير مُعين للعبد على تثْبيت العزيز الحكيم له في هذا الموقف العصيب الذي يحتاج للعزة والقوة والتأييد .

سبب نزول الآيات الكريمة :

لقد ذكر أهل التفسير والتأويل أسباباً كثيرة في سبب نزول هذه الآيات الكريمة ولكن الراجح عندهم والأغلب هو : أن هذه الآيات الكريمات نزلت معاتبة لبعض المؤمنين من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حينما تمنَّوا أن يعرفوا أفضل الأعمال عند الله فلمَّا أخبرهم الله ـ تعالى ـ بأحب الأعمال إليه بأنها الجهاد في سبيل الله تعالى ـ شقَّ ذلك ـ على بعضهم ، فقصَّروا في العمل بعدما عرفوا فأنزل الله هذه الآيات عتاباً لهم على قولهم وتمنِّيهم ما لم يقوموا به .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« يقول جلَّ ثناؤه : ﴿ **سبح لله ما في السموات** ﴾[1] السبع ﴿ **وما في الأرض** ﴾ من الخلق ، مذعنين له بالألوهية والربوبية ﴿ **وهو العزيز** ﴾ في نقمته ممن عصاه منهم فكفر به ، وخالف أمره ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره إياهم » .

---

(١) سورة الصف آية (١) .

وقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾[١] يقول تعالى ذِكْره : يا أيها الذين ـ آمنوا ـ صدَّقوا الله ورسوله ، لِمَ تقولون القول الذي لا تصدقونه بالعمل ، فأعمالكم مخالفة أقوالكم .

﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾[٢].

يقول عظم مقتاً عند ربكم قولكم مالا تفعلون .

ـ واختلف أهل التأويل[٣] في السبب الذي من أجله أُنْزلت هذه الآية .

فقال بعضهم : أُنْزلت توبيخاً من الله لقوم من المؤمنين تمنوا معرفة أفضل الأعمال ، فعرَّفهم الله إياه[٤]، فلما عرفوا قصرُّوا ، فعوتبوا بهذه الآية .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في توبيخ قوم من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كان أحدهم يفتخر بالفعل من أفعال الخير التي لم يفعلها ، فيقول : فعلتُ كذا وكذا ، فخذَلهم الله على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً .

---

(١) سورة الصف آية (٢) .

(٢) سورة الصف (٣) .

(٣) ويقصد الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ بقوله : « وأهل التأويل » أي « أهل التفسير » ، وليس المراد من يؤولون القرآن عن غير معناه الذي أراده الله تعالى .
ومنه قول النبي ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أخرجه الإمام البغوي في معجم الصحابة من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر وأصل الحديث في الصحيحين . انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني [١ / ٢٠٥] .

(٤) وهو الجهاد في سبيل الله .

وقال آخرون : بل هذا توبيخ من الله لقوم من المنافقين ، كانوا يَعِدُون المؤمنين النصر وهم كاذبون .

ـ وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول مَنْ قال : عَنى بها الذين قالوا : لو عرفنا أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، ثم قصَّروا في العمل بعد ما عرفوا .

وإنما قلنا : هذا القول أولى بها لأن الله جلَّ ثناؤه خاطب بها المؤمنين ، فقال : « ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ولو كانت نزلت في المنافقين لم يسمَّوا ولم يوصفوا بالإيمان .

ـ ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعل ما لم يكونوا فعلوه كانوا قد تعمدوا قيل الكذب ، ولم يكن ذلك صفة القوم .

ولكنهم عندي أمَّلوا بقولهم : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله عملناه أنهم لو علموا بذلك عملوه ، فلما علموا ضعفت قوى قوم منهم عن القيام بما أمَّلوا القيام به قبل العلم ، وقوي آخرون فقاموا به فكان لهم الفضل والشرف »[1] .

ويقول أيضا ـ رحمه الله ـ :

« القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[2] .

(١) تفسير الطبري لسورة الصف آية (٢) ، (٧/٢٨٤ : ٢٨٥) .

(٢) سورة الصف آية (٤) .

يقول تعالى ذكره للقائلين : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه حتى نموت . « إن الله » أيها القوم

« **يحب الذين يقاتلون في سبيله** » كأنهم ، يعنى في طريقه ودينه الذي دعا إليه ، « **صفاً** » يعني بذلك أنهم يقاتلون أعداء الله مصطفّين .

وقوله : « **كأنهم بنيان مرصوص** » يقول : يقاتلون في سبيل الله صفاً مصطفاً كأنهم في اصطفافهم هنالك حيطان مبنية قد رُصّ فأُحكم وأُتقن ، فلا يغادر منه شيئا »(١).

- **وقال الإمام البخاري - رحمه الله -** :

« وقال ابن عباس - رضي الله عنه - « مرصوص » ملصق بعضه إلى بعض وقال يحيى : بالرصاص »(٢) .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

« عن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال : قَعَدْنَا نفرٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحبُّ إلى الله - تعالى - لعملناها فأنزل الله تعالى : ﴿ **سبح لله من في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾(٣) . حتى ختمها .

قال عبدالله : قرأها علينا رسول الله - ﷺ - حتى ختمها .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الصف آية (٤) (٧ / ٢٨٥) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب (التفسير) تفسير سورة الصف (٨ / ٥٠٩) .

(٢) سورة الصف آية (١ : ٢) .

قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام .

قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد .

وقال ابن عباس : قال عبد الله بن رواحة : لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله لعملناه فلما نزل الجهاد كرهوه .

ـ وقال الكلبي :

قال المؤمنون يا رسول الله لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله لسارعنا إليها ، فنزلت ﴿ **هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾(١) .

فمكثوا زماناً يقولون : لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين، فدلَّهم الله ـ تعالى بقوله : ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾(٢) ، فابتلوا يوم أحد ففروا ، فنزلت تُعيِّرهم بتركهم الوفاء .

ـ وقال محمد بن كعب ـ رضي الله عنه ـ :

لَمَّا أخبر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ بثواب شهداء بدر قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وسعنا ، ففروا يوم أحد فعيَّرهم الله بذلك »(٣) .

---

(١) سورة الصف آية (١٠) .

(٢) سورة الصف آية (١١) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الصف آيات (١ ، ٣ ، ١١) المجلد التاسع (جـ ١٨ / ٥١ : ٥٢) .

« قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾[١]. أي يصفون صفاً والمفعول مضمر ، أي يصفُّون أنفسهم صفاً » .

﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ قال الفرّاء : مرصوص بالرصاص .

قال المبرد : هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

وقيل : هو من الرصيص، وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض، والتراصُّ: التلاصق ، ومنه وتراصُّوا في الصف .

ومعنى الآية : يُحبُّ مَنْ يَثْبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء .

وقال سعيد بن جبير -رضي الله عنه- :

هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم »[٢] .

---

(١) سورة الصف آية (٤) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة الصف آية (٤) المجلد التاسع (جـ ١٨ / ٥٤) .

[المبحث الثانـــي]

علاقة التسبيح بقتال الأعداء

إن سورة الصف من السُّوَر التي بدأها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالتسبيح للعزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ ثم ذكر سبحانه وتعالى بعدها عتاباً لبعض عباده المؤمنين الذين تمنَّوا أن يخبرهم الله بأحبِّ وأفضل الأعمال ، ولمَّا أخبرهم أنه الجهاد في سبيله إذ بهم يتقاعسون ، ويشق عليهم ذلك .

ثم بعد ذلك يخبر سبحانه وتعالى عموم المؤمنين بما يحبه من عباده المؤمنين عند ملاقاة أعدائهم ، وكيف تكون صورتهم ، وكيف يكون حالهم عند مواجهة الكفار والمشركين والمنافقين وأعداء الدين أجمعين .

ـ ولكن التساؤل هنا يدور حول العلاقة (بين التسبيح للعزيز الحكيم ـ وبين التقاعس عن مواجهة الأعداء ـ وكيفية ملاقاة الأعداء والثبات أمامهم) .

ـ والأمر واضح جليٌّ ولكنه يحتاج إلى تأمل في كلام الله ـ جلَّ شأنه ـ الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حكيم ، فكلام الله تعالى منزَّه عن العبث ، وموصوف بالحكمة البالغة ، فكل آية ، بل كل كلمة ، بل كل حرف له معنى ، وله دلالة ، وله فائدة ، وينبغي للمؤمنين أن ينظروا في كتاب الله تعالى وكلامه لكي يخرجوا ببعض الحِكَم والفوائد التي يفتح بها الله ـ تعالى ـ على من شاء من عباده .

قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾(١) .

- والمتأمل لهذه السورة التي معنا (سورة الصف) وما فيها من تسبيح للعزيز الحكيم ، وعتاب على التقاعس عن الجهاد ، والأمر بالصف والثبات أمام الأعداء ليجد علاقات وطيدة جداً نذكر منها - بعون الله - ما يلي :

[التسبيح والتقاعس عن مواجهة الأعداء] :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾(٢).

إن هناك علاقة واضحة بين التسبيح الذي في بداية السورة الكريمة وذِكْر العتاب الإلهي لبعض المؤمنين بعد هذا التسبيح لتقاعسهم عن الجهاد في سبيله بعدما تمنَّوا أن يُعلمهم الله تعالى عن أحبِّ الأعمال إليه ، فلمَّا أُخبروا بأن الجهاد أحب الأعمال إلى الله - تعالى - شقَّ ذلك عليهم وكرهوه .

- فينزِّل الله - جلَّ في علاه - هذه السورة الكريمة التي تبدأ بالتسبيح لله العزيز الحكيم - والله أعلم بمراده - وكأن فيها العتاب والتوجيه لهؤلاء المؤمنين ، [عتاباً لهم] لأنهم كرهوا الجهاد في سبيل الله - تعالى - رغم تمنِّيهم عمل أي شيء ،

---

(١) محمد (٢٤) .

(٢) سورة الصف (٢ : ٣) .

يرضي ربهم عنهم ، فيوجّه الله ـ تعالى ـ هذا اللوم وهذا العتاب ، فإنه لا ينبغي مثل ذلك الموقف من مثل هؤلاء الأعلام ، القادة الأصفياء ، صَحْب محمد ـ ﷺ ـ سيد الأتقياء ، فإن لهم من البطولات والمآثر ما لا يليق معه ذلك الموقف الذي يُشمّ منه التقاعس والتثبيط عن الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ ومقاتلة أعداء الدين .

ـ [وتوجيهاً] لهؤلاء المؤمنين الذين قالوا مالم يفعلوا ، وفعلوا غيرما قالوا ، يوجههم ربهم ـ جلّ في علاه ـ إلى الأمر الذي غاب عنهم ، ولم يقوموا به ، ولم يفعلوه ، وتركوه سهواً عنه ، فانزلقوا إلى هذا التقاعس ، ووقعوا في هذا التناقض ، وزلت قدمهم في هذا الموقف ، فكانوا في مقام لا يحمدون عليه .

ـ إنهم تركوا [التسبيح للعزيز الحكيم] هذا التسبيح الذي هو خير معين لهم ولكل مجاهد في سبيل الله ، ومقاتل لأعداء الله ، إنه التسبيح للعزيز الحكيم ، الذي صدّر الله تعالى به هذه السورة الكريمة ليلفت أنظار هؤلاء الصحب الكرام المؤمنين الذين كرهوا الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ ولكل مؤمن إلى قيام الساعة أن على الجميع أن يستعينوا على مواجهة الأعداء ، وقتالهم بالتسبيح للعزيز الحكيم .

لماذا الذّكر عند ملاقاة الأعداء ؟ :

وقد يسأل سائل لماذا الذّكر بالذات في مواجهة الأعداء ، ولماذا الذّكر عند بذل الروح ، وقتال الكفار ، وطلب الشهادة ، والوقوف على أبواب الجنة ؟

ونجد الإجابة واضحة جلية في كتاب الله تعالى ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم حيث قال الله تعالى موجّهاً عباده

المؤمنين عند ملاقاة أعداء الله من الكفار والمشركين والمنافقين أن يثبتوا ، وأرشدهم إلى حيثيات الثبات، ومقومات المواجهة، وأُسس الفلاح وهي [ذكر الله - تعالى -].

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[1] .

فأرشد الله المؤمنين إلى ما يثبِّتهم أمام أعدائهم ، ويقويهم على مواجهة الكفار، وينزع الخوف من قلوبهم ، وينسيهم حبَّ الدنيا وكراهية الموت ، ألا إنه [**ذكر الله تعالى**] .

وإن كان ذِكْر الله تعالى قد أُجْمل هنا في (الأنفال) فقد خُصَّ منه التسبيح في سورة (الصف) فبدأ سبحانه وتعالى السورة الكريمة بالتسبيح خاصة لإرشاد المؤمنين إلى هذا النوع من الذِّكر ليكون أثبت لقلوبهم في هذا المقام أمام أعداء الله.

قال تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[2] .

فذكر الله - تعالى - خير مُعين على هذا الثبات ، وعلى الصمود ، وتحقيق النصر ، والظفر برضا الله تعالى ، وهو ذكر الله ومنه التسبيح .

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) .

(٢) الصف (١ : ٤) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« وهذا تعريف من الله ـ جلَّ ثناؤه ـ أهل الإيمان به ،السيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به ، والأفعال التي يرجى لهم باستعمالها عند لقائهم النُّصْرة عليهم والظفر بهم . ثم يقول لهم جلَّ ثناؤه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ صدَّقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر للحرب والقتال ، فاثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا عنهم ، ولا تولُّوهم الأدبار هاربين ، إلاَّ متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة منكم .

﴿ **واذكروا الله كثيرا** ﴾ يقول : وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم ، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذِكْره .

﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ يقول : كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم ، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم »[1] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

« قوله تعالى : ﴿ **واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[2] للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال :

الأول : اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الأنفال آية (٤٥) (٤ / ٤٧) .

(٢) سورة الأنفال آية (٤٥) .

الثاني : اثبتوا بقلوبكم ، واذكروه بألسنتكم ، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان ، فأمر بالذّكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذّكر ، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : ﴿ **ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾(١) ، وهذه الحالة لا تكون إلاّ عن قوة المعرفة ، واتقاد البصيرة ، وهي الشجاعة المحمودة في الناس .

الثالث : اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في أبتياعه أنفسكم ومثامنته لكم .

قلت : والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان .

قال محمد بن كعب القُرطبي ـ رحمه الله ـ : ولو رُخّص لأحد في ترك الذّكر لرخّص لزكريا ، يقول الله عز وجلّ : ﴿ **ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزا واذكر ربك كثيراً** ﴾(٢) .

ولرُخّص للرجل يكون في الحرب ، يقول الله عز وجل : ﴿ **إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا** ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة (٢٥٠) .

(٢) سورة آل عمران آية (٤١) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٥) .

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ : « افترض الله ـ جلَّ وعزَّ ـ ذِكْرَهُ على عباده ، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف »(١) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ »(٢).

ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ـ ﷺ ـ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « **يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** » ثم قام النبي ـ ﷺ ـ وقال : (٣)« **اللهم مُنْزِلَ الكتاب ، ومُجْرِيَ السحاب ،وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليه**»(٤) .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الأنفال آية (٤٥) المجلد الرابع (جـ٨ / ١٧) .

(٢) سورة الأنفال آية (٤٥).

(٣) ودعاء النبي ـ ﷺ ـ عند مواجهة الأعداد نوع من أنواع الذكر لله تعالى ، فإن الدعاء من أعظم أنواع الذكر .

(٤) رواه البخاري كتاب (الجهاد والسير) ، باب (الجنة تحت بارقة السيوف) حديث رقم (٢٨١٨) . ورواه مسلم في كتاب (المغازي) باب (كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء) حديث رقم (٤٥١٧) .

ـ ورواه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في كراهية تمنى لقاء العدو) حديث(٢٦٣١) [تحفة الأشراف حديث (٥١٦١) .

وعن قتادة ـ رحمه الله ـ في هذه الآية ، قال : « افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف » .

ـ وعن عطاء ـ رحمه الله ـ قال : « وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية قلت : يجهرون بالذِّكر ؟ قال : نعم » .

وعن كعب الأحبار ـ رحمه الله ـ قال : « ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذِّكر ولولا ذلك ما أُمِرَ الناس بالصلاة والقتال ، ألا ترون أنه أَمَرَ الناس بالذكر عند القتال فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ »[1] .

قال الشاعر :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر

فأمر ـ تعالى ـ بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا »[2] .

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الأنفال آية (٤٥) (٢/٣١٧) باختصار .

ـ وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ﴾ أي : طائفة من الكفار تقاتلكم . ﴿ فاثبتوا ﴾ لقتالهم ، واستعملوا الصبر ، وحبس النفس ، على هذه الطاعة الكبيرة ، التي عاقبتها العز والنصر .

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله .

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تدركون ما تطلبون به الانتصار على أعدائكم ، فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله من أكبر أسباب النصر »(1) .

لماذا التسبيح للعزيز الحكيم ؟

وقد يسأل سائل أيضاً لماذا خصَّ الله جلَّ في علاه ـ من الذِّكر التسبيح في هذه السورة؟ ولماذا خصَّ ـ سبحانه وتعالى ـ بعد التسبيح ذكر اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] ـ نقول وبالله التوفيق ـ والله أعلم بمراده ـ أنه سبحانه وتعالى لمَّا أمر بذكره عامة عند ملاقاة الأعداء بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾(2).

وذِكْرُ الله يشمل أشياء كثيرة ومنها [التسبيح ـ التهليل ـ الدعاء ...] ولقد استعمل النبي ـ ﷺ ـ ذكر الدعاء عند ملاقاة الأعداء ، بل إنه ألح في هذا النوع من

---

(1) تفسير السعدي لسورة الأنفال آية (٤٥) ص (٢٨٣) .

(2) الأنفال (٤٥) .

الذكر ، فدعى الله تعالى يوم بدر مجتهداً في الدعاء ورافعاً يديه إلى السماء حتى ظهر بياض ابطيه ، ووقع رداؤه من على كتفيه - ﷺ - .

- ويوم الأحزاب تعبَّد الرسول - ﷺ - لله تعالى بذكره عند لقاء الأعداء ، بدعائه لله - سبحانه وتعالى - إمتثالاً لأمر الله بذكره عند ملاقاة الأعداء : فعن عبدالله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال : دعا رسول الله - ﷺ - على الأحزاب فقال: « **اللهم مُنْزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم** »(١).

- وإن التسبيح من أعظم أنواع الذِّكر الذي يذكر به العبد المؤمن ربه أثناء ملاقاة أعداء الله طلباً للثبات في أرض المعركة ، وساحات القتال ، ولقد خصَّ النبي - ﷺ - التسبيح من بين أنواع الذكر بأحاديث عظيمة منها قوله - ﷺ - : « ومن

---

(١) رواه البخاري في كتاب (الجهاد والسير) باب (الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة) حديث رقم (٢٩٣٣) .
- ورواه أيضا في كتاب (المغازي) باب (غزوة الخندق) حديثق رقم (٤١١٥) .
- ورواه مسلم في كتاب (المغازي) باب (استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو) حديث رقم (٤٥١٨) .
- ورواه الترمذي في كتاب (الجهاد) باب (ماجاء في الدعاء عند القتال) حديث رقم (١٦٧٨).
- ورواه ابن ماجه في كتاب (الجهاد) باب (القتال في سبيل الله) حديق رقم (٢٧٩٦) ، تحفة الأشراف (٥١٥٤١).

قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»(١) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

« قوله ـ ﷺ ـ في حديث التهليل : (ومحت عنه مائة سيئة) وفي حديث التسبيح: (حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)، ظاهرة أن التسبيح أفضل»(٢) .

ـ [أمَّا لماذا التسبيح بالذَّات] : لأن التسبيح يحمل معنى التنزيه لله تعالى عن كل نقص وعيب ، والبراءة من كل شريك وندٍّ مما يدَّعيه المشركون ، وما أحوج العبد المؤمن لهذا التوحيد ، وهذا التنزيه ، وهذه البراءة في هذا الموطن ، إذ أنه بهذه العقيدة في هذا الموقف يوقن قلبه أن الأمر لله وحده ، وليس معه شريك ،

(١) رواه البخاري كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) حديث رقم (٣٢٩٣) .
ـ ورواه أيضاً في كتاب (الدعوات) باب (فضل التهليل) حديث رقم (٦٤٠٣) .
ـ ورواه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) (٦٤٠٣) .
ـ ورواه الترمذي في كتاب (الدعوات) باب (٦٠) حديث رقم (٣٤٦٨) .
ـ ورواه ابن ماجه في كتاب (الأدب) باب (فضل لا إله إلا الله) حديث (٣٧٩٨) ، تحفة الأشراف (١٢٥٧١) .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) [١٧/٢١/] .

وليس له ندّ يُصرِّف الأمر ، بل الأمر كله له وبيده ، فيتعلّق قلبه بالله ، ويطلب النصر منه، ويتبرأ من كل إله ومعبود سواه ، من الآلهة المزعومة التي لا تملك شيئاً ، لا لها ، ولا لغيرها، فيثق العبد المؤمن في هذا الموقف عند تسبيحه لله بنصر الله له ، وتأييده إياه ، وحفظه ورعايته لعباده المؤمنين الموحِّدين المسبِّحين .

فعندما ينطلق اللسان بالذِّكر والتسبيح والتنزيه والتقديس ، يخشع القلب ويسكن الفؤاد ، وتثبت الأقدام ، ويثق العبد المؤمن في معية الله له ، وأن الإله الأوحد المنزَّه عن الشريك هو الذي يملك الأمر كله ، فهو الذي يملك نصره وهو الذي يملك زمام عدوه ، وهو القادر على أن يُحق الحق بكلماته ، ويُبطل الباطل بقدرته ، وعزته ، فهو سبحانه وتعالى له القدرة والعزة المطلقة ، وهو المنزَّه عن النقص ، فلا يعجزه هؤلاء الأعداء من الكفار والمشركين والمنافقين وأعداء الدين أجمعين ، فلا يعتريه العيب والنقص فيعجز عن هؤلاء وإن كَثُر عددهم ، وإن قويت شوكتهم ، فبهذه العقيدة ، وبهذا اللسان الذاكر المسبِّح ، وبهذا القلب الساكن المطمئن ، وبهذه الأقدام الثابتة ، يواجه العبد المؤمن المتعبِّد لخالقه ومولاه أي عدو وهو ثابت الخطى ، راسخ رسوخ الجبال الشامخات . فسبحان الإله المقدَّس والمتنزَّه عن العيب والنقص ، والعجز والضعف ، والشريك والنِّد ، الذي يُثبِّت عباده المؤمنين المجاهدين، وينصرهم على الكفار والمشركين، ويهزم مَنْ يشاء، وكيف شاء من أعدائه أعداء الدين .

[أما لماذا العزيز الحكيم] :

فقد يلفت نظر بعض المتأملين في كتاب رب العالمين ، عند بداية بعض السور بالتسبيح ، ثم تُختَم بالعزيز الحكيم ، وخاصة ونحن بصدد سورة (الصف) وعند قوله تعالى: ﴿ **سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(١) ثم ربطها بالثبات على أمر الجهاد وقتال الأعداء .

ـ والمتأمل في هذين الاسمين الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وهاتين الصفتين الحميدتين [العزة والحكمة] ليجد تلاصق وتلازم ، وتلائم وثيق بين هذين الاسمين وهاتين الصفتين ، والتسبيح والثبات عند ملاقاة الأعداء في ساحات الوغى ، وميادين القتال .

فإن موقف القتال ومواجهة الأعداء ، ومنازلة الرجال ، وبذل الأموال والأرواح أمر عظيم جلل ، وموقف لا يشبه كل المواقف ، فهو يحتاج إلى عقيدة راسخة ، ويقين ثابت ، فعندما يُسبِّح العبد ربه وينزِّهه عن الشريك والندِّ ، والعجز والضعف يعلم ويوقن أن معه رباً لا ينازعه أحدٌ في ملكه وسلطانه ، فيطمئن قلبه ، ويثبت مكانه ، وحينما يذكر أن هذا الإله العظيم الذي يعبده ويذكره ،ويطلب منه الثبات والنصر إله يتصف بصفات الكمال والجلال والعظمة ، ومنها صفتي [العزة والحكمة] وأنه سبحانه وتعالى له العزة المطلقة ، والحكمة البالغة ، فهو بعزته قادر

---

(١) سورة الصف آية (١) .

على أن يُثبِّت عباده المؤمنين ، وأن ينصر عباده الموحِّدين ، وأن يُعزَّ عباده المسبِّحين، وإن قلَّ عددهم ، وإن ضعف سلاحهم ، وإن أستهان بهم عدوهم ، فإنه صاحب العزة والقوة .

- وهو القادر أيضا [**بعزته**] وقدرته على أن يهزم أعداءه ، وأعداء دينه ، وأعداء عباده المؤمنين المسبِّحين ، مهما كثر عددهم ، ومهما كانت قوة أسلحتهم ، ومهما قويت شوكتهم وامتلكوا أسباب القوة والنصر .

- وهو أيضا [**الحكيم**] الذي بحكمته خلق الخلق ، ودبَّر شؤون العباد ، وينصر بحكمته من شاء من عباده المؤمنين ولو لم يملكوا من أسباب النصر إلاَّ القليل فيكفيهم إيمانهم وذِكْرُهم وتسبيحهم للعزيز الحكيم - مع أخذهم ما استطاعوا من أسباب القوة والنصر - .

وهو سبحانه وتعالى أيضاً [**صاحب الحكمة**] فبحكمته يريد ويقدِّر هزيمة الكفار وتشريدهم وخزيهم وتشتيتهم ولو امتلكوا أسباب القوة والنصر ، فإن عزة الله وقوته فوقهم ، وحكمة الله وحُكْمه نافذ فيهم ، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ، تعالى في عليائه ، وتقدَّس وتنزَّه عما لا يليق بجلاله ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو العزيز الحكيم .

- فإذا استحضر العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته عزة الله وحكمته ، وهو يسبِّح الله العزيز الحكيم كان هذا التسبيح ، وهذا التعبُّد للعزيز

الحكيم خير معين للعبد على الثبات عند ملاقاة الأعداء ، والصبر عند منازلة الرجال، فالنصر بيدي العزيز الحكيم المنزَّه عن الشريك والنِّد ، وعن العجز والضعف ، فهو ينصر المسبِّحين بعزته وحكمته ويهزم الكفار والمشركين بعزته وحكمته ، وإن قدَّر على عباده المؤمنين المسبِّحين الشهادة فليس عن ضعف منه ـ حاشا في علاه ـ ولا عن عجز عن إهلاك الكافرين ، ولكن قَدْ يشاء الله بعزته وحكمته أن يُكرِّم بعض عباده المسبِّحين بالشهادة ، والحياة عنده ـ في علاه ـ يرزقون ، قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين** ﴾(٢).

ـ فعلى العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] أن يتعبَّد للعزيز الحكيم (بالتسبيح) في أوقاته عامة ، وعند ملاقاة الأعداء ، ومنازلة الرجال ، وفي ساحات الوغى خاصة ، حتى يكون ذلك عوناً له على الثبات ، وحافزاً له لتقديم روحه رخيصة زهيدة في سبيل إعزاز دين الله تعالى ـ وإبطال الكفر وأهله ، وخذلان الباطل وحزبه ، ورفع كلمة التوحيد عالية ومدوية ، واستجابة لأمر الله تعالى

(١) سورة آل عمران آية (١٦٩) .

(٢) سورة آل عمران آية (١٤٠) .

وتوجيهه للمؤمنين في محكم التنزيل قائلاً - جلّ في علاه - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾(١) .

- وأخذاً للعبرة واستجابة للتوجيه الإلهي للمؤمنين بالتسبيح في أول سورة الصف وخاصة عند ملاقاة الأعداء حيث قال جلّ شأنه ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(٢) .

التعبُّد للعزيز الحكيم بعدم مهابة الموت :

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) .

(٢) سورة الصف آية (١ : ٤) .

(٣) سورة النساء آية (٧٧ : ٧٨) .

إن العبّد المتعبّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] ليتعبّد للعزيز الحكيم بعدم مهابته للموت، لأنه متعبّد للعزيز صاحب العزة والقوة والسلطان ، وللحكيم صاحب الحكمة والحكم والإحكام ، ويؤمن بأن الموت مقدّر عليه ، وسوف يأتيه وقتما أراد العزيز ، وكيفما شاء الحكيم ، وأنه لن يفلت من قدر الله وعزته وقوته وحكمته ، فتعبّد ذلك العبد للعزيز الحكيم بعدم مهابته للموت وإيمانه بأن الله ـ عزّ وجلّ ـ صاحب العزة والحكمة وهو الذي يملك أمره وزمامه ، ففوّض أمره له ، فأعانه ذلك على إيفائه بعهده مع ربه ، وصموده أمام عدوه ، فإنه استعان بالتعبّد للعزيز الحكيم على مواجهة الأعداء ، وعدم الخوف منهم ، وعدم مهابة الموت .

ولذلك كان عتاب الله للمؤمنين في أول سورة الصف ، وإرشادهم للتسبيح للعزيز الحكيم ، والاستعانة بهذا التسبيح على الصمود ومواجهة الأعداء ، وعدم مخافة الموت ، وعدم الجزع من غشيان ميادين القتال . وفصّل ذلك سبحانه وتعالى في سورة النساء ، ووجّه العتاب لهؤلاء الذين كرهوا القتال ومنازلة الأعداء بعدما تمنّوه من قبل فقالوا: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب﴾[1] .

---

(١) سورة النساء آية (٧٧) .

فأرشدهم الله سبحانه وتعالى إلى أن متاع الدنيا لا يستحق أن يحرص عليه المؤمن ، فهو قليل وفانٍ ، والآخرة هي خير وأبقى قال تعالى : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾(١) .

- ثم يرسِّخ سبحانه وتعالى صاحب العزة والقوة هذا الإيمان وهذه العقيدة في قلوب عباده المتعبِّدين له - جلَّ في عليائه - بأن الموت جند من جنوده ، ومخلوق من مخلوقاته ، يذيقه من شاء من عباده بعزته ، وكيفما شاء ووقتما شاء بحكمته ، حتى ولو كان في القرى المحصَّنة ، أو في بروج مشيدة ، فينتفي في قلب العبد المؤمن الخوف من الموت ، والمهابة من مواجهة الأعداء ، ويستعين على ذلك بالذِّكر عامة وبالتسبيح خاصة كما أخبر سبحانه عن أتباع طالوت لمَّا واجهوا جالوت وجنوده فما كان منهم إلاَّ الذِّكْر والدعاء فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين** ﴾(٢) .

فأثابهم الله تعالى على هذا الذِّكْر والدعاء والالتجاء إليه فقال - جلَّ في علاه - ﴿ **فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة** ﴾(٣) .

---

(١) سورة النساء آية (٧٧) .
(٢) سورة البقرة آية (٢٥٠) .
(٣) سورة البقرة آية (٢٥١) .

ـ وهكذا دائماً يعتقد المتعبِّد للعزيز الحكيم أن أمر الموت بيدي الله وحده وخاضع لعزة الله وحكمته فلم يخف الموت ، ولم يهب الأعداء ، ولم يتردَّد في غشيان ساحات الوغى تعبُّداً للعزيز الحكيم ، وإيماناً بقوله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾[١] .

---

(١) سورة النساء آية (٧٨) .

[المبحث الثالث]

[التسبيح والأمر بالصف والثبات أمام الأعداء]

قال تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(١).

إن المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] يمتلئ قلبه دائماً بالطمأنينة والعزة والكبرياء ، والصمود أمام أعداء الله بقدم راسخة ، وعزيمة فتية ، وإرادة قوية ، وإيمان ثابت، يثبِّته الله عزَّ وجلَّ بقوته ، ويُعزُّه بعزته ، ويمده بمدده ، ويؤيده بنصره ، ويُظْهره على عدوه بحكمته وحكمه ، فالله سبحانه وتعالى صاحب العزَّة المطلقة والحكمة البالغة .

ـ فإن العزيز الحكيم الذي يحبُّ أن يسبِّحه عباده المؤمنين المتعبِّدين له بأسمائه وصفاته ، يحبُّ أن يسمع منهم هذا التسبيح ، ويحبُّ أن يرى منهم ذلك التعبُّد ، فيطَّلع على قلوبهم فإذا هي مؤمنة مطمئنة بالإيمان ، ويطَّلع على الألسُن فيسمع منها هذا الذِّكر وذلك التسبيح ويطَّلع على الأعضاء والأركان فيرى منها التذلُّل والخضوع والانكسار ، والتعبُّد للعزيز الحكيم .

---

(١) سورة الصف آية (٤) .

فيثبِّت الله هذه القلوب المؤمنة الخاشعة ، ويُزكِّي هذه الأنفس المطمئنة ، ويرضى عن تلك الألسن الذاكرة ، ويحفظ تلك الأعضاء والجوارح الخاشعة ، وخاصة عند ملاقاة الأعداء ، فتظهر ثمرة التعبُّد للعزيز الحكيم ، والتسبيح له والتنزيه ، والتقديس والإجلال على قلوب وألسن وجوارح المؤمنين ، فالقلب متعلق بالعزيز الحكيم يستمد منه القوة والثبات ، واللسان مرطَّبٌ من الذكر والتسبيح، والأركان ثابتة مطمئنة ، قانتة خاشعة ، واثقة في نصر الله ومعيته ، طامعة في إعزاز الله لها بعزته وحكمته وإحكامه وحكمه .

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قاتلوا أعداء الله مع ملكهم طالوت أنهم استعانوا بالذِّكر عند لقاء أعدائهم قائلين : ﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾[١] فكان ذلك سبب للنصرفقال تعالى: **فهزموهم بإذن الله** ﴾[٢].[فالدعاء نوع من أنواع الذِّكر].

التسبيح والأمر بالصَّف :

- وبعد أن قرَّر الله - عزَّ وجلَّ - أن كل ما في السماوات وما في الأرض يسبِّح له - جلَّ في علاه - لأنه هو العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، فقال - جلَّ شأنه - ﴿ **سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٣].

(١) سورة البقرة آية (٢٥٠) .
(٢) سورة البقرة آية (٢٥١) .
(٣) سورة الصف آية (١) .

ـ وبعدما بيَّن سبحانه وتعالى مقته وكراهيته أن يقول المؤمن ما لم يفعل ، ويتقاعس عن فعل الخير ، وخاصة الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام، وينسى العبد معية الله له ، وعزَّته وحكمته ، وقدرته على نصر عباده المؤمنين وإن قلَّ عددهم ، وإن ضعفت قوتهم . فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون** ﴾(١) .

ـ تأتي هذه الآية العظيمة التي تبين حبَّ الله عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين الموحِّدين المسبِّحين للعزيز الحكيم ، والذين تبرأوا مما يمقته الله عزَّ وجلَّ ـ من التخاذل عن الجهاد في سبيله ـ واتصفوا بما يحبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الجهاد في سبيله ، والتسبيح لذاته ، والتعبُّد لجلالة باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] فقال ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ **إن الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾(٢) .

ولنا هنا وقفات :

[الوقفة الأولى] : التعبُّد للعزيز الحكيم بالصَّف أمام العدُّو :

وتظهر لنا العلاقة واضحة بين التسبيح للعزيز الحكيم وبين الأمر بالصف أمام الأعداء كالبنيان المرصوص ، فإن العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم والذي يتعبَّده

---

(١) سورة الصف آية (٢ ، ٣) .

(٢) سورة الصف آية (٤) .

بالتسبيح فإنه ينتظم في هذا العِقد الذي يضم كل شيء من حوله من المخلوقات ، ينتظم في هذه الحلقة المحكمة ، وهذه السلسلة المنسَّقة والمنظَّمة ، والجميلة ، والبديعة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾(١).

فإذا كان كل شيء يسبِّح بحمد ذلك الإله العزيز الحكيم ، ويأتي هذا العبد المتعبِّد لصاحب العزَّة والحكمة ، والمرطِّب لسانه بالذِّكر والتسبيح فينتظم في هذا السياج الرباني الجميل المتناسق، لحرىٌ به أن يكون منتظماً ومُنظَّماً وناشداً للكمال والجمال والإحكام فيكون في كل شيء آية للنظام والدقة والانضباط ويظهر ذلك في وقوفه أمام العدو واصطفافه صفاً منظَّماً منضبطاً ، فلا عجب فإن التسبيح عوَّده هذا النظام ، وعوَّده على هذا الانضباط ، حتى إذا نظر المرء إلى هذا الصف حسبه بنياناً مرصوصاً ، فالله الله ، ما أحلى وأجمل التسبيح والانسجام من الكون بهذا الذِّكر ، وما أجمل أخذ عبرة التنظيم والانضباط من هذا التسبيح خاصة في مواجهة أعداء الله لينال العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم والمجاهد في سبيله حُبَّ الله عزَّ وجلَّ ورضاه بل وتأييده ونصره فليتعبَّد المؤمن للعزيز الحكيم بالصَّف والانضباط أمام عدوه.

---

(١) الإسراء (٤٤) .

[الوقفة الثانية] : التعبُّد للعزيز الحكيم بعدم مهابة الموت :

وتأتي الوقفة الثانية في إطار التحدث عن علاقة التسبيح للعزيز الحكيم بالصف أمام الأعداء عند القتال ، وعند ملاقاة الفرسان ، وفي ساحات الوغى ، نلحظ أن العبد الذي سبَّح للعزيز الحكيم ، ونزَّه صاحب العزة والحكمة عن الشريك والنِّد ، فإنه يرُسِّخ في قلبه أن العزة والقوة والنصر بيدي الله ، ومن عند العزيز الحكيم ، وأن الأمر كله لصاحب العزة والحكمة ، فهو الذي يملك الروح ، وهو الذي يرسلها إلى الجسد ، وهو الذي يمسكها إذا انقَضى أجلها ، وهو الذي يقبضها في أي وقت وعلى أي حال ، وفي أي مكان ، قال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾(٢) .

فيطمئن قلب ذلك العبد ، ولا يحرص على هذه الحياة الدنيا ، ولا يخاف من عدو ، ولا يهابه فيحمله ذلك كله على أن يتبرأ من الخوف إلاَّ من العزيز ، وألاَّ يتطلَّع إلاَّ لما في يدي صاحب الحكمة ، فحمله ذلك كله على الثقة في الله والثبات أمام الأعداء فوقف صفاً منتظماً مرصوصاً ، لا يهاب الموت ، ولا يهبأ بالعدو ، فلم

(١) الزمر (٤٢) .
(٢) النساء (٧٨) .

يوليه دبره ، بل قابله بصدره وفي صف منتظم ترفرف عليه الطمأنينة ، وتغشاه السكينة وتتنزَّل عليه الملائكة .

فإنه لحرى بهؤلاء المتعبِّدين للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح ، والموقنين بعزة الله وحكمته أن يثبتوا أمام أعداء الله ويتبرأوا من كل خوف أو وجل ، أو رهبة إلاَّ من صاحب العزة والحكمة فيحملهم ذلك كله على الإقدام على محاربة أعداء الله في صف واحد ، وفي هيئة منظَّمة ومنضبطة ، تُدْخل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ، وتنزع هيبة عدوهم من قلوبهم ، وفي نفس الوقت تُدْخل هذه الهيئة المنظمة الخوف والزعر في صفوف الأعداء ، وتنشر الرعب في قلوبهم ، فسبحان العزيز الحكيم المعزُّ والمذلُّ ، الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير .

ـ فيتعبَّد العبد المؤمن للعزيز الحكيم بالاصطفاف في نظام وانضباط في صف واحد أمام الأعداء كأنه بنيان مرصوص لا يخاف عدداً ، ولا يهاب موتاً . إيماناً منه بعزة العزيز المطلقة، وحكمة الحكيم المُحْكَمة، وتعبُّداً للعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته ، فنعم أجر المتعبِّدين .

[الوقفة الثالثة] : التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الشهادة :

ومن العلاقات الواضحة ، والوقفات المثمرة أمام علاقة التسبيح للعزيز الحكيم والصف أمام الأعداء ما يُلاحظ من الترابط البيِّن بين تعبُّد العبد المؤمن للعزيز الحكيم واعتقاده أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ [صاحب العزة]، قادر على نصره أمام

عدوه، وقادر على هزيمة أعدائه مهما بلغت قوتهم وكَثُر عددهم، فاطمئن قلبه وحمله ذلك على الاصطفاف صفاً واحداً منظّماً منضبطاً يُدْخل الرعب والزعر في قلوب الأعداء ، وزاد في قلبه حبٌ وطلب الشهادة في سبيل الله.

واعتقد هذا العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم أن الله [صاحب الحكمة البالغة] فحمله ذلك على الاطمئنان والرضا عن حكمه وقضائه ، فطلب الشهادة في سبيل الله ، فهو يؤمن كل الإيمان بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفعل كل شيء بحكمة ولحكمة بالغة يعلمها ويريدها ، فاطمئن هذا العبد أن قتله لن يحدث إلاَّ بمشيئة صاحب العزة وإرادته ، وبحكمة صاحب الحكمة وحكمه ، فأقبل على القتال بخطى ثابتة ، وأقبل على عدوه مقبلاً غير مدبر ، واثقا في عزة العزيز ، راضياً بحكمة الحكيم حتى ولو كان مقابل ذلك روحه المحببة إليه ، بل يصل الأمر في ثقة العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم أنه يطلب بل يتطلَّع إلى الشهادة في سبيل الله إيماناً منه بعزة الله وقدرته على إدخاله الجنة ، وتنعيمه بالدار الآخرة ، وغفران ذنوبه ، وحكمة صاحب الحكمة في اختياره ليكون من الشهداء كما قال تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾(١) .

فيحمله ذلك كله وبهذه العقيدة الصحيحة ، وهذا التعبُّد للعزيز الحكيم ، وتطلُّعه إلى الجنة ونعيمها أن يُقبل على عدوه مقبلاً غير مُدبر في صف منتظم كأنه

---

(١) سورة آل عمران آية (١٤٠) .

بنيـان مرصـوص ، فنعم أجر الـشهـيد الذي يُقْبل علـى عـدوه وهـو واثق في عـزة العزيـز ، وحكمة الحكيم ، وقلبـه معلَّق بصـاحب العزة والحكمـة ، ولسانه مُسبِّح للعزيز الحكيم ، ومنزِّه لصاحب العزة والحكمة عن الندِّ والكفؤ والنظير .

فما أجمل أن يتعبَّد العبد المؤمن للعزيز الحكيم بطلب الشهادة في سبيله وقلبه مُعلَّق بعزة العزيز وحكمة الحكيم ، ولسـانه مُسبِّح لصاحب العزة والحكمة في إطار التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته .

الفصل الخامس

[التسبيح للعزيز الحكيم واتباع الرسول الأُمِّي] - ﷺ -

المبحث الأول : [التسبيح للعزيز الحكيم]

المبحث الثاني : [بعث الرسول الأُمِّي - ﷺ -]

المبحث الثالث : [تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم]

المبحث الرابع : [علاقة التسبيح للعزيز الحكيم ببعث الرسول الأُمِّي - ﷺ -]

المبحث الخامس : [كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم باتباع الرسول الأُمِّي - ﷺ -] .

[التسبيح للعزيز الحكيم واتباع الرسول الأُمِّي - ﷺ -]

مدخل :

قال تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم هو الذي بعث في الأمين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

إن الناظر المتأمل في كتاب الله تعالى ، وفي كلامه الحكيم ليرى التوجيه الإلهي لعباده المومنين كيف يتعبَّدون له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ولكن الأمر يحتاج للوقوف مع الآيات والتأمل فيها خاصة الآيات التي يُذْكر فيها أسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

وفي هذه الآيات البينات من أول سورة الجمعة حيث يذكر الله - عزَّ وجلَّ - بعض أسمائه وصفاته موجِّهاً عباده المؤمنين لكيفية ، التعبُّد لله بهذه الأسماء وتلك الصفات وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] ونتعرض لهذه الآيات البينات من أربعة جوانب .

١ - التسبيح .
٢ - ختم آية التسبيح بالعزيز الحكيم .
٣ - بعث الرسول الأُمِّي - ﷺ - .
٤ - علاقة التسبيح للعزيز الحكيم ببعث الرسول الأُمِّي - ﷺ - .
٥ - كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم .

---

(١) سورة الجمعة آية (١ : ٣) .

[المبحث الأول]

[التسبيح للعزيـز الحكـيم]

يبدأ الله - عزّ وجلّ - هذه السورة الكريمة - سورة الجمعة - بآية من آيات التسبيح ، حيث يقرِّر سبحانه تسبيح كل ما في السماوات وما في الأرض لذاته - جلَّ في علاه - فالكلُّ له قانت ومُذعن ومُنقاد لأمره ، والكل مُعترف له بالربوبية ، ومقرٌّ له بالألوهية ، ومثبت له كل صفات الكمال ، ومنزِّه له عن أي عيب ونقص وآفة ، وهذا كله متضمن في تسبيحهم إياه - جلَّ في علاه - مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

« يخبر تعالى أنه يسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاَّ يُسبح بحمده ﴾[2] .. »[3].

فكل مخلوقات الله تعالى ناطقها وجامدها يسبِّح لهذا الإله ويُنزِّهه عن كل نقص وعيب ، ويقدِّسه - جلَّ في علاه - بأن يثبت له كل صفات الكمال والجمال

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٤) .

(٢) سورة الإسراء آية (٤٤) .

(٣) تفسيرابن كثير لسورة الجمعة آية (١) [٤ / ٣٥٠] .

والعظمـة والإجـلال ، (فـالتسـبـيح) نفي للنقص ولـلعيب (والـتقـديس) اثبـات للكمال والعظمة والإجلال(١) .

ومع هذا الكمال والإجـلال ، والبراءة من النقص والعـيب فإن له الملك ، بل له مطلق المُلْك، فهو المِلكُ الحقـيقي الذي يملك كل شيء ، فالكلُّ خلق من خلقه ، والكُلُّ تحت أمره وتصرُّفه وبين الكاف والنون ، يقـول لما يشاء في ملك السماوات والأرض كن فيكون بأمره وعزته وحُكْمه وقدرته على خلقه ـ جلَّ في علاه ـ .

فـهذا الإله المسـتحق للتـسبـيح والتقـديس إله [عـزيز حكيم] يستـحق هذا التسبيح وهذا التقديس عن عزة وحكمة .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« يقول تعـالى ذِكْره : يسبِّح لله كل ما في السـماوات السبـع ، وكل مافي الأرضين من خلقه ، ويُعظِّمه طوعاً وكرهاً » .

« **الملك القدوس** » الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهـما ، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما » .

« **القدوس** » وهو الطاهر من كل ما يضـيف إليه المشركون به ، ويصـفونه به مما ليس من صفاته المبارك .

---

(١) انظر كـتاب (المنهـاج في شعب الإيمان) للإمـام الحليمي [١ : ١٩٧] فـصل : ذكر الأسـماء التي تتبع اثبات نفي الشبه عن الله تعالى .

« العزيز » يعني : الشديد في انتقامه من أعدائه .

«الحكيم» في تدبير خلقه، وتصريفه إياهم فيما هو أعلم به من مصالحهم»[١].

ونلحظ في هذه الآية الكريمة توجيهاً إلاهياً للعباد أن يُسبِّحوا هذا الإله العزيز الحكيم الذي يُسبِّحه كل ما في السماوات وما في الأرض ، وما بقى إلاَّ عباد الله من الإنس والجن لكي ينسجموا مع ما حولهم من مخلوقات السماوات والأرض فيُسبِّحوا لخالقهم ـ جلَّ في علاه ـ .

فيجب على هذا العبد الموحِّد لربه ، والمتعبِّد للعزيز الحكيم أن يعلن عبوديته لصاحب العزة والحكمة ، والكون من حوله يدين لله تعالى بالتسبيح والتقديس والإجلال والتعظيم .

قال تعالى : ﴿ يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ « تسبِّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[٣] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الجمعة آية (١) [٧ / ٢٩١] .

(٢) سورة الحشر آية (٢٤) .

(٣) سورة الإسراء آية (٤٤) .

[ختم آية التسبيح بالعزيز الحكيم] :

لقد ختم الله ـ تعالى ـ آية التسبيح التي معنا من سورة الجمعة باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] بعد أن ذكر سبحانه اسميه الحسنيين [الملك القدوس] وفي ذلك إشارة بالغة ولفت للأنظار أنه الإله الذي يُسبَّح بحمده ويعظَّم ويُقدَّس، والذي له الملك، والمنزَّه عن الشريك والنِّد ، والشبيه والنظير ، فهذا الإله يجمع بين صفتي [العزة والحكمة] ، وهو صاحب عِزَّة وقوة ومَنَعَة وإرادة ، إذ كيف يكون إلاها ويُسبَّح بحمده وليس عنده عزة وكبرياء ، وليس لديه قوة ، وليس عنده مَنَعة ، ولا يتصف بالقوة والهيمنة والجبروت ، وكيف يكون إلاهاً تسبِّح له الخلائق وهو ليس صاحب عزة يُنْفذ بها ما يشاءه ويُقدِّره ، وكيف لا يُحْكم قبضته على هذا الكون وما فيه وهو إلاهه وخالقه ، فلا بد من الاتصاف بالعزة والتفرُّد بها ليستحق التسبيح والتقديس والتنزيه عن النقص والعيب والمشابهة و ...... من خلقه أجمعين .

ـ وكذلك يجب أن يكون هذا الإله العزيز صاحب العزة والقوة والإدارة والهيمنة والكبرياء والجبروت أن يكون [حكيماً]، فإن هذه الصفات لا تكفى في حق الإله ليكون إلاها عادلاً مُنْصفاً يستحق العبادة والتسبيح والتقديس والتنزيه ، فإن القوة والعزة والهيمنة قد تكون داعية للظلم والبطش والعشوائية والعبث

والإفساد، وهضم حقوق الآخرين، ونشر الزعر والخوف والرعب(١) بين المخلوقات.

ولذلك كان من صفات هذا الإله (الحكمة) ومن أسمائه (الحكيم) الذي يتصرَّف في مخلوقاته من السماوات والأرض وما فيهم بالحكمة ، فما زادته عزته وقوته إلا عدلاً بحكمته ـ جلَّ في عليائه ـ ، وما زادته قدرته على الخلق إلاّ رحمة ورأفة بحكمته ـ جلَّ في علاه ـ ، وما زاده ملكه وامتلاكه لجميع المخلوقات ـ إذ هو (الملك) ـ إلا شفقة بهم .

قال تعالى : ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٤).

فيتعبَّد العبد المؤمن لهذا الإله العزيز الحكيم بالتسبيح له ، وتنزيهه عن النِّد والشريك ، فيتعبَّد لصاحب العزة بأن يتوجَّه إليه بطلب العون والعزة والقوة والمَنَعَة

(١) كما هو ملاحظ في طواغيت الأرض الذين يسومون عباد الله سوء العذاب وينشرون الزعر والخوف والرعب بين الناس بالتقتيل والتعذيب والسلب والنهب ونشر الفساد في الأرض حينما تمتعوا بشيء من القوة والغلبة والله لا يحب المفسدين وعلى إذلالهم قدير فهو العزيز الحكيم .

(٢) سورة يوسف آية (٦٤) .

(٣) سورة الكهف (٤٩) .

(٤) التوبة (٧١) .

منه وحده - جلّ في علاه - فلا يقدر عليها إلاّ هو ، فإنه سبحانه المُنزَّه عن أن يكون له شريك يملك هذه الأشياء وأمثالها مما يختص به العزيز صاحب العزة المطلقة .

فما تعبّد للعزيز مَنْ توجَّه بطلب العزة من غير العزيز ، ولذلك يوبِّخهم الله عزَّ وجلَّ قائلاً - جلَّ في علاه - : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾(١) .

ويوجِّههم الله - عزَّ وجلَّ - إلى الوجهة الصحيحة لمن أراد العزة الحقيقية قائلا - عزَّ من قائل - ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾(٢).

وينزِّه الله - عزَّ وجلَّ - نفسه عن أن تكون العزة لغيره أو لأحد معه فقال جلَّ شأنه ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾(٣) .

وما تعبّد للعزيز مَنْ طلب النصر والقوة من غير الله العزيز ، لأن الله هو العزيز الذي يملك كل شيء ، وصاحب القوة الحقيقية ، وهو الذي ينصر المؤمنين وهم قلة ويعزهم وهم أذلة .

قال تعالى : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾(٤) .

---

(١) النساء (١٣٩) .

(٢) فاطر (١٠) .

(٣) الصافات (١٨٠) .

(٤) البقرة (١٦٥) .

- وكذلك ما تعبَّد للحكيم من نازعه شيئاً في مشيئته وقدرته وجبروته وكبريائه ، ومن اعترض على حُكمْه وقضائه ، ولم يسلِّم لحُكْمه وحكمته ، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره .

وقد قال الرسول - ﷺ - في الحديث الصحيح في تحديده لأركان الإيمان : **« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »**[1] .

- فوجب على العبد المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يُسبِّحه ويقدِّسه وينزِّهه ، وأن يطلب العزة والقوة والنصر والغلبة والمَنَعَة منه وحده ، ويؤمن ويسلِّم بالقدر خيره وشره ، وأن يرضى بقضاء الله وقدره ، ويؤمن ويسلِّم بحكمة الله وإحكامه في جميع أقواله وأقداره لتحقيق العبودية الحقة للعزيز الحكيم .

---

(١) رواه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (الإيمان والإسلام والإحسان) حديث (٩٣) .
- ورواه أبو داود كتاب (السنة) باب (في القدر (حديث (٤٦٩٥) .
- ورواه الترمذي في كتاب (الإيمان) باب (ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والاسلام) حديث (٢٦١٠).
- ورواه النسائي في كتاب (الإيمان) باب (نعت الإسلام) حديث (٥٠٠٥) .
- ورواه ابن ماجة في المقدمة باب (في الإيمان) حديث (٦٣)، تحفة الأشراف (١٠٥٧٢) .

[المبحث الثانـــي]
[بعث الرســــول الأُمِّي - ﷺ -]

مهمة الرسول - ﷺ - والرسل أجمعين :

قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾(١) .

لقد خلق الله تعالى الخلق ، وفرض عليهم عبادته ، وشرع لهم التسبيح لكي ينزِّهوه عن كل نقص وعيب ، ويُفردوه بكل صفات الكمال والجمال والعظمة والإجلال - جلَّ في علاه - .

- ومن أجل هذه العبادة ومن أجل هذا التنزيه والإفراد الذي أراده الله من عباده بألسنتهم وأعمالهم ، وعباداتهم جمعاء أرسل الله - عزَّ وجلَّ - الرسل إلى الأمم من أجل أن يُنزِّهوا الله العزيز الحكيم عن كل نقص وعيب ، ويفردوه بكل العبادات ويصفونه بكل صفات الكمال والاجلال ، والعظمة والإكبار ، وهذه هي مهمة جميع الرسل - ﷺ - الرئيسة وهي :

١ - عبادة الله وحده .

٢ - تنزيه الله عن النِّد والشريك .

---

(١) الجمعة (٢) .

قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] .

فكانت هذه هي مهمة جميع الأنبياء والمرسلين أن يدعوا أممهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يفردوه بهذه العبادة ، وينزِّهوه عن الشريك والنِّد في جميع العبادات ما كَبُرَ منها وما صَغُر .

* فها هو أول الرسل (نوح - ﷺ -) يدعو قومه لعبادة الله وحده ، ونبذ الشرك والشريك والنِّد والنظير وذلك بكل ما أوتى من وسائل الدعوة ، وفي جميع الأوقات ومختلف الأحوال ، بل وليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً .

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[٣] .

وقال تعالى عن هذا النبي الكريم - ﷺ - : ﴿ قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾[٤] .

---

(١) النحل (٣٦) .
(٢) الأنبياء (٢٥) .
(٣) المؤمنون (٢٣) .
(٤) نوح (٢ : ٣) .

وأيضا فإن أبا الأنبياء والمرسلين (إبراهيم - ﷺ -) بعثه الله - تعالى - بدعوة التوحيد، فدعا قومه لتوحيد الله وعبادته وحده ، ونبذ الشرك وما يعبدون من دون الله - جلّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾[(١)] .

ووبّخ نبي الله إبراهيم - ﷺ - قومه لّما لمْ يُفردوا الله تعالى بالعبادة ولم ينزّهوه عن النّد والشريك وعبدوا من دونه أصناماً وأوثاناً قائلا لهم ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له واليه ترجعون ﴾[(٢)] .

* ويُكلّم الله - تعالى - رسوله (موسى - ﷺ -) ويأمره بعبادته وحده - جلّ في علاه - ويحمّله هذه الرسالة - وهي الدعوة لعبادة الله وحده - فقال تعالى: ﴿إنني أنا الله لا إله إلاَ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾[(٣)] .

* ويدعو (عيسى - ﷺ -) بني اسرائيل إلى عبادة الله وحده وإفراده بهذه العبادة قائلاً : كما أخبر الله عنه في كتابه العزيز : ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾[(٤)].

---

(١) العنكبوت (١٦) .
(٢) العنكبوت (١٧) .
(٣) طه (١٤) .
(٤) المائدة (٧٢) .

- ويستمر هذا الرسول الكريم (عيسى - ﷺ -) في دعوة بني إسرائيل لعبادة الله وحده، ويُحذِّرهم من مغبة وعاقبة عدم تنزيه الله العزيز الحكيم عن الشريك والنِّد، ويبين ويوضِّح لهم خاتمة ونهاية وعاقبة عدم تنزيههم للعزيز الحكيم قائلا - كما أخبر الله عنه في كتابه العزيز ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾(١) .

- ويؤكد ذلك نبي الله ورسوله (عيسى - ﷺ -) يوم القيامة ، بل ويشهد على قومه ويتبرأ من شركهم قائلاً : ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾(٢) .

* وهكذا سار نبي الله (هود - ﷺ -) على درب إخوانه من الأنبياء والمرسلين في دعوة قومه (عاد) إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وتنزيهه عن النِّد والشريك . قال تعالى : ﴿ **وإلى عاد آخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾(٣).

ويسلك نبي الله (صالح - ﷺ -) نفس المسلك في قومه (ثمود) فيدعوهم إلى إفراد العزيز الحكيم بالعبادة ، وينذرهم عاقبة اتخاذ الشريك والنِّد وعدم تنزيه

---

(١) المائدة (٧٢) .
(٢) المائدة (١١٧) .
(٣) الأعراف (٦٥) .

الله - عزَّ وجلَّ - عمًّا لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه فأخبر الله - تعالى - عنه في كتابه العزيز قائلاً - جلَّ في علاه - : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾(١) .

وما كان لنبي الله (شعيب - ﷺ -) أن يعدوا عينيه عن طريق إخوانه من الأنبياء والمرسلين في دعوة قومه (مدين) إلى إفراد الله تعالى بالعبودية وتنزيهه عن النِّد والشريك وعما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، فأخبرالله تعالى عنه حيث قال - جلَّ شأنه - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾(٢) .

[محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين] :

ويختم الله عزَّ وجَّل هؤلاء الأنبياء والمرسلين بهذا النبي الأُمِّي ، والرسول الكريم [محمد بن عبد الله] - ﷺ - لكي يتم البناء ، ويُكَمِّل به مكارم الأخلاق ، وليُقم الحجة على العالمين ، بأنه لا معبود بحق إلاَّ الله العزيز الحكيم ، وأنه يجب إفراد هذا الإله بالعبادات كلها ، وأنه لا بد من تنزيه هذا الإله العزيز الحكيم عن كل عيب ونقص وتبرئته عن النِّد والشريك ، فجاء - ﷺ - بالتوحيد الخالص ، والعقيدة الصافية ، والشريعة الغرَّاء ، ليُخرج العباد بإذن رب العباد من عبادة العباد

---

(١) الأعراف (٧٣) .
(٢) الأعراف (٨٥) .

والأصنام والأوثان إلى عبادة رب العباد ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الإلحاد في ذات الله تعالى إلى التنزيه والتقديس والإجلال والتعظيم والإكبار لله العزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة .

قال تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[1] .

فيمتن الله ـ عزّ وجلّ ـ على العالمين عامة ، وعلى الأُمِّين خاصة (وهم العرب وغيرهم ممن لم ينزل فيهم الكتاب) بأن بعث فيهم هذا الرسول الأُمي لكي يخرجهم من دنس الشرك وعبادة الأصنام والأوثان ، والإلحاد في ذاته وأسمائه وصفاته ، ويُعلِّمهم التوحيد الخالص ، ويُلقنِّهم العقيدة الصافية من أدران الشرك وشوائب الجاهلية ، ولكي يُقدِّسوا هذا الإله صاحب العزة والحكمة عن الشريك والنِّد والكفو والشبيه والنظير ، فلا يتوجَّهوا بركوع ولا سجود ولا ذبح ولا نذر ، ولا أي عبادة مهما كانت كبيرة أو صغيرة إلاَّ لله العزيز الحكيم ، صاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة فهو وحده ـ سبحانه وتعالى ـ المستحق لعبادة جميع الخلائق على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، فهو الخالق لهذه المخلوقات بعزته وقوته وإرادته ، وبحكمته وحُكْمه وإحكامه ـ جلَّ في علاه ـ .

---

(١) الجمعة (٢) .

فـلا يُعْبـد سواه ، ولا يُعظَّم غـيـره ، ولا يقدّس إلا هو ، ولا يكون الركـوع والسجود والخـضوع إلاَّ لجلاله وعظيم سلطانه ، ولا يتذلَّل العـبد إلاَّ بين يديه، لأنه هو الذي خلق، وهو صـاحب العـزة، وهو الذي له القـوة ، والأمـر له من قـبل ومن بعد، وذلك كله وفق حكمة بالغة ، فيقُدّر كل شيء بحكمة ، ويتصرّف في جميع الأمور بإحكام ، ومُنزَّه عن الظلم والعبث ، ومبرَّأ من كل عيب ونقص فهو الأحق بالعبـودية لما له من كـمـال العـزة والحكمـة ، التي لا تشـابه عـزة وحكمـة المخلوق الناقصة والمعلولة .

فجاء الرسول الأُمّي (محمد بن عبد الله - ﷺ -) لهؤلاء الأُمّيين ليُعبّدهم لله العـزيز الحكيم ، ويُزكّي أنفسـهم ، ويطهـرهم من الشـرك والجـاهليـة بما فيـهـا من [نقص، وعـيب ، وكفـر وضلال ، وظلم ، وإفـساد] ، وذلـك عن طريق تعليمـهـم الكتاب: (القرآن الكريم) والحكمة: (سنته المطهرة - ﷺ -) لما احتـوياه من النور والهداية والرشاد والفلاح في الدنيا والآخرة .

[المبحث الثالث]

تنزيل الكتـاب من العزيـز الحكيـم

إن المتعبِّد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - ليلحظ في كلامه الحكيم في القرآن الكريم ارتباطاً في كثير من آيات هذا القرآن العظيم بين تنزيل الكتاب العزيز واسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] . وفي ذلك من الدلالات والإشارات لأُولى النهى ، ولعباد الله - تعالى - المتعبِّدين له بأسمائه وصفاته ، وبياناً لكيفية التعبُّد لله تعالى بهذين الاسمين الحسنيين وهاتين الصفتين الحميدتين ومن ذلك :

قال تعالى : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾(١).

قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾(٢) .

وقال تعالى في سورة الجاثية : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾(٣).

وقال تعالى في سورة الأحقاف أيضاً : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾(٤) .

---

(١) الشورى (٣).
(٢) الزمر (١) .
(٣) الجاثية (١ : ٢) .
(٤) الأحقاف (١ : ٢) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز ﴾(١) : أي المنيع الجناب .

﴿ الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾(٢) : أي فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلاَّ له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾(٣) : أي لا يقبل من العمل إلاَّ ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له »(٤) .

ونلحظ في كلام الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ربطه بين تنزيل الكتاب وعزة الله تعالى وقوته وأنه الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديراته ومشيئته ، وأنه بقوته وعزته أنزل هذا الكتاب ـ الذي هو كلامه وصفة من صفاته ـ على من شاء من عباده ، فلا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه ، فهو العزيز فلا يمانعه أحد ، ولا يغالبه أحد ، ولا يُردُّ أمره ومشيئته أحد ، ويختار من يشاء بحكمة بالغة يعلمها جلَّ في عليائه

---

(١) الزمر (١) .

(٢) الزمر (٢) .

(٣) الزمر (٣) .

(٤) تفسير ابن كثير لسورة الزمر آية (٣٤) [٤/٤٤] .

فيصطفي من رسله من يشاء بحكمته وحُكمه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾(١) .

فالله قوي عزيز يصطفي هؤلاء الرسل بقوته وعزته وبحكمة بالغة فإن هذا الإله العزيز الحكيم متَّصف بالسمع والبصر ومطَّلع على عباده فإنها عزة وحكمة عن سمع وبصر وعلم وإحاطة ، فلا ينازعه فيها أحد ، فسبحان الذي له صفات الكمال والعظمة والإجلال .

ـ فهذا الإله العزيز الحكيم الذي أنزل هذا الكتاب على عبده ورسوله ـ محمد ﷺ ـ بعزته وحكمته في اختيار من يصلح من عباده لتحمُّل رسالته ، بيَّن ووضَّح أن من حكمته من إنزال هذا الكتاب هو توحيده سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة ، وتبليغ هذه الدعوة ، ونشر هذا التوحيد بين عباده لتنزيه الله العزيز الحكيم عن النّد والشريك ، وتنزيهه عن الشبيه والنظير فسبحانه وتعالى عمَّا يشرك به المشركون وعما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

* فتبيَّن من مجمل الآيات الكريمة السابقة ومن أقوال أئمة التفسير ، وأهل العلم أن الله العزيز الحكيم أنزل كتابه ـ الذي هو كلامه وصفة من صفاته ـ على عبده ورسوله سيد الأنام محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ لكي تتحقق العزة المطلقة لله في

(١) الحج (٧٤ : ٧٥) .

ملكه بأن يُعْبد وحده ، ويُفْرَد بالألوهية والعبودية في سلطانه ، فهذا من مقتضى عزته وحكمته ، ولذلك يأمر نبيه بإخلاص العبادة له وحده ، ودعوة العباد لتنزيه صاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة عن الشريك والنِّد ، والشبيه والنظير .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ مؤكداً هذا المعنى :

« يقول تعالى ذكره : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾[1] الذي نزلناه عليك يا محمد .

﴿ من الله العزيز ﴾ في انتقامه من أعدائه .

﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره خَلْقه ، لا مِنْ غيره، فلا تكونن في شك من ذلك ، ورفع قوله « تنزيلُ » بقوله ﴿ من الله ﴾ ، وتأويل الكلام : من الله العزيز الحكيم تنزيل الكتاب .

ـ وقوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾[2] : يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد ـ ﷺ ـ إنما أنزلنا اليك يا محمد الكتاب ، يعنى بالكتاب : القرآن « بالحق » يعني : بالعدل ، يقول : أنزلنا إليك هذا القرآن ، بالحق والعدل ، ومن ذلك الحق والعدل أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، لأن الدين له لا للأوثان التي لا تملك ضراً ولانفعاً .

---

(١) الزمر (١) .

(٢) الزمر (٢) .

ـ وقوله ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾[1] يقول تعالى ذِكْره : فاخشع لله يا محمد بالطاعة ، وأخلص له الألوهة ، وأفرده بالعبادة ، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا ، كما فَعَلَتْ عبدة الأوثان .

وقوله : « ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[2] يقول تعالى ذكره : ألا لله العبادة والطاعة وحده لاشريك له ، خالصة لا شرك لأحد معه فيها ، فلا ينبغي ذلك لأحد ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه لا مَنْ لا يملك منه شيئاً»[3] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة مَنْ تكلَّم به ، ونزل عنه ، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم ، أي الذي وصفه الألوهية للخلق وذلك لعظمته وكماله والعزة التي قهر بها كل مخلوق ، وذلَّ له كل شيء ، والحكمة في خلقه وأمره .

ـ فالقرآن نازل ممن هذا وصْفه ، والكلام وصف للمتكلم ، والوصف يتبع الموصوف فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه ، الذي لا مثيل له ، فكذلك كلامه كامل من كل وجه ، لا مثيل له ، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن ، دال على مرتبته .

---

(١) الزمر آية (٢) .

(٢) الزمر آية (٣) .

(٣) تفسير الطبري لسورة الزمر آية (١ : ٣) (٦ / ٣٦٥ : ٣٦٦) .

ولكنه ـ مع هذا ـ زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه وهو محمد ـ ﷺ ـ الذي هو أشرف الخلق فَعُلِمَ أنه أشرف الكتب ، وبمانزل به وهو الحق . فنزل بالحق الذي لا مرية فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور ، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة ، فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية ، وما بعد الحق إلاَّ الضلال .

ـ ولمَّا كان نازلاً من الحق ، مشتملاً على الحق لهداية الخلق ، وعلى أشرف الخلق ، عظمت فيه النعمة ، وجلَّت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص الدين لله ، فلهذا قال : ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾(١) : أي أخلص لله تعالى جميع دينك من ـ الشرائع الظاهرة ، والشرائع الباطنة : الإسلام ، والإيمان والإحسان ـ بأن تُفْرِدَ الله وحده بها ، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد .

ـ ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾(٢) .

هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالي كما أنه له الكمال كله ، وله التفضُّل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص ، الصافي من جميع الشوائب . فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به ، لأنه متضمِّن للتأله لله في حبه وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، وفي تحصيل مطالب عباده .

---

(١) سورة الزمر (٢) .

(٢) الزمر (٣) .

وذلك الذي يُصْلح القلوب ويُزكّيها ويطهّرها ، دون الشرك به في شيء من العبادة . فإن الله برئ منه ، وليس لله فيه شيء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك. وهو مُفْسد للقلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة ، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء . فلذلك لـمَّا أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به »(١) .

ـ هكذا يتبيَّن لنا العلاقة والصلة الوثيقة بين تنزيل الكتاب الحكيم ـ القرآن الكريم ـ وذكر اسمي الله الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] فهو الذي أنزل هذا الكتاب بقوته وعزته ، وعلى من شاء من عباده بحكمته ، وذلك من أجل أن يعبده خلقه ، ويُفْرِدوه بعبادتهم ، وينزّهوه عن الشريك والنِّد والنظير ، ويُفْرد بالعزة المطلقة ، والحكمة البالغة .

ـ فلا يُعْبد في هذا الكون إلاَّ هذا الإله العزيز صاحب العزة المطلقة ، الحكيم صاحب الحكمة البالغة فالكل يخضع لعزته وقوته ، والكل وفق مشيئته وحكمته فمن نازعه ذلك عذَّبه ولا يبالي ، فلا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه . فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني ، عذبته »(٢) .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الزمر آية (١ : ٣) ص (٦٦٤) .

(٢) رواه مسلم في كتاب (البر والصلة والأدب) باب (تحريم الكبر) ، تحفة الأشراف (٣٩٦٨) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله :

((قوله ـ ﷺ ـ « العز إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته » .

هكذا في جميع النسخ ، فالضمير في إزاره ، ورداؤه يعود إلى الله تعالى للعلم به ، وفيه محذوف تقديره: قال الله تعالى: ﴿ ومن ينازعني ذلك أعذبه ﴾ .
ومعنى ينازعني : يتخلق بذلك ، فيصير في معنى المشارك .

وهذا وعيد شديد في الكبر مصرَّح بتحريمه .... »[1] .

فيأبى العزيز الحكيم أن تكون العزة المطلقة ، والحكمة البالغة إلاَّ له ـ جلَّ في عليائه ـ فليست لأحد غيره ، ولا تُصْرف لسواه، فالملك ملكه ، والسلطان له ، والعزة له جميعاً ، ويؤكد ذلك في كتابه العزيز قائلا ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾[3] .

* وهذه العزة التي اختص بها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هي العـزَّة التي تليق بالألوهية والربوبية التي إذا نازعه فيها أحد عذَّبه ولا يبالي ، وهي العزة التي لا يغالبه فيها أحد ، ولا يمتنع عليه فيها أحد ، وتنفذ بها مشيئته ، ويستسلم لها كل مخلوق ،

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، كتاب (البر والصلة) باب (تحريم الكبر) (١٦/٣٨٩:٣٩٠).
(٢) النساء (١٣٩) .
(٣) فاطر (١٠) .

ولكن قد يكسو الله بعض عباده المؤمنين من عزته [فيعزهم وهم أذلّة ، وينصرهم وهم قلّة] ، وذلك لأنهم عبدوا العزيز الحكيم ، وتذلّلوا لصاحب العزة فلمّا تذلّلوا بين يديه ولعزته أعزّهم بين خلقه ، فسبحانه وتعالى هو العزيز يعزّ من يشاء بعزّته ، وهو الحكيم يُمكّن لمن يشاء بحكمته ، لمن تعبّد له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾(٢) .

العزيز الحكيم يُقسم بعزته :

إن صفة العزّة من صفات الذات التي يتّصف بها العزيز الحكيم ، هذه العزّة التي لا يتصف بها إلاّ هو ـ جلّ في عليائه ـ والتي تتحلّى بالحكمة التي يتفرّد بها الله، الإله المعبود ، والتي يفتقر إليها كل مخلوق ، فبعزته قهر كل مخلوقاته ، ونفذت مشيئته وإرادته ، وبحكمته سيّر هذا الكون ودبّر أموره .

---

(١) المنافقون (٨) .

(٢) آل عمران (٢٦) .

- ولذلك نلحظ كثيراً ما يلفت الله - عزّ وجلّ - أنظار عباده إلى هذه الصفة - صفة العزة - وما ينبغي على العباد من التعبُّد للعزيز بصفة العزة ، فكثيراً ما يُقْسم بها - جلّ في عليائه - تأكيداً لعزته المطلقة ، وتفرُّده بتلك الصفة على كمالها ، وعلى ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، وتأكيداً على ضرورة التعبُّد له بهذه الصفة العظيمة الكاملة ، وعدم صرفها لغيره من المخلوقات التي هي في الحقيقة قد خُلِقت بعزة وقدرة العزيز الحكيم .

ومن ذلك :

- حديث الشفاعة الطويل وفيه قول الرسول - ﷺ - : « ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد . ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يُسْمع لك ، وسَلْ تُعْط ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ . فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلاّ الله .

قال : ليس ذلك لك ، أو قال ليس ذاك إليك - ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجِبريائي لأُخْرِجن من قال لا إله إلاّ الله »[1] .

- وفي رواية الإمام البخاري - رحمه الله - : « وعزَّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخْرِجن منها من قال لا إله إلاّ الله »[2] .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (أدنى أهل الجنة منزلة فيها)، تحفة الأشراف (٥٢٣) و(١٥٩٩) .

(٢) رواه البخاري في كتاب (التوحيد) باب (كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

((وأما قوله عزَّ وجلَّ : « وجِبريائي » فهو بكسر الجيم أي عظمتي وسلطاني أو قهري »(١))) .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حين يفطر ، ودعوة المظلوم تُحْمل على الغمام ، ويُفْتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب عزَّ وجلَّ : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»(٢) .

ـ وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الشيطان قال : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم »(٣) .

قال الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ : « وعزتي وجلالي ، وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني »(٤) .

ـ وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : « إن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج على أصحابه يوماً، فقال لهم: « هل تدرون ما يقول ربكم عزَّ وجلَّ؟ قالوا :

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي كتاب (الإيمان) باب (أدنى أهل الجنة منزلة فيها) (٣/٦١).
(٢) رواه الترمذي كتاب (صفة الجنة) باب (ما جاء في صفة الجنة ونعيمها) .
(٣) يعني ما دامت أرواحهم في أجسادهم .
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣ : ٢٨) مسند أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ .

الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاثة ، قال : قال عزَّ وجلَّ : وعزتي لا يُصلِّيها عبد لوقتها إلاَّ أدخلته الجنة ، ومن صلَّى لغير وقتها إن شئت رحمته ، وإن شئت عذبته »(١).

ـ فيُقْسم الله عز وجل بعزَّته ، وهو صاحب العزَّة ، وهو العزيز الحكيم ، ويُبيِّن لنا طريق العبودية ، وكيفية التعبُّد لصاحب العزة والحكمة ، فمَنْ كان من المتعبِّدين ، ومَنْ كان يسير على درب الموحِّدين ، وأراد كيفية التعبُّد لصاحب العزة والحكمة، فهذا طريق من الطرق، وهذه عبادة من العبادات لله العزيز الحكيم، وهي إذا أراد العبد أن يحلف فله أن يحلف ويُقْسم بعزة الله تعالى ، ففيها اعتراف وإفراد لصاحب العزَّة بالعزَّة، وإظهار للعبودية والتذلُّل لمن له العزة المطلقة والحكمة البالغة.

التعبُّد للعزيز الحكيم بالقسم بعزَّته :

إن القسم نوع من أنواع التعظيم والتقديس للمُقْسَمِ به ، وإعلان عن عبودية وذُلٍّ وانكسار المُقْسِمِ لمن أقْسَمَ به ، ولذلك يُعَدُّ القَسَمُ نوع من أنواع العبادة ، والقسم بالله تعالى تعبُّد له وتوحيد له ، والقسم بغيره شرك بالله تعالى كما أخبر بذلك الرسول ـ ﷺ ـ حيث قال : « **ومن حلف بغير الله فقد كَفَرَ أو أَشرك** »(٢) .

---

(١) رواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » كتاب (الصلاة) باب (في المحافظة على الصلاة لوقتها) .

(٢) رواه الترمذي في كتاب(النذور والأيمان) باب (ما جاء في كراهية الحلف بغير الله) (٤/١١٠)، ورواه أبو داود في كتاب (الأيمان والنذور) باب (في كراهية الحلف بالآباء) (٢٢٣/٣) .

ورغم أن العلماء يقولون أن هذا الشرك شرك أصغر لا يُخْرج صاحبه من الملّة، إلاّ أنه إذا قصد المُقْسِمُ بغير الله تعظيم وتقديس وإجلال المُقْسَمِ به صار ذلك شركاً أكبرًا يُخْرِج من تلفظٌ به من الملة .

ـ ولذلك يُعلِّمنا الرسول ـ ﷺ ـ التوحيد ، وكيفية التعبُّد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيرشدنا إلى كل ما يُكمِّلِ توحيدنا ويحفظه من أن يتسرَّب اليه شيء من الشرك فيقول ـ ﷺ ـ : « **من كان حالفا فليحلف بالله ...** »(١) .

ـ ويُعلِّمنا الرسول ـ ﷺ ـ أيضا كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم خاصة ونحن في إطار القسم بالله وبصفاته ، فهو خير من تعبَّد للعزيز الحكيم ، وخير من دعا لعبادته، فيعلِّمنا أن نُقْسم بعزَّة العزيز تعبُّداً له ، وتعظيماً لشأنه ، وإعلاناً عن العبودية الحقة لصاحب العزة والحكمة :

١ ـ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كان النبي ـ ﷺ ـ يقول: «**أعوذ بعزتك...**»(٢) .

٢ ـ ويخبر الرسول ـ ﷺ ـ عن [**جبريل عليه السلام**] وكلامه مع رب العزة سبحانه وتعالى وقسمه بعزته :

---

(١) رواه البخاري في كتاب (الشهادات) باب (كيف يستحلف) ، ورواه مسلم في كتاب (الأيمان) باب (النهي عن الحلف بغير الله تعالى) .

(٢) صحيح البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) مقدمة باب (الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته).

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : إن النبي - ﷺ - قال : « دعا الله عزَّ وجلَّ جبريل عليه الصلاة والسلام فأرسله إلى الجنة فقال : انظر إليها وما أعددتُ لأهلها ، فرجع فقال وعزَّتك لا يسمع بها أحد إلاَّ دخلها ، فحُفَّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إليها فرجع فقال : « وعزَّتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد . ثم أُرْسِلَ إلى النار فقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وما أعددتُ لأهلها ، فرجع وقال : وعزَّتك لايدخلها أحد يسمع بها ، فحُفَّت بالشهوات فقال : عُدْ إليها فانظر إليها ، فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلاَّ دخلها »(١) .

٣ - [أيوب عليه السلام] يُقْسم بعزة الله تعالى :

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عمَّا ترى ؟ قال : بلي وعزَّتك ولكن لا غني لي عن بركتك »(٢) .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب (صفة الجنة) باب (ما جاء : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) .

(٢) رواه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (قول الله تعالى: ﴿ وأيوب إذ نادى ربه ... ﴾ بدون . ذكر وعزتك ، وذكر كلمة [وعزتك] في كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ » ، وفي كتاب (الأيمان والنذور) باب (الحلف بعزة الله وصفاته وكلماه » .

٤ ـ وقال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ : عن آخر أهل النار خروجاً منها : « وقال أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ : « يبقى رجل بين الجنة والنار : فيقول : يا رب اصرف وجهي عن النار، لا وعزّتك لا أسألك غيرها ، وقال أبو سعيد قال النبي ـ ﷺ ـ قال : الله : لك ذلك وعشرة أمثاله »(١) .

٤ ـ حتى [النار ـ والعياذ بالله منها ـ] تُقْسم بعزة الله تعالى تعظيماً له ، وخضوعاً وتذللاً لعظمته .

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ـ ﷺ ـ : « لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ، حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فتقول : قط قط وعزّتك ، ويزوي بعضها إلى بعض »(٢) .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

« وقوله : ((وقال أبو هريرة إلخ)) .... قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله » وهو مختصر من الحديث الطويل في صفة الحشر ... والغرض منها قول الرجل لا وعزّتك لا أسألك غيرها ، فإن النبي ـ ﷺ ـ ذكر ذلك مُقَرِّراً له فيكون حجة في ذلك »(٣) .

---

(١) صحيح البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته) .

(٢) رواه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته) .

(٣) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني كتاب (الأيمان والنذور) باب (الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته) (١١/٥٥٤) .

٦ - بل لم يستطيع [الشيطان - عليه لعنة الله -] . أن يُنْكر عـزَّة الله تعالى وعظمتـه وهيمنته فلم يسـعه إلاَّ أن يقسم حتى على معصيتـه بعزَّة الله تعالى فـقال كما حكى عنه القرآن الكريم : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾[1] .

- فحريٌّ بالمتعبِّد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - أن يتعبَّد إليه بالقسم بعزته ، وذلك تعظيماً له ، واعترافاً بعزته المطلقة التي تليق بجلاله وعظيم سلطانه ، واعترافاً بحكمـته البالغـة - جلَّ في علاه - في كل أفـعاله وتقـديراته ، وإعلاناً من العـبد عن براءته من عزَّة كل عزيز إلاَّ العزيز الحكيم إله المخلوقات أجمعين .

التعبُّد للعزيز الحكيم بالاستعاذة بعزته :

إن من خصـائص الألوهيـة والربوبية أن يفـتقـر العبد لخـالقه، وأن يتـذلَّل بين يديه، ويشعر دائماً أنه في كَنَفِ الإله ، ومحتاج دائماً لرعايته وحفظه وسِتْره ، لأنه يعلم بل ويعتـقـد أن إلاهه عـزيز حكيـم ، وأنه المهيـمن على كل شيء ، والقـادر والقاهر فـوق عباده ، وأن مـقادير السمـاوات والأرض كلها بيـده ، ولا يخرج عن عزَّته وقوته ومشيئته أحد ، ويعتقد ويؤمن أن العباد كلـهم نواصيهم بيدي صاحب العزَّة والحكمـة ، وأن الكل له عبيد ، ولا يسـعهم إلاَّ الانقياد لأوامره ، والانصياع لحكمه وحكمتـه ، وأنه سبحانه وتعالى لا يعجـزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، صاحب العزَّة والحكمة .

---

(١) ص (٨٢) .

قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾(٣) .

- فيتعبَّد العبد للعزيز الحكيم بأن يتعوَّذ به ، ويستغيث بعزَّته من شر كل مخلوق ، ومِنْ كل مَنْ يُخوِّفه ويكيد له ، فلا يجد العبد ملجأ ولا غوث إلاَّ بالتجائه إلى صاحب العزة والحكمة ، يستغيثه ويستعيذ به من كل مخلوق في الوجود تعبُّداً لصاحب العزة والحكمة ، واعترافاً بعزَّة العزيز وحكمة الحكيم ، وطمعاً في السلامة والنجاة من كل محذور ، بل من كل مرض وخوف ، ومن كل همٍّ وغم وحزن .

- ويعلِّمنا هذا التعبُّد للعزيز الحكيم سيد المرسلين - محمد بن عبدالله - ﷺ - فهو خير مَنْ تعبَّد للعزيز الحكيم ، وخير مَنْ دلَّ وأرشد وعلَّم الخلق كيف يتعبَّدون لله صاحب العزَّة المطلقة والحكمة البالغة .

- ففي صحيح مسلم - رضي الله عنه - عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك

---

(١) الأنعام (١٨) .

(٢) الأنعام (٦١) .

(٣) المؤمنون (٩٧ : ٩٨) .

توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، أعوذ بعزَّتك ، لا إله إلاَّ أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون »[١] .

- وفي رواية البخاري - رحمه الله - : كان يقول : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلاَّ أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون »[٢].

- وعن عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - أنه أتى رسول الله - ﷺ - ، قال عثمان - رضي الله عنه - وبي وجع قد كاد يهلكني. قال : فقال لي النبي - ﷺ - « امسحه بيمينك سبع مرات وقل : أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شر ما أَجدَ . قال: فقلت ذلك فأذهب الله ماكان بي ، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم »[٣] .

- وفي رواية أخرى عن عثمان بن أبي العاص الثقفي - رضي الله عنه - قال: قدمت على رسول الله - ﷺ - وبي وجع قد كاد أن يبطلني ، فقال رسول الله - ﷺ - : « اجعل يدك اليمني عليه ثم قل : بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد ، سبع مرات ، ففعلت ذلك فشفاني الله عزَّ وجلَّ »[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء) باب (التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل) .
(٢) رواه البخاري في كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾) .
(٣) رواه أبوداود في كتاب (الطب) باب (كيف الرقى) .
(٤) رواه ابن ماجه في كتاب (الطب) باب) ماعَوَّذ به النبي - ﷺ - وما عُوِّذ به » .

- فالعزيز الحكيم الذي يُسبِّحه كل مَنْ في السماوات والأرض وينزِّهوه عن النقص والعيب ، والذي أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد - ﷺ - إلى عباده لكي يعبدوه وحده ويُنزِّهوه عن الندّ والشريك ، يجب أن يتعبَّد إليه عباده بأن يستعيذوا بعزته تعظيماً له ، وإعترافاً بعزته وحكمته ، ويجتنبوا الاستعاذة بغيره - جلَّ في عليائه - فلا يُستعاذ إلاَّ به وحده ، فهو صاحب العزة والعظمة والجلال والكبرياء - جلَّ في علاه - .

[المبحث الرابـــع]

علاقة التسبيح للعزيز الحكيم ببعث الرسول الأُمّي - ﷺ -

إن المتـأمل في بداية سورة الجـمعـة وما تضـمنتـه من التسـبيح ، وخـتـم الآية باسمـي الله الحسنيين [العـزيز الحكيم] وصفـتيـه الحميـدتين [العزة والحكـمة] ، ثم امتنان الله تعـالى على الأُمّيين [من العـرب وغيرهـم] بإرسـال رسول منهم ليُـعلّمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال والهلاك ، ثم ختم الآيات مرة أخرى [بالعزيز الحكيم] قال تعالى : ﴿ يسـبح لله ما في السـماوات ومـا في الأرض الملك القـدوس العـزيز الحكـيم هو الذي بـعث في الأمـيين رسـولاً منهم يـتلوا عليـهم آياته ويزكيـهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضـلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

إن المتأمل حق التأمل سوف يلحظ مدى التناسب والتناسق والترابط بين هذه الآيات الكريمة ، وأيضـاً بين جزئيـاتهـا وما تضـمنته من مـعانٍ ، ومن أمـور عقـدية تعبُّدية ومن ذلك :

١ - بداية الآيات [بالتسبيح] وهو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، ووصفه بكل صفات الكمال والإجلال والتعظيم والإكبار .

---

(١) الجمعة (١ : ٣) .

٢ ـ ثم خَتْمُ الآية الكريمة [بالعزيز الحكيم] يناسب التسبيح والتقديس والتنزيه لله تعالى ، فكما أن التسبيح فيه تنزيه لله عن النقص والعيب ، وفيه التقديس لجلاله ، كذلك فإن [عزة الله وحكمته] منزَّهة عن المشابهة والمماثلة ، فإن العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ لا يشابهه في عزته وحكمته أحد ، ولا يشاركه فيهما كائن مَنْ كان ، فإن له العزَّة المطلقة والحكمة البالغة ، فناسب بعد تنزيه الله عن صفات النقص والعيب أن يُوصَف بالقوة والحكمة ، والعزة والإحكام بلا منازعٍ ولامشابهٍ فناسب هذين الاسمين الحسنيين وهاتين الصفتين الحميدتين التسبيح الذي ورد في أول الآية الكريمة من صدر هذه السورة الجليلة .

٣ ـ ثم بعد ذلك امتنان الله تعالى على الأُمِّيين [ببعث الرسول الأمي ـ ﷺ ـ] وذلك من أجل أن يُعبْد في مُلْكه وحده ، ويُعَظَّم في سلطانه ، ولا يشاركه أحد في ملكوته ، فينُزَّه عن الشريك والنِّد والشبيه ، فلا يُشْرك معه غيره ، كما قال ـ جلَّ في علاه ـ عن نفسه المقدَّسة في الحديث القدسي : « **أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه** »[1] .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الزهد والرقائق) باب (من أشرك في عمله غير الله) .

فبعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ لكي يُعرِّف العباد برب العباد العزيز الحكيم ، لكي يُنَزِّهوه عن الشريك ويُخْلصون له العبادة وحده ، وينفون عنه كل نقص وعيب ، ويصفونه بكل صفات الكمال والإجلال والتعظيم والإكبار .

ـ فكما أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أثبت لنفسه في أول السورة تسبيح مخلوقاته في السماوات والأرض وتنزيههم له عن كل عيب ونقص ، ووصفه بكل صفات الكمال ، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل رسوله أيضاً إلى عباده لكي ينزِّهوه عن الشرك ، ويصرفوا له كل عباداتهم ، وذلك كله لأنه هو [العزيز الحكيم] صاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة التي لا يشاركه ولا ينازعه فيهما أحد ، فهو يحب أن يُسبَّح ويُنزَّه من جميع خلقه عن النقص والعيب ، وأن يُنزَّه أيضاً عن الشريك والنِّد والشبيه والمِثْل فأرسل رسوله من أجل أن يوضِّح ويُبيِّن للعباد كيفية تسبيح وتنزيه وعبادة [العزيز الحكيم] ـ جلَّ في علاه ـ كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ـ .

فسبحان العزيز الحكيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولكي ينزَّه صاحب العز والحكمة عن الشريك والنِّد والكفؤ .

ولذلك وصف الله تعالى [الكتاب] الذي بَعَثَ به الرسول الأُمي بأنه [هُدَىً] يهدى به عباده الى تنزيهه عن الشرك ، وإفراده بالعبادة فقال تعالى : ﴿هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز إليم ﴾[1] .

---

(١) الجاثية (١١) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ هـذا هدى ﴾ وهو وصف عام لجميع القرآن ، فإنه يهدي إلى معرفة الله ـ تعالى ـ بصفاته المقدّسة ، وأفعاله الحميدة .

ويهـدي إلى الأعمـال الصالحة ويدعـو إليها ، ويبيّن الأعـمال السيئة وينهى عنها ، ويهـدي إلى بيان الجزاء على الأعـمال ، ويبيّن الجزاء الدنيـوي والأخروي ، المهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا))[١] .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

في قوله تـعالى : ﴿ كـذلك يوحي إليك وإلى الذين من قـبلك الله العـزيز الحكيم ﴾[٢].

« يخبر ـ تعالى ـ أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم ـ ﷺ ـ ، كما أوحى إلى مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين .

ففيه بيان فضله بإنزال الكتب ، وإرسـال الرسل سابقـاً ولاحقاً ، وأن محمداً ـ ﷺ ـ ليس ببدع من الرسل ، وأن طريقته طريقـة مَنْ قبله ، وأحواله تناسب أحوال مَنْ قبلـه من المرسلين ، وما جاء به يـشابه ما جـاءوا به ، لأن الجمـيع حق وصدق ، وهو تنزيل من اتصف بالألوهيـة ، والعزة العظيـمة ، والحكمة البـالغة ، وأن جـميع

---

(١) تفسير السعدي لسورة الجاثية آية (١١) ص (٧٢١) .

(٢) الشورى (٣) .

العالم العلوي والسفلي مِلْكه وتحت تدبيره القدري والشرعي ... ﴿ والملائكة ﴾[١] الكرام المقرَّبون خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزته ، مذعنون بربوبيته .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾[٢] ويعظمونه ، وينزِّهونه عن كل نقص ، ويصفونه بكل كمال .

﴿ يستغفرون لمن في الأرض ﴾[٣] عمَّا صَدَرَ منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه مع أنه ـ تعالى ـ : ﴿ هو الغفور الرحيم ﴾[٤] الذي لولا مغفرته ورحمته لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة .

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل عموماً وإلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ خصوصاً إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم فيه الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري ـ تعالى ـ ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لإمتلاء القلوب من معرفته ،ومحبته ، وتعظيمه ، وإجلاله ، وإكرامه ، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له ـ تعالى ـ .

وأن من أكبر الظلم ، وأفحش القول ، اتخاذ أنداد لله من دونه ، ليس بيدهم نفع ولا ضر ، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم ... »[٥] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) الشورى (٥) .

(٥) تفسير السعدي لسورة الشورى آية (١ : ٥) ص (٦٩٨ : ٦٩٩) .

وهكذا أصبح واضحاً الترابط البيِّن ، والتلازم الواضح بين التسبيح لله العزيز الحكيم الذي أنزل الكتاب على رسوله الأُمِّي الأمين إلى عباده لكي ينزِّهوه عن النقص والعيب ، ويصفوه بكل صفات الكمال والعظمة والإجلال ويفردوه بالعبادة ، وينزِّهوه عن الشريك والنِّد والشبيه والمِثْل .

عن ما لا ما يليق بعزته وحكمته وأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

قال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ (1) .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((﴿ سبحان ربك ﴾ أي تنزَّه وتعالى .

﴿ رب العزة ﴾ أي : الذي عزَّ فقهر كلَّ شيء ، واعتزَّ عن كل سوء يصفونه به .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات ، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ الألف واللام للاستغراق ، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التي ربَّى بها العالمين، وأدرَّ عليهم فيها النِّعم،

---

(1) الصافات (١٨٠ : ١٨٢) .

وصرف عنهم بهـا النِّقم ، ودبرَّهـم ـ تعالى ـ في حركاتهم وسكونهـم ، وفي جميع أحوالهم ، كلها لله ـ تعالى ـ .

فهو المقدَّس عن النقص ، المحمود بكل كمال المحبوب المعظم . ورُسله سالمون مُسلَّم عليـهم ، ومن اتبعهم في ذلك له السـلامة في الدنيا والآخـرة ، وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة))[١].

(١) تفسير السعدي لسورة الصافات آية (١٨٠ : ١٨٢) ص (٦٥٥) .

الدين كـله ، ولكي يُـنزِّه الله عن الشـريك والنِّد والشبـيـه والنظير ، ويُفـرده بالعبادة والألوهية في سلطانه وملكه .

٥ - [**العمل بكتاب الله تعالى**] : فيجب على المتعـبِّد للعزيز الحكيم ، صاحب العزة الكاملة ، والحكمة التامة أن يتبَّع كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) فإنه نزل بعزة العزيز ، وحكمة الحكيم ، وأراده إمامـاً وشِرْعة ومِنْهاجاً ، فمَنْ أراد التعبُّد حق التـعبُّـد للعزيز الحكيم الذي أنزله من فـوق سبع سـماوات فـعليه بالعمل بهـذا الكتاب ، وتطبيقـه تطبيقاً عمـلياً في كل حياته وأمـوره وشئونه ليفوز برضا العزيز الحكيم .

٦ - [**تطبـيق سنة الـنبي - ﷺ**] : فعـلى العبـد المؤمن الذي يريد التعـبُّد للعـزيز الحكيم حق التعبُّد أن يتَّبع هذا - النبي الأُمِّي - - ﷺ - ويُطبْق سنته في كل كبيرة وصغيرة ، فيتخذه أُسوة وقدوة ، فإن الذي أوحى لهذا الرسول - ﷺ - بهذه السُّنة هو العزيز الحكيم الذي أوحى له الكتاب الحكيم (القرآن الكريم) فيجب اتباع الحكمة (التي هي سنة الرسول ﷺ) كما يجب اتباع الكتاب (القـرآن الكريم) ، فالكلُّ من عند العـزيز الحكيم ، فـمن أراد التعـبُّد للعـزيز الحكيم حق التعبُّد فيـجب عليه اتباعهما وعدم التفريق بينهمـا فيعمل بالقرآن الكريم كتاب الله تعالى ، ويُطـبِّق سنة رسول الله - ﷺ - ويقتدى بـه ليفوز برضا العزيز الحكيم الذي أوحى لرسوله - ﷺ - بالكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾(١)

(١) الجمعة (١ : ٣) .

الفصل السادس

[التسبيح للعزيز الحكيم عند المِحَنِ والشدائد]

مدخـــل :

المبحث الأول : [التسبيح عند المصيبة والابتلاء]

المبحث الثاني : [التسبيح عند الشدة والضيق]

المبـحث الثـالث : [كـيفـيـة التـعـبُّـد للعزيـز الحكيم بالتسبيح عند المِحَنِ والشدائد]



الفصل السادس

[التسبيح للعزيز الحكيم عند المِحَن والشدائد]

مدخل :

لقد اتضح لنا مما سبق مدى العلاقة والترابط بين التسبيح لله ـ تعالى ـ واسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] ، وكيف أن هناك سوراً كثيرة بدأت بالتسبيح في أول آياتها وتُخْتم هذه الآيات بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، ولاحظنا أن التسبيح في هذه الآيات كان عاماً ويشمل كل مافي السماوات والأرض من مخلوقات الله ـ تعالى ـ .

قال تعالى في سورة الحديد : ﴿ سبَّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ سبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

وقال تعالى في نفس السورة الكريمة : ﴿ يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) .

---

(١) الحديد (١) .

(٢) الحشر (١) .

(٣) الحشر (٢٤) .

وقال تعالى في سورة الصف : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[(١)] .

وقال تعالى في سورة الجمعة : ﴿ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾[(٢)] .

فدلَّ ذلك الترابط الوثيق على مدى العلاقة بين أي تسبيح يطلق في القرآن الكريم وهذين الاسمين الحسنيين وهاتين الصفتين الحميدتين ، فإن العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم يستشعر عزة وحكمة [العزيز الحكيم] عند مروره بأي آية يُذْكر فيها التسبيح ، ويستشعر مدى الترابط والتلازم بينهما ويتذكَّر الآيات السالفة الذِّكْر .

فإن آيات التسبيح التي خُتِمت بهذين الاسمين ، وهاتين الصفتين ما زالت ملازمة للعبد المتعبِّد لله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، بل هي نصب عينيه ، بل في قلبه وفكره فينظر في آيات التسبيح التي في كتاب الله تعالى ويستشعر في قلبه عزَّة العزيز ، وحكمة الحكيم ، ويستلهم كيفية التعبُّد لصاحب العزَّة المطلقة ، وصاحب الحكمة البالغة التامة ، فلقد وَقَرَ في قلبه أنه لا عزة حقيقية تامة مطلقة إلاَّ للعزيز ، ولا حكمة تامة بالغة إلاَّ للحكيم ، فيحقق العبودية الحقة لهذا الإله الذي يستحقها بأن يتعبَّد له وحده ، ويطلب العزَّة والقوة والمَنَعَة منه فهو القادر على أن يُعزَّه بعزته ، ويمنعه بقوته وإرادته وحكمته .

---

(١) الصف (١) .

(٢) الجمعة (١) .

وكذلك يتعبَّد له بأن ينزِّهه عن الشريك والنِّد والشبيه والمثيل ، تسبيحاً وتنزيهاً وتقديساً وتعبُّداً لصاحب العزَّة والحكمة - جلَّ في علاه - . مُظْهراً في هذا التسبيح فقره وعَوَزه وتذلُّله لمن بيده العزَّة ، ولمن يتصرَّف في الكون كله بحكمته .

ومن هنا نرى أنه من المناسب أن نذكر بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها التسبيح [وإن لم تُختْم بهذين الاسمين وهاتين الصفتين لفظاً] ولها دلالات تعبُّدية يستطيع العبد المتعبِّد لمولاه أن يأخذ منها الكيفية والطريقة والقدوة والتأسي ، فيكون في تعبُّده على نور وبصيرة ، وهدى ورشاد ، وتأس واتباع - وهذا هو ديدن هذه الأمة المحمدية الحقة [**فإنها مُتَّبِعة لا مُبْتدِعة**] .

فنعيش بمشيئة الله - تعالى - مع بعض آيات القرآن الكريم والذِّكْر الحكيم التي ذُكِرَ فيها التسبيح لنستلهم منها كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح لصاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة - جلَّ في علاه - .

[المبحث الأول]

التسبيح عند المصيبة والابتلاء

مدخل :

قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾(٢).

إن العبد المؤمن قد يُبْتلى من قِبَل ربه ومولاه ، وقد تحلُّ به المصيبة ، وتأتيه الأوجاع ، وتنزل بساحته الهموم والأحزان ، ويتجرَّع من الغم والأتراح ما يجعله يجدِّد إيمانه ، ويستعين بخالقه ومولاه ، ويلتجأ إلى صاحب العزة والقوة ، والمَنَعَة والغلبة ، ويستغيث بالحكيم ذي الحكمة والحُكْم والإحكام ، لكي يُسلّيه في حزنه، ويثبِّته في إبتلائه، ويُصبِّره على مصيبته، ويأجره في بلواه ، ويكشف غمَّه ، ويُنفِّس كَرْبه ، ويُفرِّج همَّه .

وسواء أكانت هذه المصيبة وهذا الإبتلاء تكفيراً للذنوب أو رفعاً للدرجات فلا يجد العبد المؤمن نفسه إلاَّ محتاجاً إلى عزَّة العزيز ، وقوة وعون صاحب العزَّة القدير ، ليستطيع أن يصبر أمام هذا الإبتلاء وتلك المصيبة ، فما نزلت به إلاَّ بعزَّة العزيز ، وقدرة القدير ، وحُكْم وحكمة الحكيم - جلَّ في علاه - .

---

(١) الأنبياء (٨٧) .

(٢) القلم (٢٨ : ٢٩) .

ولا يستطيع إزالتها ، أو تخفيفها ، أو الإعانة على الصبر عليها ، وإعطاء الأجر والمثوبة لمن صبر واحتسب إلاَّ [العزيز الحكيم] صاحب العزة المطلقة التامة ، والحكمة الكاملة البالغة . قال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] .

وهنا تتجلَّى العقيدة ، ويبرز التوحيد ، ويَرْسُخ الإيمان ، وتظهر معالم العبودية الحقة لخالق السماوات والأرض وما فيهما ، العزيز الحكيم ، فيتعبَّد العبد للعزيز الحكيم مظهراً عبوديته لمن بيده كل شيء ، ولمن قهر وغلب كل شيء ، ولمن بيده العزة المطلقة ، والحكمة البالغة ، فيفتقر إلى هذه العزَّة ، وإلى هذه القوة ، وإلى تلك الحكمة ، فيخشع ويذل للعزيز ، ويدعو ويقنت للحكيم ، ويُظْهر عبوديته لمن بيده الأمر كله معترفاً بعبوديته وافتقاره وعَوَذِه للعزيز ، ومُقراً بألوهية الحكيم ، وهنا تتجدَّد وتتجلَّى معالم العبودية والألوهية ، ويتضح الفرق بين الخالق والمخلوق ، وتتحدَّد خصائص العبودية وخصائص الربوبية والألوهية ، ويُعْلم من الأحق بالعبادة ، ومن صاحب العزة والحكمة والسلطان ، ومن هو الضعيف الفقير المحتاج إلى العون والمساعدة ، فيسبِّح العبد ربه العزيز الحكيم وينزِّهه عن العيب والنقص ،

---

(١) البقرة (١٥٥ : ١٥٧) .

وعن الظلم والجور ، ويصبر لحكمه وحكمته وقَدَرِه ، طالبا للُّطف والعافية والرحمة ، والأجر والمثوبة . قال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[1] .

فإن هذا الخالق الذي خلق ودبَّر وأَحْكَمَ هو الذي يستحق أن يأمر وينهى ، وأن تُصْرف له العبودية الحقة والتي منها التعبُّد له تعالى بأسمائه وصفاته والتي منها [العزيز الحكيم] ، [والعزة والحكمة] ، فيستعين العبد بعزَّة العزيز وحكمة الحكيم على مصائب الدنيا ، ونوائب الدهر ، والنوازل والابتلاءات ، لينال شرف العبودية للعزيز الحكيم ، ويصرف لله ـ تعالى ـ ما يستحقه من ألوهيته وربوبيته على خلقه .

ونضرب لذلك بعض الأمثلة التي يتجلَّى فيها التعبُّد للعزيز الحكيم عند المصيبة والابتلاء وذلك بالاستعانة بالتسبيح والتنزيه والتقديس لصاحب العزَّة ، والحكمة ، وذلك من قصص القرآن الكريم الذي أنزله ربُّ العزَّة ليكون للعالمين شِرْعةً ومِنْهاجاً ، وهدى ورشاداً .

قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[2] .

---

(١) الأعراف (٥٤) .

(٢) يوسف (١١١) .

أولاً : يونس - ﷺ - يسبِّح عند الكرب والابتلاء] :

إن تسبيح الله تعالى وتنزيهه وتقديسه عبادة يتعبَّد بها العبد لله العزيز الحكيم - جلَّ في علاه - عبادة ينزِّه فيها خالقه ومولاه عن الندِّ والشريك ، وعن النقص والعيب ويُثْبت [للعزيز الحكيم] صفات الجلال والكمال ، والعظمة والكبرياء والعزَّة والإحكام ، معترفاً فيها بعدل العزيز ، وحكمة الحكيم ، وتقصير العبد الذليل الفقير لرحمة وعون ومَنَعة من بيده كل المقادير ، الذي يتصرَّف في كل الأمور بقوة وعزَّة ، ووفق حكمة وإحكام .

فلا عجب إذا وقع العبد في ضيق أوكرب ،أو شدة أو بلاء ، أو محنة أو عناء ، أن يتعبَّد لله [العزيز الحكيم] بأسمائه وصفاته تعبُّداً وتضرُّعاً ، واعترافاً بألوهية العزيز ، وربوبية الحكيم ، واعترافاً بعبوديته وافتقاره إلى خالقه ومولاه ، وحاجته لعزَّة وقوة ومَنَعة العزيز في هذا الابتلاء ، وتلك المحنة ، وحاجته كذلك أن تتداركه حكمة الحكيم - صاحب الحكمة والحُكْم والإحكام - أن يُرْحم هذا العبد، ويُخفَّ عنه هذا الإبتلاء ، وتُكْشف عنه الكرُبات ، ويُفرَّج عنه الهموم والأحزان، وينجو من المخاطر والمهلكات، ويُعافى من جميع المنغصات والمكدرات، فإن هذا الإله [عزيز] لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، [حكيم] لا يخرج شيء عن حكمته وإرادته ومشيئته ، وإحكامه ، فيقف ذلك العبد الذليل الضعيف الفقير ، على باب خالقه ومولاه [العزيز الحكيم] متعبِّداً ومسبِّحاً ومنزِّهاً صاحب

العزّة والحكمة عن النقص والعيب ، والظلم والجور ، والعشوائية والعبث ، طامعاً في ستره ، وعافيته ، ومدده ، وعزّته ، ومَنَعته .

- يونس عليه السلام يتعبّد للعزيز الحكيم بالتسبيح :

ومن هؤلاء العباد الذين تعبّدوا للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح عند الكرب والضيق نبي الله يونس - ﷺ - حينما وقع في محنة وبلاء ، فما وجد أمامه إلاَّ أن يُعْلن عن عبوديته [للعزيز الحكيم] الذي يملك بعزّته وقوته ومَنَعته أن ينجيه مما هو فيه من الكرب الشديد ، والبلاء العظيم ، فما كان منه إلاَّ أن انطلق لسانه بالتوحيد معلناً عبوديته لرب السماوات والأرضين ، ثم تعبّده بعبادة [التسبيح] مُنزِّهاً [العزيز الحكيم] عن النقص والعيب ، وعن الضعف والعجز ، وعن الظلم والجور ، وعن العشوائية والعبث . معترفاً أن ما وقع فيه من الضيق والشدة ليس عن ظلم من العزيز صاحب القوة ، وليس عن عشوائية ولا عبث من الحكيم العليم (حاشا لله) ، بل كل ما ألمَّ به بسببه هو ، وجزاء فعله ، وجزاء عمله ، بعد مشيئة الله تعالى - .

قال تعالى : **﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾**(١) .

- هكذا يتوجّه نبي الله يونس - ﷺ - إلى إلاهه وخالقه متعبّداً له بعبادة التسبيح فنزّه إلاهه [العزيز الحكيم] عن الظلم ، ونسبه لنفسه ، واعترف به نادماً

(١) الأنبياء (٨٧) .

ومتأسفاً راجياً رأفْةُ ورحمة العزيز الذي يملك كل شيء بعزته وقوته ، طامعاً في عفو الحكيم صاحب الحكمة والحُكْم والإحكام .

فناجى إلاهه ومولاه وهو في ظلمات ثلاث [ظلمة الليل - وظلمة بطن الحوت - وظلمة البحر] . ولكنه يناجي ويتضرع إلى إله يعلم السرَّ وأخفى ، الذي يسمع ويرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصَّماء .

قال تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمها ولاحبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاَّ في كتاب مبين** ﴾[1] .

فسَمِعَه ربُّه وأبصره على ضعف صوته ، وبُعْد مكانه ، وضيق حاله ، وظلمه لنفسه ، ولكن كيف يكون بعيداً عن سمع الإله وبصره ، وهو خالق كل شيء ، والكون كَوْنه ، والملك مُلْكه ، والسلطان سُلْطانه ، والكل له عبيد والكل آتيه يوم القيامة عبداً ، فهو الملك الحق صاحب السلطان والجبروت ، المهيمن على كل شيء [العزيز الحكيم] .

فنبي الله يونس - ﷺ - وحَّدَ إلاهه ، وسبَّح [العزيز الحكيم] ، واعترف بظلمه كما اعترف بذلك من قبل أبواه [آدم وحواء] عليهما السلام . حينما ظلما أنفسهما وعصيا ربهما وأكلا من الشجرة فما كان منهما إلاَّ أن تضرَّعا لربهما

---

(١) الأنعام (٥٩) .

معترفين بالخطأ والظلم فقال الله تعالى عنهما : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1] .

فلما ناجى نبي الله يونس - ﷺ - ربه وسبّح مولاه في بطن الحوت ، سمعته الملائكة ، ولكنهم تعجبّوا من هذا الصوت الضعيف ، إنه صوت معروف مألوف ولكن من مكان غير مألوف، فيُخْبرهم ربٌّ العزة أنه صوت نبيه وصفيه يونس -ﷺ- الذي ظلم نفسه وتعجّل أمره ، ولم يتمهل قومه ، فشفعت له الملائكة فإنه العبد الصالح الذي طالماً رفعوا عبادته وتسبيحه في الرخاء وعند النعماء ، فحفظه الله بعزّته وقوته وقدرته في هذا المكان الصعب المخيف ، ونجّاه بحكمته وحُكْمه وإحكامه فصدر الأمر الإلهي من صاحب العزّة للحوت ألاّ يُهلك نبيه وحبيبه وصفّيه يونس - ﷺ - وأعلم الله الحوت أنه ليس له طعاماً، وأن جسمه عليه حرام ، ولتكن بطنه له أمناً وسلاماً .

فما كان من الحوت إلاّ السمع والطاعة ، والإذعان والانقياد لرب العالمين [العزيز الحكيم] .

فإن صاحب العزة والحكمة الذي أمر النار أن تكون برداً وسلاماً على نبيه - إبراهيم - ﷺ - أمر أيضاً بطن الحوت أن تكون وعاءً وسلاماً على نبيه يونس - ﷺ - .

---

(١) الأعراف (٢٣) .

فقام نبي الله يونس - ﷺ - في بطن الحوت يصلي ويركع ويسجد ويسبِّح ويتعبَّد [للعزيز الحكيم] وأخذ يناجيه ويُثْني عليه ، ومما كان يقوله لربه في مناجاته أنه عبده ، وسبَّحه في مكان ما عَبَدَه وما سبَّحه فيه غيره قائلا : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾(١) .

فتداركته رحمة الحكيم بأن يكون من الآمنين ، وأن يكون من الناجين ، لأنه كان من عباد الله المسبِّحين ، ولولا عزَّة العزيز وحكمة الحكيم لكان من الهالكين ، وللبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون ، ولكن هذا فضل رب العالمين ، وجزاء المتعبِّدين [للعزيز الحكيم] بعبادة التسبيح ، والاعتراف بالظلم للنفس من العبيد ، وتنزيه العزيز الحكيم عن النقص والعيب ، والظلم للعبيد ، فنعم أجر المتعبِّدين لله رب العالمين [العزيز الحكيم] صاحب العزَّة ، المُتَّصف بالحكمة .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

« وذلك أن يونس بن متى - عليه السلام - بعثه الله إلى أهل قرية نينوى وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا، عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم وتوعَّدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلمَّا تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرَّقوا بين الأمهات وأولادها ثم تضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلَّ ، وجأروا إليه،

(١) الأنبياء (٨٧) .

ورغت الإبل وفصائلها ، وخاوت البقر وأولادها ، وغث الغنم وسخا لها ، فرفع الله عنهم العذاب .

قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاَّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾(١) .

ـ أما يونس ـ عليه السلام ـ فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلجحت بهم وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفّفون منه فوقعت على يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال الله تعالى: ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾(٢) : أي وقعت عليه القرعة فقام يونس ـ عليه السلام ـ وتجرّد من ثيابه ثم ألقى نفسه في البحر ، وأرسل الله ـ سبحانه ـ من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود رضي الله عنه ـ حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى بنفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت [أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً] .

وقوله : ﴿ وذا النون ﴾ يعني الحوت ، صحّت الإضافة إليه بهذه النسبة .

وقوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال الضحاك : لقومه(٣) .

---

(١) يونس (٩٨) .
(٢) الصافات (١٤١) .
(٣) أي مغاضباً لقومه ـ لعدم استجابتهم لدعوته ـ .

وقوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي نُضيِّق عليه في بطن الحوت . يُرْوى نحو هذا عن : [ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم واختاره ابن جرير ...] .

وقوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾(١) .

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ [ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل] .

قال ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يُشقُّها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس ـ عليه السلام ـ تسبيح الحصى من قراره فعند ذلك ، وهنالك قال : ﴿ لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾(٢) .

وقال عوف الأعرابي ـ رحمه الله ـ : لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات ثم حرك رجليه ، فلما تحركت سجد مكانه ثم نادى : يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس .

وقال سعيد بن أبي الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : مكث في بطن الحوت أربعين يوماً ... وعن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة ـ رضي الله عنهما ـ سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لما أراد الله حبس يونس في

---

(١) سورة الأنبياء (٨٧) .

(٢) الأنبياء (٨٧) .

بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فلمّا انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر ، قال : وسبّح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال : ذلك عبدي يونس عصاني وحبسته في بطن الحوت في البحر .

قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال : نعم فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾[(١)،(٢)] » .

وقوله : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾[(٣)] : أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات .

﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[(٤)] أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء - ﷺ - .

---

(١) الصافات (١٤٥) .

(٢) قال ابن كثير - رحمه الله - رواه ابن جرير ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة فذكره بنحوه ثم قال لا نعلمه يُروى عن النبي - ﷺ - إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ، تفسير ابن كثير لسورة الأنبياء (١٨٤/٣) .

(٣) الأنبياء (٨٨) .

(٤) الأنبياء (٨٨) .

عن سعد أبي المسيب ـ رحمه الله ـ قال سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « اسم الله الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى » .

قال : قلت يا رسول الله هي ليونس خاصة ؟ أم لجماعة المسلمين عامة ؟ قال : « هي ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[١] ، فهو شرط من الله لمن دعاه به)[٢] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[٣] .

فأقرَّ لله تعالى بكمال الألوهية ، ونزَّهه عن كل نقص وعيب وآفة ، واعترف بظلم نفسه وجنايته .

﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[٤] وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها ،ويكشف عنه ويخفف ، لإيمانه كما فعل بيونس ـ عليه السلام))[٥] .

---

(١) الأنبياء (٨٧ : ٨٨) .
(٢) تفسير ابن كثير لسورة الأنبياء آية (٨٧ : ٨٨) (١٨٣/٣ : ١٨٥) وذلك باختصار .
(٣) الأنبياء (٨٧) .
(٤) الأنبياء (٨٨) .
(٥) تفسير السعدي لسورة الأنبياء آية (٨٧ : ٨٨) ص (٤٧٨ : ٤٧٩) .

التسبيح للعزيز الحكيم سبب للنجاة :

وهكذا كما ذكرنا من قصة نبي الله يونس - ﷺ - حينما ذهب مغاضباً من قومه ، وكان من قصته مع السفينة ، وانتهاءً بالتقام الحوت له حتى أصبح في ظلمات ثلاث [ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر] ولكن نبي الله يونس - ﷺ - تعوَّد على التسبيح والذِّكْر والدعاء ، والتضرُّع والإنابة ، والتعبُّد لرب الأرض والسماء ، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ كل عباد الله الصالحين ، والأولياء المتقين ، فما كان منه - ﷺ - إلاَّ أن انطلق لسانه بالذِّكْر والتسبيح ، وقلبه قد خشع وأناب ، وسجد بجوارحه وأعضائه ، كما تعوَّد على ذلك في حين العافية والرخاء ، فنفعه تسبيحه السابق وتسبيحه الحاضر ، تسبيح العافية والرخاء ، وتسبيح الشدَّة والبلاء فكان التسبيح - بعد مشيئة الله تعالى سببا في السلامة والنجاة .

قال تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[(١)] ، فرتَّب الله - عزَّ وجلَّ - نجاة نبيه يونس - ﷺ - بعد مشيئته على تسبيحه للعزيز الحكيم فكان التسبيح من حيثيات النجاة ، وليست هذه ليونس - ﷺ - خاصة بل هي عامة لكل من تعبَّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح وذكر هذا الدعاء في الكرب والبلاء ، وكان من عباد الله المسبِّحين ، قال تعالى : ﴿ **وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾[(٢)] .

---

(١) الصافات (١٤٣ : ١٤٤) .
(٢) الأنبياء (٨٨) .

وفي الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[(١)] .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ يرفعه للنبي ـ ﷺ ـ أن يونس عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : ﴿ **لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾[(٢)] .

فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة .

فقال : أما تعرفون ذاك ؟

قالوا : لا يا رب ومن هو ؟

قال : عبدي يونس .

قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يُرْفع له عمل متقبل ودعوة مجابة .

قالوا : [يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء] .

قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه في العراء »[(٣)] .

---

(١) رواه أحمد (١ / ٣٧) .

(٢) الأنبياء (٨٧) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة الأنبياء آية (٨٧ : ٨٨) [٣ / ١٨٤] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي : في وقته السابق بكثرة عبادته لربه ، وتسبيحه ، وتحميده ، وفي بطن الحوت حين قال : ﴿ لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[(١)] .

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي : لكانت مقبرته ، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله نجَّاه الله تعالى . وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد »[(٢)] .

ثانياً : أصحاب الجنة يسبِّحون عند المصيبة :

قال تعالى : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾[(٣)] .

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الإنسان وقد يبتليه بالأحزان والهموم ، والمصائب والبلايا ، وكثير من أنواع الابتلاءات ، وينظر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ماذا يفعل عباده فيما حدث لهم من الابتلاءات والمصائب ، وهو أعلم بالصابرين الشاكرين الحامدين المنيبين لرب العالمين ، وهو أعلم أيضا بالساخطين ، والمتمرِّدين على رب العالمين ،

---

(١) الأنبياء (٨٧) .

(٢) تفسير السعدي لسورة الصافات (١٤٣) ص (٦٥٣) .

(٣) القلم (٢٨ : ٢٩) .

الذين يعبدون الله على حرف فإذا أصابتهم مصيبة [إما إختبار وبلاء من الله تعالى - أو بما كسبت أيديهم] انقلبوا على أعقابهم فخسروا الدنيا والآخرة .

- ويقرِّر الله تعالى في كتابه العزيز هذه المسألة - مسألة الابتلاء بالمصيبة وغيرها - في أكثر من موضع حتى يكون ذلك إنارة لطريق المتعبِّدين لرب العالمين ، ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيا من حيَّ عن بينة .

قال تعالى: ﴿ آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(١) .

وقال تعالى : مؤكداً حتمية الإبتلاء ، وتحقق المصائب ، وتنوُّع الرزايا ، واختلاف ألآلام والجروح ، وتعدد الأحزان والهموم ، ووجوب الصبر والاحتساب، والتفويض والإنابة ، وندب الرضا والتسليم ، والحمد والاسترجاع وقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾(٣).

---

(١) العنكبوت (١ : ٣) .

(٢) البقرة (١٥٦) .

(٣) البقرة (١٥٥ : ١٥٧) .

فأخبر سبحانـه وتعالى عن وقوع الابتلاءات ، وحلول المصائب ، وأرشد إلى الصبر ، وحثَّ على التفويض والاسترجاع ، لتتنزَّل الرحمات على العبد المُبْتَلَى ، وحتى يُؤْجَر في مصيبته ، ويكون من المهتدين ، وخير ما يعين العبد على الصبر هو الذِّكْر والتسبيح ، الذي هو تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كل نقص وعيب ، وعن الظلم والجور ، وعن العشوائية والعبث ، فيحنما يُسلِّم العبد [للعزيز الحكيم] في مُلْكه وأمره ونهيه، وقضائه وقدره ، ويعلم ويعتقد أن ما ألمَّ به من مصيبة بإذن الله ، ووفق إرادة ومشيئة وحكمة العزيز الحكيم المُنزَّه عن الظلم والعبث ، فسوف يعينه ذلك ويحمله على الصبر ، ويكون أكبر دافع له على تحمُّل المصائب ، والصبر على البلاء ، والصمود أمام الهموم والأحزان ، لأنه تعبَّد لرب الأرض والسماء ، معترفاً له بكل صفات الكمال والإجلال ، والعظمة والإكبار ومُنزِّهاً له عمَّا لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

فحريٌّ بكل عبد مؤمن متعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته أن يُسبِّحه في كل وقت ، وخاصة عند نزول البلاء ، وحلول المصائب ، لينال الأجر وتُخفَّف المصائب والأوجاع ، وليصبر أمام كل أنواع المصائب والابتلاءات ، فليس له إلاَّ رب الأرض والسماوات ، مالك الملك (العزيز الحكيم) .

مصيبة أصحاب الجنة :

قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ﴾(١).

يخبر الله تعالى أنه ابتلى قريش بالنعم الكثيرة والوفيرة من [مال - وبنين وصحة ، ومنفعة ...] كما ابتلى من قبل أصحاب الجنة - أي أصحاب البستان - وهؤلاء هم أبناء لرجل كان يواسي الفقراء من ثمرات هذا البستان وخاصة عند الحصاد ، وقطف الثمار ، فكان يجعل لهم نصيباً دائماً يواسيهم به ، ويُدْخل السرور والفرح على قلوبهم ، فبارك الله له في بستانه وأدام عليه الخير والبركة .

ولمّا تُوفّي هذا الرجل وورث أبناؤه هذا البستان لم يسيروا على سيرة أبيهم في معاملة الفقراء والمساكين والعطف عليهم وأعطائهم من ثمار هذا البستان، فتآمروا على هؤلاء الفقراء والمساكين وخطّطوا ودبّروا أن يجنوا ثمار بستانهم ليلاً ويحرموا الفقراء والمساكين ، فحرمهم الله - عزّ وجلّ - وأرسل على بستانهم آفة من السماء - وقيل أنها نارٌ - فأهلكت هذا البستان وأتلفت كل الثمار ، وتركته خرابة موحشة ، لتكون آية لكل من أراد أن يبخل بماله ، أو أراد أن يحرم الفقراء والمساكين ، فسوف تكون عاقبته هو الحرمان من فضل الله وعطائه .

---

(١) القلم (١٧ : ٢٠) .

قال الله تعالى ـ مصوراً لنا هذا المشهد العجيب في كتابه العزيز قائلاً :

﴿ فتنادوا مصبحين أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدو على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ﴾(١).

أصحاب الجنة يسبِّحون :

فوقعت بهم المصيبة ، وحلَّ بهم البلاء ، وعلاهم الغم والهم والحزن ، على ما حدث لهم من عصيانهم لربهم، ومن حرمانهم من ثمار ونتاج بستانهم وجنتهم، إنها لحظات محاسبة للنفس، ونظرة حزن وأسى، وشرود للذهن، وتشتيت للفكر، وفقد للتوازن، ـ ولكن سرعان ما انطلق صوت الحق من بينهم يُذكرِّهم بالله تعالى، ويُذكرِّهم بنصحه لهم بالتسبيح والاستثناء لقسمهم، وتنزيه الله العزيز الحكيم عن مشابهة خلقه أو مشاركة أحد له في مُلكه ومشيئته ، وأن الأمر كله بيدالله مهما ظن العبد أنه ملك أسباب القوة، وتمكَّن من بعض أعراض الدنيا ، فهو مربوب لله العزيز الحكيم الذي بيده ملكوت كل شيء ، وأن العبد بعد ملكه للأسباب ـ بمشيئة الله ـ فهو مازال وسيظل تحت عزَّة وحكمة وإرادة الله تعالى.

---

(١) القلم (٢١ : ٢٧) .

ففهم هؤلاء الأخوة حقيقة أنفسهم ، ورجعوا إلى تسبيح صاحب العزة والحكمة ، وأذعنوا لمن بيده الأمر كله ، ووعوا الدرس جيداً ، وتوجَّهوا مباشرة إلى التعبُّد للعزيز الحكيم الذي يتصرَّف في الكون وفق عزته وحكمته ـ بالتعبُّد له بعبادة التسبيح والتنزيه ، والتقديس ، وتبرئة الله عن الظلم والجور ، والعبث والعشوائية ، وعن السِّنة ، والنوم ، وعن كل صفات النقص والعيب ، وأثبتوا له كل صفات الكمال والجلال والتعظيم والإكرام ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى على لسان أعدلهم : ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إناكنا ظالمين** ﴾[1] .

فسرعان ما أفاق هؤلاء العصاة على تسبيح خالقهم ومولاهم ـ العزيز الحكيم ـ ليستعينوا بهذا التسبيح على الصبر وعلى ما أصابهم في جنتهم ، ثم على إخلاص التوبة إلى الله تعالى ، ثم طلب المغفرة ، ثم الطمع في الأجر والثواب والخُلْف لهم في مصيبتهم من صاحب العزة والقوة الذي لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العزيز الحكيم ، الذي يقول للشيء كن فيكون .

وهكذا ينبغي على كل مسلم نزلت بساحته مصيبة ، وأحلَّ به البلاء ، أن يلجأ إلى ربه ، ويُسبِّح مولاه ، ويُنزِّه خالقه ، ويُقدِّس إلاهه ، ويستعين بهذا التسبيح والذِّكْر على الصبر على المصيبة ، وعلى الفوز بالأجر والمثوبة ، وأن يأجره الله في مصيبته ويخلفه خيراً .

---

(١) القلم (٢٨ : ٢٩) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ وقال أوسطهم ﴾ أي : أعدلهم ، وأحسنهم طريقة .

﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ أي : تنزِّهون الله عما لا يليق به ، ومن ذلك ظنكم أن قدرتكم مستقلة ، فلو استثنيتم وقلتم « إن شاء الله » ، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته ، ما جرى لكم ما جرى .

﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أي : استدركوا بعد ذلك ، ولكن بعد ما وقع على جنتهم العذاب الذي لا يُرْفِع .

ـ ولكن لعل تسبيحهم هذا ، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم ، ينفعهم في تخفيف الإثم ، ويكون توبة ، ولهذا ندموا ندامة عظيمة .

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾[1] فيما أجروه وفعلوه .

﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾[2] أي متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده .

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾[3] ، فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها ، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله ويلحون عليه في الدنيا .

---

(١) القلم (٣٠) .
(٢) القلم (٣١) .
(٣) القلم (٣٢) .

فإن كانوا كما قالوا فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها لأن من دعا الله صادقاً ، ورغب إليه ورجاه أعطاه سؤله))[١] .

إن المتعبِّد للعزيز الحكيم ـ صاحب الحكمة التامة البالغة ، وصاحب العزّ الذي لا يُرَام يُسبِّح بحمد ربه آناء الليل وأطراف النهار مستعيناً بهذا التعبُّد ، وذلك التسبيح على مصائب الدنيا، ونوازل الدهر، مُسلِّما لصاحب الأمر ـ جلَّ في علاه ـ ومُنزِّهاً له عن الظلم والجور ، والعبث والعشوائية ، موقناً أن كل أمر يحدث في هذا الكون بإذن الله تعالى ، ولحكمة أرادها الحكيم ـ جلَّ في عليائه ـ ، وأن كل شيء يتم بقدرة وعزَّة العزيز الذي يقول للشيء كن فيكون .

فيدفع هذا المعتقد ، وذلك التعبُّد العَبْد إلى أن يتوجَّه بعبادته وتسبيحه إلى العزيز الحكيم الذي يملك الأمر كله ، والذي يملك كشف البلوى ، ودفع الضُّر واصلاح البال ، فبطلب العبد من ربه إعانته بقوته ، وَمَنَعَتْه بعزَّته ، واللطف به بحكمته ، وكشف الضرُّ عنه، ودفع الضر، وتفريج الهم ، والخروج من كل ضيق، وأن يجعل له من كل هَمٍّ فَرَجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، فالله عزيز حكيم ، لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، والكون كله قبضته يتصرَّف فيه بقوته وقدرته وعزَّته ، ووفق حكمته وحُكْمه وإحكامه فيستحق العبادة جلَّ في عليائه ، وأهل هو للتسبيح والتقديس من كل عباده ، ومن سائر خلقه ، فصَرْف العبادة ومنها التسبيح لله العزيز الحكيم وحده حق من حقوقه ـ سبحانه وتعالى ـ .

---

(١) تفسير السعدي لسورة القلم آية (١٨ : ٣٢) ص (٨١٥) .

فوصف الله تعالى حال نبيه محمد بن عبدالله - ﷺ - حينما ضاق صدره من قومه ومن أفعالهم وإعراضهم وتكذيبهم فقال تعالى في محكم التنزيل ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾[1].

فلقد علم الله - عزّ وجلّ - بعلمه ما وصل إليه ، رسوله - ﷺ - من ضيق في صدره مما يقوله هؤلاء الكفار من تكذيب وافتراء على الرسول - ﷺ - بأبشع الافتراءات ، وأفرى الفرى ، فأرشد الله عزّ وجلّ - صاحب العزّة والحكمة - رسوله - ﷺ - أن يستعين على هؤلاء الكفار وما يقولون بالتعبُّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح ، مستعيناً بها على ما يواجهه وما يلاقيه من هؤلاء الكفار المعاندين ، فالتسبيح هو المُسلِّي لهذا النبي المُكَذَّب والمُفتَرَى عليه والذي أُذي في سبيل الله تعالى ، - فهذا توجيه وإرشاد إلاهي من عالم السر وأخفى ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم لخير البشرية ، وسيد البرية ، أن يستعين على هذه الشدة ، وهذا الضيق بالتسبيح لصاحب العزة والحكمة ، ففيه التسلية ، والتصبُّر ، وفيه اطمئنان القلب ، وراحة النفس ، وتوسيع الصدر ، وصدق الله القائل في محكم آياته : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2] .

---

(١) الحجر (٩٧ : ٩٨) .

(٢) الرعد (٢٨) .

فكان هذا التوجيه الرباني لنبيه - ﷺ - ولأمته من بعده بالتسلُّح بالتسبيح للعزيز الحكيم أمام أي شدة ، وكل أنواع الضيق والتضييق . فقال تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ فسوف ينفعه هذا التعبُّد لصاحب العزة والحكمة وخاصة في هذا المقام، فالله هو العزيز الذي يقدر أن يُفرِّج هَمَّه ، ويُنفِّس كَرْبه ، ويُبدِّل حُزْنه فرحاً ، ووحشته أُنْساً، وآلامه سعادة، فهو العزيز صاحب القوة والقدرة، والقادر على ردِّ أعدائه ودَحْرهم وتشتيتهم وهزيمتهم ، وهو أيضاً الحكيم ذو الحكمة الذي إذا أراد بحكمته شيئاً أنفذه ، فلا رادَّ لأمره ، ولا مُغيِّر لقضائه وتقديره وحكمته وحُكْمه وإحكامه - جلَّ في عليائه - ولا معترض .

فلا عجب أن يكون مَهْرب وملجأ وملاذ العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا هو التعبُّد لصاحب العزة والحكمة بعبادة التسبيح والتقديس والتنزيه لله تعالى عن كل نقص وعيب وظلم ، وطلباً للتفريج والنصر والظفر والتأييد ممن يملك مقاليد السماوات والأرض صاحب العزة التامة الكاملة ، والحكمة المحكمة البالغة .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد - ﷺ - : ولقد نعلم يا محمد أنك يضيق صدرك بما يقول هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياك واستهزائهم بك ، وبما جئتهم به ، وأن ذلك يُحْرِجك .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾[١] يقول : فافزع فيما نابك من أمرٍ تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة ، يَكفيك الله من ذلك ما أَهمَّك ، وهذا نحو الخبر الذي روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة))[٢].

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وقوله : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾[٣]. أي وإنا لنعلم يا محمد ـ ﷺ ـ أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنك ذلك ، ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ولهذا قال : **﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾**[٤]))[٥] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((**﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾**[١] لك من التكذيب والاستهزاء فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب ، والتعجيل لهم بما يستخفونه ، ولكنَّ الله يمهلهم ولا يهملهم .

---

(١) الحجر (٩٨) .
(٢) تفسير الطبري لسورة الحجر آية (٩٧ : ٩٨) (٤ / ٤٩٦ : ٤٩٧) .
(٣) الحجر (٩٧ : ٩٨) .
(٤) الحجر (٩٨) .
(٥) تفسير ابن كثير لسورة الحجر آية (٩٧ : ٩٨) (٢ / ٥٤٢) .
(١) الحجر (٩٧) .

« ف » أنت يا محمد - ﷺ - .

﴿ سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾(١) : أي : أكْثِر من ذِكْر الله وتسبيحه ، والصلاة ، فإن ذلك يوسِّع الصدر ، ويشرحه ، ويعينك على أمورك))(٢).

الاستعانة بالتسبيح على الصبر :

قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾(٥) .

إن رسول الله - ﷺ - هو خير خلق الله أجمعين ، وهو خير مَنْ تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخير مَنْ ركع وسجد لربِّ البرية ، وخير مَنْ

---

(١) الحجر (٩٨) .
(٢) تفسير السعدي لسورة الحجر آية (٩٧ : ٩٨) ص (٣٨٨) .
(٣) طه (١٣٠) .
(٤) الطور (٤٨ : ٤٩).
(٥) ق (٣٩ : ٤٠) .

تذلَّل وخضع وانـقاد لأمر العـزيز الحكيم ، وخيـر مَنْ سبَّح وقدَّس العـزيز الحكيم ، واستعان بصاحب العِزِّ الذي لا يُرام ، وصاحب الحكـمة التامة البالغة المطلقة ـ جلَّ في عليائه ـ .

ولقد وجَّه العزيز الحكيـم ـ من فوق سبع سماوات ـ نبيه ورسـوله محمداً بن عبد الله ـ ﷺ ـ أن يتعبَّد إليه في أوقـات الشدة والضيق ، وعـند المصائب والنوازل بعبادة التـسبيح ، مستعـيناً بهذا التسبيح على التصبُّر على أقدار الله تعـالى ، وعلى المصائب والنوازل ، والابتلاءات والزلازل ، فلا يملك كَـشْف الغُمَّة ، ورفع الضُّر ، وإنزال الرحمـة ، والتأييـد والنصر ، وإهلاك العدو ، وشـفاء الصـدور إلاَّ العزيز ذو القوة المتين ، وذو الحكمة والحُكْم والإحكام .

ولذلك فقد أمر الله تعالى نبيه في كثـير من الآيات الكريمات في كتابه العزيز بالصبـر ، وأرشده على الاستعـانة على الصبر بالتسـبيح والتقـديس والتنزيه [للعزيز الحكيم] الذي يملك الأمر كله ـ سبحانه وتعالى ـ .

فيقول الله تعالى لنبـيه ـ ﷺ ـ آمراً له بـالصبر وبـالتسبـيح : ﴿ **فـاصبـر على مايقولون وسبح بحمد ربك** ﴾(١) .

ويقول : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك** ﴾(٢) .

---

(١) طه (١٣٠) .

(٢) الطور (٤٨) .

وهنا نلحظ مدى الترابط بين الأمر بالصبر وبين الأمر بالتسبيح لله رب العالمين، وذلك في إطار الترابط بين التسبيح والتعبُّد لله تعالى باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] .

فإن الشدائد والمحن ، والمصائب والابتلاءات ، والضنك والضيق ، لا يستطيع العبد أن يواجهه إلاَّ بالصبر فهو أقوى سلاح لمواجهة كل هذه الابتلاءات، ولا بد للمُتصبِّر أن يتسلَّح بالتسبيح ، ويُرطِّب لسانه بذكر الله تعالى مسبِّحاً ومقدِّساً ومُعظِّماً ليكون له سلوى ومعينا على التصبُّر ، ولا يؤدى هذا التسبيح دوره المرتقب والمنشود إلاَّ إذا اصطحب هذا الذِّكْر باللسان عقيدة بالجنان يتجلَّى فيهما سوياً تعبُّد العبد للعزيز الحكيم ، واستحضاره لعزة الله وحكمته ، واعتقاده ويقينه بأن ما ألمَّ به ، وما نزل بساحته بقدرة الله وقَدَرِه وعزَّته وحكمته ، فيرضى العبد عن صاحب العزَّة والحكمة بل ويَذْكره ويسبِّحه ويقدِّسه ويُعظِّمه ، ويصبر على ابتلاء الله واختباره .

ويحمله تعبُّده للعزيز الحكيم أيضا، ومعرفته لمدى عزَّة الله وقدرته وحكمته وإحكامه أن يوقن بأن صاحب العزة والحكمة قادر على إزالة ما به من بَلْوى ، وكشف ما به من غُمَّة ، وإهلاك عدوه ، فيطمع في فرج الله ، ونصره وتأييده، فإن العزيز لا يُغْلب ، والحكيم لا يُقْهر ، وصاحب العزَّة والحكمة لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فيدفعه ذلك كله للصبر ، مستعيناً بالتسبيح والتقديس والتعظيم للعزيز الحكيم ، متعبِّداً له بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين .

فيظفر العبد المؤمن بالصبر ، ويحظى بالتسبيح ، ويفوز بالتعبُّد لله العزيز الحكيم ، فيتنزَّل نصر وتأييد العزيز ، وفرج ورحمات الحكيم ، على كل المتعبِّدين بالتسبيح للعزيز الحكيم ، الصابرين لأمر وقضاء صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

في قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك ﴾[1].

((وقوله ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يقول جلَّ ثناؤه لنبيه : فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من قومك لك إنك ساحر ، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول .

﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ يقول : وصلِّ بثنائك على ربك))[2] .

وقال - رحمه الله - أيضاً :

في قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾[3].

((يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد - ﷺ - :

---

(١) طه (١٣٠) .

(٢) تفسير الطبري لسورة طه آية (١٣٠) (٥ / ٢٣٣) .

(٣) الطور (٤٨) .

﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه ، وبلِّغ رسالاته .

﴿ فإنك بأعيننا ﴾ : يقول جلَّ ثناؤه : فإنك بمرأى منَّا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك مَنْ أرادك بسوء من المشركين.

وقوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : إذا قمت من نومك فقل : سبحان الله وبحمده ، وهو قول ابن زيد وأبي الأحوص .

وقال بعضهم : بل معنى ذلك : إذا قمت إلى الصلاة المفروضة فقل : سبحانك اللهم وبحمدك ، وهو قول الضحاك))[(١)] .

وقال الحافظ بن كثير ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾[(٢)].

((﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يعني المكذبين ، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ...

وقوله : ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ ، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو التسبيح بعد الصلاة .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الطور آية (٤٨) (٧ / ١٣٩) .

(٢) ق (٣٩ : ٤٠) .

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا يا رسول الله : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « وما ذاك ؟ » .

قالوا : يصلُّون كما نصلِّي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أفلا أعلِّمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلاَّ من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبِّحون وتحمدون وتكبرِّون دُبرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين** » .

قال : فقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال رسولالله ـ ﷺ : « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**))[1] .. [2] .

ـ وقال ـ رحمه الله ـ أيضاً :

عند قوله تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾[3] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الأذان) باب (الذِّكر بعد الصلاة) .
ورواه مسلم كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) باب (استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة ق آية (٣٩ : ٤٠) (٤ / ٢٢١ : ٢٢٢) ، وذلك باختصار بسيط .

(٣) الطور (٤٨) .

((﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تباليهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس .

وقوله : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾

- قال الضحاك - رحمه الله - :

أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير - رحمه الله - . فعن عبادة بن الصامت عن رسول الله - ﷺ - قال : « مَنْ تعارَّ مِنَ الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، والحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلاَّ الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله . ثم قال : اللهم اغفر لي - دعا - استجيب له ، فإن توضأ ثم صلَّى قبلت صلاته »[1] .

- وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد :

« سبح بحمد ربك حين تقوم » : قال من كل مجلس .

- وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال :

إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك »[2] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (التهجد) باب (فضل من تعار من الليل فصلَّى) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الطور آية (٤٨) (٤ / ٢٣٦ : ٢٣٧) وذلك باختصار شديد .

ـ وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(١) .

« ولهذا أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ بالصبر على أذيتهم بالقول ، وأمره أن يتعوَّض عن ذلك ، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وفي أطراف النهار أوله وآخره ، عموم بعد خصوص ، وأوقات الليل وساعاته . ولعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل وليطمئن قلبك ، وتقرّ عينك بعبادة ربك ، وتتسلَّى بها عن أذيتهم ، فيخفُّ حينئذ عليك الصبر »(٢) .

الرضا عاقبة الصبر والتسبيح :

قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(٣) .

---

(١) طه (١٣٠) .

٢) تفسير السعدي لسورة طه آية (١٣٠) (ص (٤٦٥) .

(٣) طه (١٣٠) .

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحبُّ أن يتعبَّده عباده بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحققوا توحيدهم لله ـ جلَّ في عليائه ـ ويحققوا ، الغاية التي مِنْ أجلها خلقهم الله تعالى القائل ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾(١).

ومن أعظم توحيد الله تعالى توحيده بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والتعبُّد له بهذه الأسماء وتلكم الصفات ، والتي منها اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وهاتين الصفتين الحميدتين [العزة والحكمة] ، والتي من مظاهر التعبُّد بهما تسبيح العزيز الحكيم وتنزيهه وتقديسه ، والاستعانة بهذا التسبيح على الصبر على أقدار الله تعالى من المصائب والابتلاءات .

فمن حقق هذا التعبُّد ، ومن سبَّح للعزيز الحكيم وصبر على أقداره ، ورضي بقضائه، و اتبع أوامره ، وأخلص له التوحيد، وتبرأ من الشرك ، فإن الله عزَّ وجلَّ يكافئ هذا العبد بأن [يرضى عنه] وهذه من أكبر النِّعم التي يمنُّ الله بها على عبده جزاء توحيده ، وإخلاص عبادته لخالقه وحده سبحانه وتعالى ـ ولذلك بشَّر الله بها نبيه ـ ﷺ ـ جزاء صبره وتسبيحه بأن العاقبة [الرضا] ، بأن يرضيه الله عزَّ وجلَّ في الآخرة بالأجر والثواب ، والنعيم الدائم ، وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فقال تعالى : ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(٢).

---

(١) الذاريات (٥٦) .

(٢) طه (١٣٠) .

فهـذا جزاء وعاقـبة مَنْ أخلص لله توحـيده ، وتعبَّـد [للعـزيز الحكيم] حق التعبُّد ، ومـا زال لسانه رطباً بالذكر والتسبيح والتـقديس والتنزيه والتعظيم ، وداوم على الصبر والاحتساب ، والطمع فيما عند رب الأرض والسماوات .

فهـذا ترغيب لـكل العبـاد أن يتعـبَّدوا لله الكبـير المتـعال بأسـمائه الحسنى ، وصفـاته العليا ، وأن يُرطِّبوا ألسنتـهم بالذِّكر والدعاء ، وأن يتـحلَّو بالصبر والثـبات على أمـر الله وقـضـائه ، راضين عن الله في أقـداره ، محـبين لعبـادة الله ، مـسلمين لحكمة الحكيم ، وموقنين بعزة العزيز ، ووفق حكـمة وإرادة ومشيئة وحكـم وإحكام الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ ، فـإذا كان ذلك من العبـد فليستبـشر برضى رب الأرض والسمـاوات ، وبالنعيم الدائم والجنات ، وبالحـور الحسناوات ، في جنات عرضـها كعرض الأرض والسماوات ، فَنعم عاقبة الصبر والتسبيح .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **لعلك ترضى** ﴾[1] كما قال تعالى: ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[2].

وفي الصحيح « يقول » الله تعالى : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك .

فيقول : هل رضيتم ؟

فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا مالم تُعْطِ أحداً من خلقك .

(١) طه (١٣٠) .

(٢) الضحى (٥) .

فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك .

فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً))[١] .

وفي **الحديث الآخر**: «يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟! ألم يبيِّض وجوهنا ، ويُثِّقل موازيننا ، ويزحزحنا عن النار ، ويدخلنا الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهي الزيادة »[٢] ، [٣].

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى : ﴿ **لعلك تَرْضى** ﴾[٤] . بفتح التاء ، أي لعلك تُثَاب على هذه الأعمال بما ترضى به .

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم « تُرْضى » بضم التاء ، أي لعلك تُعْطى ما يرضيك))[٥] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (صفة الجنة) ، ورواه مسلم كتاب (الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها) باب (إحلال الرضوان على أهل الجنة) .

(٢) رواه الترمذي كتاب (تفسير القرآن) تفسير سورة يونس .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة طه آية (١٣٠) (٣ / ١٦٣) .

(٤) طه (١٣٠) .

(٥) تفسير القرطبي لسورة طه آية (١٣٠) المجلد السادس (جـ ١١ / ١٧٣) .

[المبحث الثالث]

[كيفيــة التعبُّد للعزيز الحكيم عند المِحَن والشدائد]

إن التسبيح لله تعالى صاحب العزّة والحكمـة عند المحن والشدائد وفي خضم الإبتـلاءات ، وفي وسط البـلايا ، من أعظم وأرفع منازل التـعبُّـد لله تعالى صاحب العزّة والحكمة ، فـفيه تنزيه لله تعالى عن كل صـفات النقص ، فالعبـد الذي يسبّح خالقـه عند المصيبـة والابتلاء فإنه في حـقيقة الأمـر ينزّه هذا الإله عن الظلم ، وعن العبث ، وعن العشـوائية ، فإنه يعلم أن ما نزل به من العزيز القـوي ما كان عن ظلم وجـور ، ولا عن عـبث ولعـب ـ حـاشـا للعـزيز الحكيم ـ ولكـن مـا هو إلا حكمـة الحكيم صاحب الحكم والإحكام ـ جلّ في علاه ـ .

وهذا التعبُّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح عند المحن والشدائد ، وعند الضنك والضيق ، وحينما يشتد الكرب ، له صور عدة نذكر منها ما يلي :

١ ـ التسبيح عند نزول المصيبة :

إن من التعبُّد لله العزيز الحكيم بعبادة التسـبيح ، أن يُسبِّح العبد إلاهه ومولاه عند نزول المصيـبة ، وذلك فيـه اعتراف من العـبد بتنزيه الخـالق عن الظلم والجور ، واللعب والعبث ، وأن ما نزل به بسبب معصـيته وذنوبه ، وأنه يستحق هذا البلاء ، وأن الله أنزل به هذه المصيبة وهذا البلاء بحكمته ، ولحكمة أرادها ـ جلّ في علاه ـ وذلك كمـا حدث لأصحاب الجنة حـينما نزل بهم البلاء ، وحلّت بهم المصـيبة ،

سبّحوا الله تعالى ، وعلموا أن ما نزل بهم كان بسبب معصيتهم ، ومن جراء ذنوبهم .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا من ظالمين ﴾[1] .

٢ ـ الاستعانة بالتسبيح على مصائب الدنيا ونوازل الدّهر :

إن من صور التعبّد لله ـ تعالى ـ بعباده التسبيح أن يسبِّح العبد ربه وينزّهه عن كل نقص وعيب ، ليكون ذلك التسبيح من أسباب عون العبد على التغلّب على ما أصيب به ، وعلى ما ألمَّ به من مصائب الدنيا ، ومن الابتلاءات والمحن ، فيخفّف هذا التسبيح عنه مابه ، ويقويه على تحمُّل هذه المصائب ، ومواجهة الشدائد ، والصمود أمام كل العواصف ـ بمشيئة الله تعالى وعونه ـ . ومصائب الدنيا كثيرة ومتنوعة، ففد يصاب العبد في : [ماله ـ ولده ـ زوجه ـ صحته وبدنه ـ دعوته...] .

وذلك كما حدث لنبينا الكريم محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ حينما أُذِيَ في بدنه، وشخصه ، وعِرْضِه ، ودعوته ، فأرشده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يستعين بالتسبيح على هذا البلاء مما يقوله ويفتريه هولاء الكفار والمنافقون . فقال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾[2] .

---

(١) القلم (٢٨ : ٢٩) .

(٢) الحجر (٩٧ : ٩٨) .

٣ ـ التسبيح طلباً للنجاة :

إن من التعبُّد لله تعالى بعبادة التسبيح ، ضمن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، أن يسبِّح العبد المتعبِّد لربه ومولاه العزيز الحكيم طلباً للنجاة مما وقع فيه ، ومما نزل بساحته ، طامعاً في كرم مولاه ، واثقاً في قدرة وعزة إلاهه وخالقه، راجياً أن تتداركه حكمة صاحب الحكمة فينجيه بحُكْمه وإحكامه، ويفرِّج عنه ما هو فيه من الضنك والضيق ، لاعتقاد هذا العبد المؤمن أنه لن ينجيه مما هو فيه ، ولن ينال النجاة إلاَّ من قِبَل العزيز الحكيم ، الذي يُصرِّف جميع أمور الخلق وفق عزة وحكمة يُسيِّر بها أمور عباده ـ جلَّ في علاه ـ .

فهذا العبد حينما يسبِّح خالقه ومولاه عند الكرب والضيق ، فهو في حقيقة الأمر ينزِّه هذا الخالق ، وهذا الإله عن النقص والعجز والضعف وينسب إليه القوة والعزة والحكمة ، وأنه سبحانه وتعالى ـ إذا أراد بعزته وقوته أن يرفع عن هذا العبد ما هو فيه من الشدة والبلاء لفعل ، فإنه سبحانه وتعالى صاحب القوة والقدرة التي ينفذ بهما ما شاء من أقداره ، ولا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، وهذا قمة التعبُّد من العبد لخالقه ومولاه ، وهذه أعظم مراتب الاعتقاد من العبد في ربه وخالقه وإلاهه .

ونرى ذلك واضحاً في قصة نبي الله يونس ـ ﷺ ـ حينما وقع في الكرب العظيم وأصبح في ظلمات ثلاث [ظلمة الليل ـ ظلمة البحر ـ ظلمة بطن الحوت]

فتعبَّد لله العزيز الحكيم بعبادة [التوحيد ، والتسبيح ، والاعتراف بالذنب] طالباً من الله تعالى النجاة ، وتفريج الهَمِّ ، وتنفيس الكرب ، فقال قولته العظيمة التي أثبتها له القرآن الكريم حيث قال : ﴿ **لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾(١) . فجاء الفرج ، واستُجيب لدعائه بعد هذا التعبُّد والتذلُّل بين يدي خالقه ومولاه ، قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم** ﴾(٢) .

وأخبر سبحانه وتعالى أن هذا ليس خاص بيونس - ﷺ - بل هو عام في كل مؤمن تعبَّد لخالقه ومولاه وطلب منه النجاة بالتوحيد والتسبيح . قال تعالى : ﴿ **وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾(٣) .

وبيَّن سبحانه وتعالى في موضع آخر أن تعبُّد نبيه يونس - ﷺ - له بالتسبيح كان سبباً في نجاته من هذا الغم ، وإلاَّ للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون ، كما قال تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾(٤) .

٤ ـ الاستعانة على الصبر بالتسبيح :

إن من التعبُّد لله تعالى بالتسبيح في مسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن يستعين العبد المؤمن بالتسبيح ـ بعد الله تعالى ـ على الصبر ،

---

(١) الأنبياء (٨٧) .
(٢) الأنبياء (٨٨) .
(٣) الأنبياء (٨٨) .
(٤) الصافات (١٤٣ : ١٤٤) .

والتصبُّر على أقدار الله ، والمصائب ، والبلايا ، فإن العبد المؤمن يكاد لا يصفو له العيش فهو كثيراً ما يتعرَّض للبلاء والمحن ، وكثيراً ما تمر عليه الشدائد ، ويحتاج إلى الصبر ، ويحمل نفسه على التصبُّر على هذه الأقدار، وتلك الابتلاءات ، وخير ما يجده معينا على هذاالصبر۔ بعد الله تعالى ۔ التسبيح لله تعالى ، فإن هذا التسبيح يثبِّت عقيدته في قلبه مُذكِّراً إياه أن إلاهه الذي تعبَّد له هو الذي قدَّر عليه ما هو فيه، وأن هذا الإله مُنزَّه عن الظلم ، فما وقع له ليس بظلم ، ولكنه لحكمة يعلمها الحكيم ، وكذلك فإن هذا الإله منزَّه عن العجز والضعف ، وهو قادر بعزته وقدرته على رفع هذا البلاء ، وكشف الغُمَّة ، وتفريج الكُرْبة ، فيدعوه ذلك كله للصبر على أقدار الله تعالى : [تعبُّدا لله تعالى ۔ وطلباً للأجر ، وطمعاً في الفرج] . ونرى في كتاب ربنا العظيم ، القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي يوجِّه فيها رب العزة ۔ جلَّ في عليائه ۔ نبيه محمداً ۔ ﷺ ۔ إلى الصبر ويحثه على الاستعانة علي ذلك بالتسبيح للعزيز الحكيم .. قال تعالى : ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبِّحه وإدبار النجوم** ﴾(٢).

---

(١) ق (٣٩ : ٤٠) .

(٢) الطور (٤٨ : ٤٩) .

٥ - طلب رضا الله - تعالى - بالتسبيح :

إن من صور التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، بعبادة التسبيح أن يطلب بها العبد رضا ربه - جلَّ في علاه - فهو يتعبَّد له بهذا التسبيح ، ويتقرَّب إليه بهذا التنزيه ، فهو حينما ينزِّه ربه وخالقه عن كل نقص وعيب ، وعن اللعب والعبث هو في الحقيقة يعلن عن مدى عبوديته لهذا الإله ، وعن كمال وعظمة هذا الخالق ، وعن استحقاق هذا الإله للعبادة من خلقه أجمعين ، فإن هذا الإله له صفات الكمال والعظمة والإجلال والإكبار ، ومنزَّه عن صفات الخلق من النقص والعيب ، واللعب والعبث ، والعشوائية ، والجور والظلم .

وفي ذلك اعتراف من العبد بعبوديته لله تعالى ، وتذلُّله له ، وإذعانه وتسليمه لهذاالإله العظيم ، واعتراف بأنه هو الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

يطلب هذا العبد بتلك العبادة ، وهذا التسبيح رضا رب العالمين الذي يرضى عن عباده المؤمنين الموحِّدين لرب السماوات والأراضين . قال تعالى : ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾[1] .

---

(١) طه (١٣٠) .

الفصل السابع

[التسبيح للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك]

مدخـــل :

المبـحث الأول : [تسبـيح العزيـز الحكيم بتنزيـهـه عن الشريك]

المبـحث الثاني : [تسـبـيح العـزيز الحكيم بتنـزيهـه عن الولد والصاحبة]

المبـحث الثالث : [تسـبـيح العـزيز الحكيم وتنـزيهـه عمَّا يصفه المشركون]

المبـحث الرابع : [كـيفـيـة التـعـبُّد للعزيـز الحكيم والتبرؤ من الشرك] .

[التسبيح للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك]

مدخل :

قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون .... للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو سبحانه عما يشركون ﴾(٣) .

إن التسبيح عبادة يجب أن تُصْرف [للعزيز الحكيم] وحده ، فلا يُسبَّح بحمده إلاَّ العزيز ، ولا يقدَّس ولا يُعظَّم إلاَّ الحكيم ، ولا يُتَعبَّد بأسمائه وصفاته إلاَّ صاحب العزة الكاملة التامة ، وصاحب الحكمة البالغة المطلقة .

فيتوجه العبد المتعبِّد بالتسبيح لله - جلّ في علاه - المُتَّصف بالعزَّة والحكمة فينزِّهه عن كل نقص ، وعيب ، وقصور ، وكل ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، وكل ما يتنافى مع كمال عزته ، وتمام حكمته ، وأعظم ما ينافى هذا التسبيح ، ويناقض هذه العزَّة ، وتلك الحكمة ، أن يُدْعى مع الله إلاها آخر ، ويُتَّخذ معه شريك في العبادة ، ويُنسب له ما لا يليق به من الولد ، والصاحبة ، وغير ذلك مما يُنَزَّه عنه صاحب العزة والحكمة

---

(١) النحل (٥٧ : ٦٠) .

(٢) الطور (٤٣) .

(٣) التوبة (٣١) .

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(١) .

﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾(٢).

﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾(٣) .

فإن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، يتوجَّه لصاحب العزة والحكمة بهذا التسبيح ، وهذا التنزيه ، وهذا التقديس والتعظيم ، نافياً عن الله تعالى كل ما لا يليق به ، ومثبتاً له كل صفات الكمال والإجلال ، والتعظيم والإكبار ، نافياً أن يكون معه شريك في الملك أو العبادة ، ومنزِّهاً له أن يكون له صاحبة ، أو أن يتخذ ولداً ، أو يكون بينه وبين خلقه نسباً ، فصاحب العزَّة ـ جلَّ في علاه ـ تقتضي عزته التامة ألاَّ يحتاج لمعونة الولد ، ولا لمصاحبة الزوجة ، وتقتضي حكمته البالغة ألاَّ يكون معه شريك في ملكه ، ولا منازع في سلطانه ، ولا ندٌّ في ملكوته .

قال تعالى: ﴿ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٤) .

فالعلاقة واضحة ، والترابط ظاهر ، والتلازم بيِّن ، بين التسبيح الذي هو تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل نقص وعيب وقصور [والذي منه اتخاذ الشريك والولد ،

---

(١) الروم (٤٠) .
(٢) الأنعام (١٠٠) .
(٣) الإسراء (٤٣)
(٤) الجاثية (٣٧) .

والصاحبة ، والنسب ...] وبين التعبُّد لله [العزيز الحكيم] صاحب العزَّة الكاملة التامـة ، والحكمـة المطلقـة البالغـة ، التي تـتنافى مع اتخـاذ ـ الشـريك والولد ، والصاحبة ، والنسب بين خلقـه ـ فإن [العزيز] لا يحتـاج إلى غيره ، ولا يعتـمد على مخلوق ، ولا يُعْجـزه شيء في الأرض ولا في السماء ، [والحكيم] لا يفتقر إلى من يُدبِّر لـه الأمـر ، ولا إلى من يعينه على تصـريـف أمـور الخلق ، ولا إلى من يُنَظِّم له الكون ، فهو الغنى بعزته وحكمته عن جميع خلقه .

فهو القائل جلَّ في عليائه : ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾(١) .

ومن هنا كان التسبيح للعـزيز الحكيم ـ جلَّ شأنه ـ من أعظم العـبادات التي يتوجَّه بها المتعبِّد لله تعالى بأسـمائه الحسنى ، وصـفاته العليا ،منزِّهاً لصـاحب العزة والحكمة عن كل نقص وعيب وقصور ،ومنها وفي مـقدماتها [الشرك بكل أنواعه ودروبه] .

قال تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو سبحانه عما يشركون ﴾(٢) .

ونعرض هنا بمشـيئة الله لبعض صـور تنزيه الله تعـالى [العـزيـز الحكيم] عن الشريك عن طريق عبادة التسبيح :

---

(١) التغابن (١٨) .

(٢) التوبة (٣١) .

[المبحث الأول]

[تسبيح العزيز الحكيم بتنزيهه عن الشريك]

- قال تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾[(١)] .

- وقال تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو سبحانه عما يشركون ﴾[(٢)] .

- وقال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لبتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾[(٣)].

وجوب تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك :

إن العبد المسلم لا يتم له إسلامه وتوحيده حتى ينزِّه إلاهه وخالقه عن الندِّ والكفؤ والشريك ، فإن الإله الخالق المعبود الذي يُصْرف له كل العبادات ، ويُرْكَع له ويُسْجَد ، ويُطاع في أمره ونهيه ، لا بد أن يكون إلاهاً واحداً ، ومعبوداً واحداً لا يُشْرك معه غيره ، ولا يُصْرف لسواه أي نوع من أنواع **العبادات الظاهرة** [كالصلاة ، والركوع ، والسجود ، والدعاء ، الذبح ، والنذر ....] .

والباطنة [كالخوف ، والخشية ، والرهبة ، والإنابة والتوكل ، ...] .

فكما أنه المتفرِّد بالخلق ، والإحياء ، والإماتة ، والبعث ، والرزق ، ... فأيضا يجب أن يُفْرد بالعبادة بجميع أنواعها وصورها ، فإن الذي خلق وأَوْجد هو الأحق

---

(١) الطور (٤٣) .

(٢) التوبة (٣١) .

(٣) الإسراء (٣٢ : ٤٣) .

بالعبادة والأمـر والنهي كما أخبر بذلك جلَّ في عـلاه حيث قال : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[١] .

نعم هو رب العالمين جميعاً ، فوجب عليهم جميعاً عبادته ، والتوجُّه إليه وحده بالعبادة ، والبراءة من كل معبود ، فلا يُشْرك معه أحد في عبادته ، ولذلك أمر سبحانه وتعالى عباده بعد هذه الآية مباشرة بالتوجُّه له بالعبادة الممثَّلة في الدعاء الذي هو نوع من أنواعها فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾[٢] .

فإن تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن الشريك من أعلى مقاصد الشريعة ، وهو أعظم ما دعى إليه الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٣] .

فكانت مهمة كل الرسل وأعظم ما دعوا إليه هو توحيد الله وعبادته وحده ، واجتناب الشرك ، ونبذ كل طاغوت ـ أي كل معبود من دون الله تعالى ـ .

ـ ولقد أثبت الله تعالى النجاة ، والفلاح ، والاستمساك بالعروة الوثقى لمن ابتعدعن الشرك ونزَّه الله تعالى عن الشريك بأن يكفر بالطاغوت ، وهو كل ما عُبِدَ

(١) الأعراف (٥٤) .
(٢) الأعراف (٥٥) .
(٣) النحل (٣٦) .

من دون الله تعالى ـ والإيمان بالله وحده وصرف جميع العبادات له وحده ـ جلّ في عليائه ـ فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ **ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾[1] .

ـ وإن العبد المتعبِّد لله [العزيز الحكيم] بعبادة التسبيح ، المنزِّه لله تعالى صاحب العزة والحكمة عن كل نقص وعيب وقصور ، يجب عليه أوَّل ما ينزِّه صاحب الحكمة والعزة ، يُنَزِّهه عن الشريك ، فيثبْت له الوحدانية في ربوبيته ، وفي ألوهيته ، وفي أسمائه وصفاته ، وينزِّهه عن الشريك ، فلا يُشْرك معه في عبادته أحداً .

ـ فمن كان متعبِّداً [للعزيز الحكيم] الذي يأبى بعزته أن يكون معه شريك في الملك ، ويرفض بحكمته أن يُعْبد معه غيره ، يجب على هذا العبد إذا كان متعبداً لله عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، حق التعبُّد ، وخاصة باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] أن يسبِّح العزيز الحكيم بتنزيهه عن الشريك ، فلا يُشْرك معه أحداً في عبادته ، ولا يتوجَّه إلى غير الله تعالى بأي نوع من أنواع العبادة .

ـ فإذا آمن وأيقن هذا المتعبِّد بمدى عزة وقدرة العزيز الحكيم ، ومدى قدرته على الخلق ،وأن كل شيء في الكون يجرى وفق عزة وقدرة وإرادة العزيز ،

---

(١) البقرة (٢٥٦) .

وحكمة وحُكْم وإحكام الحكيم ، فسوف يتعلَّق قلبه بالله تعالى ، فلن يطلب العزة والقوة والمنعة ، إلاَّ من العزيز ، ولن يطلب النصر والتأييد والغلبة والسعادة والتوفيق في الدنيا والآخرة إلا من الحكيم الذي يُعز ويُذل ، ويُعطي ويمنع ، ويُنعِّم ويُعذِّب ، ويؤيد ويَخْذُل ، ويرفع ويخفض ، من شاء من عباده وفق حكمته وإرادته ومشيئته. فيجعل ذلك كله قلب العبد متعلِّقاً بالعزيز الحكيم ، ويجعله يكفر بكل إله ومعبود من دون الله تعالى ، فكل إله مزعوم ، وكل إله يُدْعى من دون الله فهو باطل وضلال ، ويكفر به كل مؤمن وكل موحِّد ، وكل مُتعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

ـ ولذلك نجد كثيراً من آيات القرآن الكريم التي تناولت قضية الشرك والتبرؤ من الشرك والمشركين أنكرت على المشركين شركهم ، وذلك عن طريق [التسبيح] الذي هو التنزيه للعزيز الحكيم عن النقص والعيب الذي يتناسب مع التبرؤ من الشرك ، فيقترن [التسبيح بالتبرؤ من الشرك] في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾[1] .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول جلَّ ثناؤه : أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله ، فيجوز لهم عبادته ، يقول : ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه .

(١) الطور (٤٣) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله :

((إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا . وقال السدى ـ رحمه الله ـ استنصحوا[١] الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلاهاً واحداً ﴾ أي الذي إذا حرَّم الشيء فهو حرام ، وما حلَّله فهو الحلال ، وما شَرَعَهُ اتُّبِع ، وما حَكَمَ به نُفِّذ .

﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أي تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن الشركاء ، والنُّظراء ، والأولاد لا إله إلاّ هو ، ولا رب سواه))[٢] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

﴿ وما أُمروا إلاّ ليعبدوا إلاهاً واحداً لا إله إلاّهو ﴾ :

فيخلصون له العبادة والطاعة ويخصُّونه بالمحبة والدعاء ، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم يُنزِّل به سلطاناً .

﴿ سبحانه ﴾ وتعالى ﴿ عما يشركون ﴾ .

أي : تنزَّه وتقدَّس ، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم ، فإنهم ينقصونه في ذلك ، ويصِفُونه بمالا يليق بجلاله ، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نُسب إليه ، مما ينافى كماله المقدَّس))[٣] .

---

(١) استنصحوا الرجال : أي طلبوا منهم النصح وحكَّموهم في أمورهم ، وأخذوا التشريع من رؤوسهم ، وحللوا لهم وحرَّموا تبعاً لأهوائهم وأمزجتهم وتركوا شرع الله تعالى وحكمه فجعلوهم بذلك آلهة من دون الله .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة التوبة آية (٣١) (٢ / ٣٣٦) .

(٣) تفسير السعدي لسورة التوبة آية (٣١) ص (٢٩٥) .

[من أسباب وقوع الشرك]

قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفا إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[١].

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الجن والإنس ليعبدوه ، ويوحِّدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، فإن الله يحبُّ أن يوحِّده خلقه ، ولا يرضى منهم الشرك ، بل يبغضه ويمقته ، وأكدَّ على ذلك رب العزَّة في محكم التنزيل قائلاً ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾[٢] .

أي ليوحِّدوه في ملكه وسلطانه ، ولا يشركوا به شيئاً ، مهما كان الشريك ، ولو كان نبياً مرسلاً، أو ملكاً مُقرَّباً ، فالكل لله عبيد وهو الواحد الأحد لا إله غيره، ولا معبود سواه ، المنزَّه عن الشريك ، وعن النّدِّ والمثيل والشبيه ، المترفِّع عن كل عيب ونقص وسوء ، المُتَّصف بكل صفات العظمة والجلال والإكبار ، عَظُمَتْ وكمُلتْ صفاته ، وتسامَتْ وتقدَّستْ أسماؤه .

---

(١) الزمر (٣ : ٤) .

(٢) الذاريات (٥٦) .

ـ ولكن الشياطين اجتالت كثيراً من الجن والإنس وأوقعتهم في الشرك ، وأخرجتهم عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، وهي فطرة التوحيد ، وإخلاص العبادة لله تعالى ، وإسلام الروح والبدن لخالقهما .

ـ قال تعالى : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾[1] .

ـ وقال الرسول ـ ﷺ ـ : « **كل مولود يولد على الفطرة[2] ، فأبواه يهودانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه** »[3] .

وتُلبِّس الشياطين على العباد هذا الشرك ، وهذا الطمس للفطرة ، وتلك الإنتكاسة العقدية ، عن طريق بعض الشُّبه ، وبعض المبررات الواهية ، والحجج الداحضة ، والتلبسات الشيطانية ، فوقع كثير من الناس في تلك الحبال ، وسقطوا في تلك الهوَّات ، وتخبَّطوا في كثير من الشُّبهات ، وقاسوا الخالق على المخلوق ، وشبَّهوا الإله المتفرِّد بصفات الكمال والعظمة والإجلال بالمخلوق المُتَّصف بالنقص والعجز والقصور .

ـ وظنوا ظلماً وبهتاناً وشركاً وعدواناً أن الإله الخالق مثل أمراء وملوك الدنيا يحتاج للوساطة بينه وبين خَلْقه ، ويفتقر للعون والمساعدة فيتخذ الشريك والولد ،

---

(١) الروم (٣٠) .

(٢) المقصود بالفطرة هنا الإسلام . (وهو عبادة الله وحده وعدم الإشراك به) .

(٣) رواه البخاري كتاب (الجنائز) باب (ما قيل في أولاد المشركين) ، ورواه مسلم كتاب (القدر) باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة) .

ويحتاج للأُنْس والمرافقة فيتخذ الصاحبة التي هي الزوجة ، ولا يحيط علمه بكل شيء فيحتاج للعيون والمساعدين ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فهو الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، ولا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماوات وهو العزيز الحكيم. فيجب على العبد أن يسبِّح ربه وخالقه ، فينزِّه صاحب العزَّة والحكمة عمَّا يقول ويعتقد هؤلاء المشركون ، ويتبرأ إلى الله من شرك المشركين ، وجهل الجاهلين ، ويُثْبِت ويصف خالقه بكل صفات الكمال والعظمة والإجلال ، ويُخْلص له العبادة وحده من دون خلقه - جلَّ في عليائه - ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

قال الحافظ بن كثير - رحمه الله - :

قال قتادة في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[2] .

شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، ثم أخبر - عزَّ وجلَّ - عن عُبَّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون ﴿ **ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[3] .

---

(١) التوبة (٣١) .
(٢) الزمر (٣) .
(٣) الزمر (٣) .

أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عَمَدُوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقرَّبين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

قال قتادة والسدّى ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد :

﴿ إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجُّوا في جاهليتهم (لبيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك) ، وهذه الشُّبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردِّها والنهى عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء أخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولم يَرْض به ، بل حرَّمه ونهى عنه **﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾**[1] . **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾**[2] . وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلاَّ بإذنه لمن ارتضى

---

(١) النحل (٣٦) .
(٢) الأنبياء (٣٥) .

وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾(١) ، «تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »(٢) .

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله :

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾(٣).

هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضُّل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص ،الصافي من جميع الشوائب فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به ، لأنه متضمِّن للتأله لله في حبه ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، في تحصيل مطالب عباده .

وذلك الذي يصلح القلوب ويُزكِّيها ويُطهِّرها ، دون الشرك به في شيء من العبادة فإن الله بريئ منه، وليس لله فيه شيء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، وهو مُفْسد للقلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة ، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء . فلذلك لمَّا أمر بالتوحيد والإخلاص ، نهى عن الشرك به وأخبر بذم من أشرك به فقال :

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾(٤) .

---

(١) النحل (٧٤) .
(٢) تفسير ابن كثير لسورة الزمر آية (٣) (٤ / ٤٤ : ٤٥) .
(٣) الزمر (٣) .
(٤) الزمر (٣) .

أي : يتولَّونهم بعبادتهم ودعائهم ، معتذرين عن أنفسهم وقائلين : ﴿ ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(١) .

أي لترفع حوائجنا لله ، وتشفع لنا عنده، وإلاَّ فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئا، أي : فهؤلاء، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء الملك العظيم ، بالملوك . وزعموا ـ بعقولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ـ ، أن الملوك كما أنه لا يُوصَل إليهم إلا بوجهاء، وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم،ويستعطفونهم عليهم، ويمهِّدون لهم الأمر في ذلك ـ أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمَّن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلا ، ونقلاً ، وفطرة .

فإن الملوك ، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم ، لأنهم لا يعلمون أحوالهم . فيحتاجون إلى من يُعْلمهم بأحوالهم ، وربَّما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة فيحتاج من يُعطِّفه عليهم ويسترحمه لهم ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ، ويخافون منهم ، فيقضون حوائج من توسطوا لهم ، مراعاة لهم ، ومدارة لخواطرهم . وهم أيضاً فقراء قد يمنعون ، لما يخشون من الفقر .

---

(١) الزمر (٣) .

وأما الربُّ تعالى ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ، الذي لا يحتاج إلى من يُخْبره بأحوال رعيته وعباده .

وهو تعالى، أرحم الراحمين، وأجود الأجودين لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، يجعله راحماً لعباده ، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم . وهو الذي يحثُّهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته . وهو يريد من مصالحهم ، ما لا يريدونه لأنفسهم . وهو الغني ، الذي له الغنى التام المطلق ، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلاً منهم ما سأل وتمنّى ، لم ينقصوا من غناه شيئاً ولم ينقصوا مما عنده ، إلا كما ينقص البحر إذا غُمِسَ فيه المخيط .

وجميع الشفعاء يخافونه ، فلا يشفع منهم أحد إلاَّ بإذنه ، وله الشفاعة كلها فبهذه الفروق ، يُعْلم جهل المشركين به ، وسَفَهَهُم العظيم ، وشدة جراءتهم عليه. ويُعْلم أيضاً ،الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى ، لأنه يتضمَّن القَدْح في الله تعالى . ولهذا قال حاكماً بين الفريقين ، المخلصين والمشركين ، وفي ضمنه التهديد للمشركين .

﴿ إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾(١) .

---

(١) الزمر (٣) .

وقد عُلِمَ أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم ، وأن من يشرك بالله ، فقد حرَّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار »[١] .

القرآن يهدي العقل إلى بطلان الشرك :

قال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا ﴾[٢] .

- وقال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٣].

- وقال تعالى : ﴿ وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾[٤] .

- إن الله - عزَّ وجلَّ - خلق الخلق وتودَّد إليهم بنعمائه وهو الغني عنهم وأمرهم بعبادته وتوحيده، وبارزه أكثرهم بالشرك والمعاصي، وكفروا بنعمه وآلائه ، وهم في أشد الحاجة إليه .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الزمر آية (٣) (ص ٦٦٤ : ٦٦٥) ، ولقد تم نقل هذا الكلام بطوله لجودته ولافادته المعنى المطلوب ، وتفصيله الدقيق وتفنيده لبعض حجج المشركين الباطلة والرد عليها فجزى الله ا لشيخ السعدي خير الجزاء - رحمه الله - .

(٢) الإسراء (٤٢ : ٤٣) .

(٣) الأنبياء (٢٢) .

(٤) المؤمنون (٩١) .

قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾(١) .

وتحدّث سبحانه وتعالى عن المؤمنين فقال عنهم ﴿ وقليل ما هم ﴾(٢) .

وذلك رغم الآيات الواضحات ، والحجج الجليات ، والأدلة والبينات ، التي فصّلها ووضّحها العزيز الحكيم من فوق سبع سماوات ، لهداية خلقه إلى توحيده ، ولتوضيح السبيل ، وإنارة الطريق ، وهداية الحيارى والضالين ، فيخاطب الله سبحانه وتعالى عباده وهو الغني عنهم في كتابه العزيز ويسوق لهم من الأدلة العقلية ، والبراهين الفطرية على وحدانيته ، وعدم وجود الشريك له في ملكه ، وأنه لا يستحق العبادة إلاَّ هو ،ولا تُصْرف الطاعة المطلقة إلاَّ له في عليائه عن طريق شرعه وكُتُبه ورسله - ﷺ - .

- وذلك حُبّاً منه ، أن يَعْبُده عِبادُه ، ورضىً منه أن يوحّده خَلْقهُ ، وبغضاً منه للشرك وأهله ، وكراهية للمشركين وشِرْكهم .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

في قوله تعالى: ﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وتعالي عما يصفون ﴾(٣).

---

(١) سبأ (١٣) .

(٢) ص (٢٤) .

(٣) المؤمنون (٩١) .

((إذاْ لاعتزل كل إله منهم « بما خلق » من شيء فانفرد به ، ولتغالبوا ، فلعلا بعضهم على بعض ،وغلب القوى منهم الضعيف ، لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً فسبحان الله ما أبلغها من حجة ، وأوجزها لمن عقل وتدبَّر .

وقوله : ﴿ إذاً لذهب ﴾ جواب لمحذوف وهو : لو كان معه إله إذن لذهب كل إله بما خلق ، اجتُزِئ بدلالة ما ذكر عليه عنه .

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ يقول تعالى ذِكْره تنزيها لله عمَّا يصفه به هؤلاء المشركون ، من أن له ولداً وعما قالوه من أن له شريكاً ، أو أن معه في القِدَم إلهاً يُعبْد ، تبارك وتعالى))[1] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾[2].

((يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقرِّبهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تُعْبد لتُقرِّب إليه وتَشْفع لديه لكان أولئك المعبدون يعبدونه ويتقرَّبون إليه ويبتغون

(١) تفسير الطبري لسورة المؤمنون آية (٩١) (٥ / ٣٨٢) .
(٢) الاسراء (٤٢ : ٤٣) .

إليه الوسيلة والقربة فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبدوه من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، على ألسنة جميع رسله وأنبيائه .

ثم نزَّه نفسه الكريمة وقدَّسها فقال :

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾

أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى .

﴿ علواً كبيراً ﴾ .

أي تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد))[1] .

ـ وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[2] .

((﴿ لو كان فيهما ﴾ أي : في السماوات والأرض .

﴿ آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ : في ذاتهما ، وفسد من فيهما من المخلوقات .

ـ وبيان ذلك أن العالم السفلى على ما يُرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام الذي مافيه خلل ولا عيب ، ولا ممانعة ، ولا معارضة ، فدَّل ذلك على أن

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الإسراء آية (٤٢ : ٤٣) (٣ / ٤١] .

(٢) الأنبياء (٢٢ : ٢٣) .

مدبِّره واحد ، وربه واحـد ، وإلهه واحد ، فلو كان له مـدبران وربان ، أو أكثر من ذلك لا ختل نظامـه ، وتقوضت أركانه ، فـإنهما يتـمانعان ويتعـارضان ، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه فإنه محال وجود مرادهما معاً .

ـ ووجود مرادِ أحـدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر ، وعـدم اقتداره ، واتفاقهما على مرادٍ واحد في جميع الأمور غير ممكن .

ـ فإذاً يتعين أن القاهر الذي يوجد مـراده وحده من غير ممانع ولا مدافع ، هو الله الواحد القهار ...

﴿ **فسبحان الله** ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس عن كل نقص لكماله وحده .

﴿ **رب العرش** ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعهـا ، وأعظمها ، فربوبية ما دونه من باب أولى .

﴿ **عما يـصفون** ﴾ أي الجاحدون الكافرون ، من اتخـاذ الولد والصاحبة ، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه .

﴿ **ولا يسأل عما يفعل** ﴾ لعظمته وعزَّته ، وكمال قَدْره ، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه ، لا بقول ولا بفعل .

ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها ، أحسن كل شيء يقدره العقل ، فلا يتوجَّه إليه سؤال ، لأن خَلْقه ليس فيه خلل ولا إخلال))[١].

---

(١) تفسير السعدي لسورة الأنبياء آية (٢٢ : ٢٣) (ص : ٤٧٠) .

ـ فوجب على العبد المتعبِّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن يُسبِّح [العزيز الحكيم] صاحب العزة التامة المطلقة ، وصاحب الحكمة الكاملة البالغة ، وأن ينزِّهه عن كل نقص وعيب وقصور وشرك وعَوَز ، وأن يصفه وينسب إليه كل صفات الكمال والجمال ، والعظمة والإكبار ، والمدح والإجلال ، فلا يتوجَّه بالعبادة والطاعة إلاَّ لهذا الإله المنزَّه عن الشريك ، ويصرف كل أعماله لهذا الإله الواحد دون سواه من الآلهة المزعومة الباطلة المُتَّصفة بالنقص والعيب ، والعجز والعَوَز ، ويتبرأ من الشرك وأهله ، ومن كل عمل قُصِدَ به غيروجه الله ـ جلَّ في عليائه ـ ليكون بذلك قد حقق العبد التعبُّد لله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ويكون سبَّح العزيز الحكيم حق التسبيح ، ونزَّهه حق التنزيه ـ جلَّ في علاه ـ .

ـ المبحث الثاني ـ

[تسبيح العزيز الحكيم بتنزيهه عن الولد والصاحبة]

ـ قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون .... وللذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

ـ وقال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾(٢).

ـ وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾(٣).

ـ وقال تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾(٤) .

ـ وقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالي عما يصفون ، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾(٥).

---

(١) النحل (٥٧ : ٦٠) .

(٢) الأنبياء (٢٦) .

(٣) البقرة (١١٦) .

(٤) النساء (١٧١) .

(٥) الأنعام (١٠٠ ـ ١٠١) .

العزيز الحكيم مُنزَّه عن الولد والصاحبة :

إن المتعبِّد لله - عزَّ وجلَّ - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والمتعبِّد للعزيز الحكيم بعبادة التسبيح والتنزيه والتقديس ، يرتقى به الحال بأن يتعرَّف على خالقه ، وعلى إلاهه بأسمائه وصفاته التي سمَّى بها نفسه واتَّصف بها ، فيتولَّد عند العبد في قلبه وعلى جوارحه تعظيم الله تعالى ، وخشيته ورهبته - جلَّ في عليائه - وإجلال الله وإكباره ، وصرف جميع العبادات له وحده دون سواه من الآلهة الباطلة المزعومة ، المعنوية منها والحسيَّة ، وتنزيهه عمَّا لا يليق به من صفات النقص التي هي من خصائص ومستلزمات المخلوقين ، والتي يترفَّع ويتنزَّه عنها الإله الخالق، وذلك لأن صفات العيب والنقص إنما تنشأ غالباً عن الضعف والجهل والحاجة ، وهذه الآفات وتلك النواقص منتفية في حق [العزيز الحكيم] الذي له مطلق العزَّة والقوة والإرادة والمشيئة ، والذي يتحكَّم في الأمور كلها وذلك عن علم وحكمة وإحكام ، فيصدرمنه كل شيء - في عليائه - بقوة وعزة وحكمة وإحكام .

- ولذلك فلا حاجة لله - عزَّ وجلَّ - الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، لا حاجة له للولد والصاحبة فإن الذي يحتاج إلى الولد هم المخلوقون وذلك ليكون لهم عوناً ومساعداً وعضداً ، ، وَخَلَفاً وذِكْراً لهم من بعدهم ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ، لا يحتاج إلى من يساعده ، ولا إلى مَنْ يعتمد عليه ، ولا إلى من يشدُّ به عضده ،ولا إلى من يؤنسه ويسليه ويخفِّف عنه ، ولا إلى مَنْ يشركه في أمره ، ولا إلى من

يُخلِّد ذِكْره ، فكل ذلك صفات نقص يتّصف بها المخلوق ويحتاج إليها ، ويترفَّع عنها ويتنزَّه صاحب العزة المطلقة ، والحكمة التامة البالغة ـ جلّ في عليائه ـ .

ـ حتى الرسل والأنبياء يحسّون ويشعرون ويعترفون ويقرّون بهذا النقص وحاجتهم الى مثل هذه الأشياء ـ بحكم بشريتهم ـ التي يترفَّع ويتنزَّه عنها الإله العزيز الحكيم فمثلاً :

ـ قال الله تعالى عن نبيه [زكريا ـ ﷺ ـ] الذي طلب الولد قائلاً : ﴿ **وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امراتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب راضياً** ﴾[1] .

وفي آية أخرى : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين** ﴾[2] .

ـ فجاءه الردُّ الرباني ، والفرج الإلهي ، والبشرى السماوية من عند رب الأرض والسماء [العزيز الحكيم] الذي يقول للشيء بعزته وحكمته كن فيكون : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾[3].

---

(١) مريم (٥ : ٦) .
(٢) الأنبياء (٨٩) .
(٣) الأنبياء (٩٠) .

وفي الآية الأخرى قال تعالى : ﴿ **يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾[(١)] .

ـ وأخبرنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن رسوله [نوح ـ ﷺ ـ] المشفق على ابنه حينما أراد له النجاة مع الناجين من المؤمنين ، وخاف عليه الكفر والغرق ، فناداه وحاول هدايته ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، والأمر كله بيدي [العزيز الحكيم] الذي يتصرَّف بعزة وحكمة ، لا يُردُّ معهما حُكْمه ، ولا يخرج أحد معهما عن قضائه .

وقال تعالى : مصوراً لنا هذا المشهد العجيب المؤثِّر .

﴿ **ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾[(٢)] .

وتتحرك عاطفة الأبوة بين جنبي رسول الله نوح ـ ﷺ ـ فأراد أن يشفع لابنه عند الله تعالى من أجل أن تتداركه رحمة الله تعالى بحكمته ـ جلَّ وعلا ـ ولكن يصدر الحكم الإلهي [بقطع النسب بين المؤمنين والكافرين] ، فيذعن رسول الله نوح ـ ﷺ ـ لعزة العزيز ، وحكمة أحكم الحاكمين فيرضى ويُسلِّم .

---

(١) مريم (٧) .

(٢) هود (٤٢ : ٤٣) .

قال تعالى : ﴿ ونادي نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾(١) .

ـ وتأتي الإجابة الربانية والحكم الإلهي : ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾(٢) .

ـ فيكون التسليم والإذعان من رسول الله نوح ـ ﷺ ـ لرب العالمين : ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاَّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾(٣) .

ـ أما رسول الله [موسى ـ ﷺ ـ] ، احتاج إلى من يساعده ، ويشدُّ من عضده ، ويشاركه في أمره ، فطلب وزيراً ومساعداً من أهله ، لاعترافه أنه بشر ويحتاج لمن يشدُّ أزره ، ويأخذ رأيه ، ويكون له عوناً في أمره وشؤونه ، فدعا ربه الإله الكامل الصفات ، المُتفرِّد بكل كمال وجمال وعظمة وإكبار وإجلال ، أن يرسل معه أخاه هارون . فأخبر الله عنه قائلاً : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، أشدد به أزري ، وأشركه في أمري ، كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيراً ﴾(٤) .

---

(١) هود (٤٥) .
(٢) هود (٤٦) .
(٣) هود (٤٧) .
(٤) طه (٢٩ : ٣٥) .

- هكذا اعترف نبي الله ورسوله موسى - ﷺ - بقصوره البشري وحاجته للعون والمساعدة ليكون ذلك عوناً على عبادة الله وتسبيحه وتنزيهه عن النقص والعيب والقصور ، فيتجلّى ويتعالى الله سبحانه وتعالى عمّا يحتاجه ويفتقر إليه المخلوقون ، فهو الإله العظيم ، رب العرش الكريم [العزيز الحكيم] .

- وكذلك نبي الله [لوط - ﷺ -] فيعترف أيضا ببشريته ، ويُسلِّم بحاجته وعَوَزه ، وافتقاره للآخرين ، ويُفْرد رب العالمين بالكمال المطلق ، والعزّة التامة ، والحكمة البالغة ، وذلك حينما ، أراد به قومه الأذى وبمن معه ، فأرادوا أن يفضحوه أمام هؤلاء الضيف الكرام ، ولا يعلمون أنهم ملائكة من عند رب الأرض والسماوات فقال لهم حزناً وأسفاً ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾[1] ولكن من كان الله معه فمن عليه ؟ ومَنْ كان الله ناصره فَمَنْ يهزمه ؟ ومن كان الله حَوْله وقوّته فمن يخذله ؟

قال تعالى : ﴿ **إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[2] .

بلى إن الصبح قريب ، مهما طال الليل ، ومهما إحلولك الأمر ، ومهما عمّت الظلمة ، ومهما طال ليل الطغاة ، ومهما عاث الظالمون والمجرمون في الأرض

---

(١) هود (٨٠) .

(٢) هود (٨١ : ٨٣) .

فساداً ، فإن موعدهم الصبح ، والصبح قريب ، والله عزيز حكيم ينصر عباده المؤمنين ، [ويُعزّهم وهم أذلّة ، وينصرهم وهم قلة]، بعزته وحكمته - جلّ في علاه - فاللهم عجّل لنا بالصبح القريب ، إنك أنت العزيز الحكيم .

قال تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(١) .

- فليسبّح عباد الله الموحّدون، المتعبّدون له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، المُنزّهون [للعزيز الحكيم] عن كل نقص وعيب بأن ينفوا عن الله الولد والصاحبة لأن ذلك لا يليق بمقام الألوهية ، ولا يجوز في حق الإله العزيز الحكيم ، المستغني عن جميع خلقه ،الحكيم في كل قوله وفعله ، البائن من خلقه ، المستوى على عرشه ، العليم بهم ، القادر عليهم ، الذي يفعل كل ما يشاء بعزته وقوته وإرادته ، وفق حُكْمه وحكمته وإحكامه - جلّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ وما من إله إلاّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

- فيدفع هذا التسبيح ، وذلك التعبُّد العَبْدَ ألاّ يشرك بالله شيئاً ، وألاّ يدعو مع الله أحداً ، وألاّ يلتجأ إلاّ إلى الله ، وألاّ يتوكل إلاّ على الله ، وألاّ يطلب العون إلاّ من الله تعالى ، وألاّ يستغيث ويستعين إلاّ بالله تعالى الذي يملك كل شيء ، ويحتاج إليه كل شيء وهو لا يحتاج لأحد مهما كان، ويفتقر إليه كل مخلوق ، ولا يعجزه أي أمر ، فهو الغني سبحانه وتعالى عن المساعدة والعون ، بل هو في

---

(١) الأنفال (١٠) .

(٢) آل عمران (٦٢) .

عون خلقه فيتوجَّه إليه العبد بطلب العزة والعون ، والنصر والتأييد ، والظفر ، والتمكين ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، وإقالة العثرات ، وغفران الذنوب، والعفو عن الزلاَّت .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون** ﴾(١) .

((يقول تعالى ذِكْره : ومن جهل هؤلاء المشركين وخُبْث فعلهم ، وقُبْح فريتهم على ربهم ، أنهم يجعلون لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم فاستوجب بنعمه عليهم الشكر ، واستحق عليهم الحمد : البنات .

ولا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى سبحانه ، نزَّه جلَّ جلاله بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه من البنات ، فلم يرضوا بجهلهم إذْ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه .

ولا ينبغي أن يكون له من الولد أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ، ويحبونه لها ،ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ، ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها إذا كانت لهم ...))(٢) .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

في نفس الآية السابقة :

---

(١) النحل (٥٧) .

(٢) تفسير الطبري لسورة النحل آية (٥٧) (٤ / ٥٢٨] .

((قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ : نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات ﴿ سبحانه ﴾ نزَّه نفسه وعظَّمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد .

﴿ ولهم ما يشتهون ﴾: أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون عن البنات ...))[١] .

ـ وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

عند قوله تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾[٢] .

((يعني بقوله : ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ ما الله ، أيها القائلون : الله ثالث ثلاثة كما تقولون ، لأن من كان له ولد فليس بإله ، وكذلك من كان له صاحبة فغير جائز أن يكون إلهاً معبوداً .

ولكن الله الذي له الألوهه والعبادة إله واحد معبود ، ولا ولد له ، ولا والد ، ولا صاحبة ، ولا شريك .

ـ ثم نزَّه جل ثناؤه نفسه وعظَّمها ورفَعَها عما قال فيه أعداؤه الكفرة به فقال: ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ يقول : علا الله جلَّ وعزَّ وتعظَّم وتنزَّه عن أن يكون له ولد أو صاحبة))[١] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة النحل آية (٥٧) المجلد الخامس (جـ ١٠ / ٧٧) .

(٢) النساء (١٧١) .

(٣) تفسير الطربي لسورة النساء آية (٧١) (٢ / ٦١٧ : ٦١٨) .

[المسيح عبدٌ لله تعالى]

((ثم أخبر جلَّ ثناؤه عباده : أن المسيح عيسى وأمه ومَنْ في السماوات ومن في الأرض عبيده وإماؤه وخلقه ، وأنه رازقهم وخالقهم ، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه ، احتجاجاً منه بذلك على من ادعي أن المسيح ابنه ، وأنه لو كان ابنه كما قالوا لم يكن ذا حاجة إليه ، ولا كان له عبداً مملوكاً ، فقال : ﴿ **له ما في السماوات وما في الأرض** ﴾ يعني لله ما في السماوات وما في الأرض من الأشياء كلها مِلْكاً وخَلْقاً، وهو يرزقهم ويقوِّتهم ويدبرِّهم ، فكيف يكون المسيح ابناً لله؟ ، وهو في الأرض أو في السماوات غير خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن ؟

ـ وقوله : ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ يقول : وحَسْب ما في السماوات وما في الأرض بالله قيِّماً ومدبِّراً ورازقاً من الحاجة معه إلى غيره))[1].

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنه يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري لسورة النساء آية (١٧١) (٢ / ٦١٨) .

(٢) مريم (٣٥ : ٣٧) .

((- ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق ، لأن ذلك من الأمور المستحيلة لأنه الغني الحميد ، المالك لجميع الممالك ، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً ؟!

- ﴿ سبحانه ﴾ : أي تنزّه وتقدّس عن الولد والنقص .

- ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ أي : من الأمور الصغار والكبار ، لم يمتنع عليه ولم يستصعب .

- ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ : فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي ، فكيف يكون له ولد ؟!!

وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له :

- ﴿ كن فيكون ﴾ فكيف يُستبعَد ايجاده عيسى - ﷺ - من غير أبٍ ؟!! ولهذا أخبر عيسى - ﷺ - أنه عبد مربوب كغيره فقال :

﴿ وإن الله ربي وربكم ﴾ الذي خلقنا ، وصوّرنا ، نفّذ فينا تدبيره ، وصرّفنا تقديره .

﴿ فاعبدوه ﴾ أي : أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة ، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الألهية ، والاستدلال بالأول على الثاني ، ولهذا قال :

﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي : طريق معتدل ، موصل إلى الله ، لكونه طريق الرسل وأتباعهم ، وما عدا هذا فإنه من طرق الغيِّ والضلال .

ـ لما بيَّن تعالى حال عيسى بن مريم الذي لا يُشَكُّ فيها ولا يُمْترى ، أخبر أن الأحزاب أي : فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ، على اختلاف طبقاتهم ـ اختلفوا في عيسى ـ ﷺ ـ فمِنْ غالٍ فيه وجافٍ :

ـ فمنهم مَنْ قال : إنه الله .

ـ ومنهم مَنْ قال : إنه ابن الله .

ـ ومنهم مَنْ قال : إنه ثالث ثلاثة .

ـ ومنهم من لم يجعله رسولاً ، بل رماه بأنه ولد بَغيٌّ كاليهود ـ عليهم لعنة الله ـ .

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة ، وآراؤهم فاسدة ، مبنية على الشك والعناد ، والأدلة الفاسدة ، والشُّبه الكاسدة ، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد ، ولهذا قال :

﴿ فويل للذين كفروا ﴾ بالله ورسله وكتبه . ويدخل فيهم اليهود والنصارى القائلون بعيسى ـ ﷺ ـ قول الكفر »(١).

---

(١) تفسير السعدي لسورة مريم آية (٣٥ : ٣٧) ص (٤٤٢) .

[براهين بطلان إدعاء الولد لله - سبحانه وتعالى]

قال تعالى : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾(١) .

* إن الله - تعالى - يغار على دينه وعلى حُرُماته ، وأغْير ما يغار الله عليه توحيده سبحانه وتعالى في عليائه ، ولذلك وصف الله تعالى الشرك بأنه ظلم عظيم، لعظم الجُرْم ، ولعظم مَنْ وقع في حقه ، فقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾(٢).

ومن أجل ذلك ، وحباً من الله أن يرى عباده كلهم حنفاء ، ولبغضه للشرك وأهله أقام الله - عزَّ وجلَّ - الحجج العقلية ، البراهين القطعية على بطلان الشرك وذلك في كتابه العزيز ، ومن ذلك قول المشركين أن الله اتخذ ولداً - تعالى الله عمَّا يشركون علواً كبيراً - ، ومن هذه الأدلة والبراهين ما أثبته الله في هذه الآية الكريمة التي بين أيدينا .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((يقول تعالى مخبراً عن بُهت المشركين لرب العالمين :

﴿ قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ فنزَّه نفسه عن ذلك بقوله :

---

(١) يونس (٦٨) .

(٢) لقمان (١٣) .

﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزَّه عمَّا يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً ثم برهن عن ذلك بعدة براهين :

البرهان الأول :

قوله : ﴿ هو الغني ﴾ أي الغنى منحصر فيه ، وأنواع الغنى مستغرقه فيه ، فهو الغني ، الذي له الغنى التام ، بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه ، فإذا كان غنياً من كل وجه فلأي شيء يتخذ الولد ؟!!

ألحاجة منه إلى الولد ؟ ، فهذا منافٍ لغناه فلا يتخذ أحدٌ ولداً إلاَّ لنقص في غناه .

البرهان الثاني :

قوله ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ :

وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك .

- ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له ولد ، فإن الولد من جنس والده ، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً . فملكيته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة .

البرهان الثالث :

قوله : ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ .

أي : هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولداً ، فلو كان لهم دليل لأبدوه ، فلمَّا تحداهم وعجَّزهم على إقامة الدليل ، عُلِمَ بطلان ما قالوه . وأن ذلك قول بلا علم . ولهذا قال : ﴿ **أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ . فإن هذا من أعظم المحرمات))[(١)] .

فأفادت هذه الآية الكريمة على قصرها ، وقلة عدد كلماتها على أدلة وبراهين تدحض قول وافتراء هؤلاء المشركين في إدعائهم الولد لله تعالى ، ومن هذه الأدلة التي تُسْتفاد من الآية الكريمة ما يلي :

١ ـ تسبيح الله العزيز الحكيم لذاته ، وتنزيه نفسه عن النقص والعيب والقصور .

٢ ـ وصف الله العزيز الحكيم نفسه بالغنى الذي ينافي الحاجة للولد .

٣ ـ ملك الله تعالى لكل الموجودات التي في السماوات والأرض فلا حاجة مع هذا الامتلاك وهذا الملكوت للولد .

٤ ـ عدم وجود أي دليل ، ولا حجة ولا برهان على هذا الإفتراء ، وهذه الفرية من هؤلاء المشركين وإلاَّ فأين براهينهم ان كانوا صادقين .

٥ ـ إن هؤلاء المشركين يتكلمون أو يفترون على الله الكذب بغير علم ، فهم أجهل الخلق بالذات الإلهية بل هم يجهلون حقيقة أنفسهم والغاية من خَلْقهم ، ومصيرهم ومثواهم .

---

(١) تفسير السعدي لسورة يونس آية (٦٨) (ص : ٣٢٥) .

[المبحث الثالث]

[التسبيح للعزيز الحكيم وتنزيهه عمَّا يصفه المشركون]

ـ قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون ﴾[1] .

ـ وقال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عمَّا يصفون ﴾[2] .

ـ وقال تعالى : ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾[3] .

ـ قال تعالى : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[4] .

ـ وجوب تنزيه العزيز الحكيم عمَّا يصفه المشركون :

إن التعبُّد لله تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى ، وتسبيحه [للعزيز الحكيم] ـ جلَّ في علاه ـ مِنْ أعظم دروب التوحيد إذ بهذا التسبيح ينزِّه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن كل نقص وعيب وقصور ، وعن كل ما لا يليق بالمقام الإلهي ، تنزيهاً : يوحِّد به العبد إلاهه ومولاه ويصفه بكل

---

(١) الصافات (١٥٨ ـ ١٥٩) .

(٢) الصافات (١٨٠) .

(٣) الزخرف (٨٢) .

(٤) يونس (١٨) .

صفات الكمال ، والجمال ، والعظمة ، والإكبار ، والإجلال ، ويتبرأ به العبد من شرك المشركين ، ومن كل ما وصف به المشركون صاحب العزّة والحكمة إفتراءً وزوراً ـ تعالى الله عمّا يقولون وعمّا وصفوه علواً كبيراً .

ـ فإن المتعبِّد [للعزيز الحكيم] ، والمسبِّح لصاحب العزة المطلقة ، والحكمة البالغة لا بد أن يغار على إلاهه وخالقه ، ويتصدَّى لكل مشرك ولكل من تجرأ على الذات الإلهية ووصفها بما لا يليق ، يتصدَّى لهؤلاء المشركين بكل أنواع التصدِّي المعنوي منها والحسي ، سواء أكان [بالقلم أم بالكملة ، أم بالحوار والمناظرة وإقامة الحجج والبراهين ، أم بالسيف والسنان ، ....] .

وذلك إذا أراد أن يحقق التوحيد الذي أراده منه العزيز الحكيم ، وإذا أراد التعبُّد حق التعبُّد لصاحب العزة والحكمة ، فلا بد من التصدِّي لكل هؤلاء المشركين بكل عزة وقوة وحكمة وإحكام ، فهو يطلب العزّة والقوة والمَنَعة من صاحب العزّة [العزيز] ويتحلَّى بالحكمة والإحكام كما منَّ عليه صاحب الحكمة [الحكيم] .

ـ قال تعالى: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[1] .

ـ فإن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والتسبيح والتنزيه لصاحب العزّة والحكمة لا بد أن يكون له أثر في حياة العبد المسلم ، في حياته

---

(١) البقرة (٦٣) .

كلها من معاملات ، وعلاقات ، وعبادات ، ولا يقتصر الأمر على التعظيم القلبي ، والتسبيح اللفظي ، بل يخرج ذلك ويظهر في علاقته مع ربه ، وفي علاقته مع إخوانه المسلمين من حوله ، ومع المشركين والكافرين والمنافقين .

ـ فإن العبد الذي تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وسبَّح [العزيز الحكيم] ليحب كل من تعبَّد لله تعالى ، ويوالي كل مَنْ وحَّد العزيز الحكيم، ونزَّهه عن كل نقص وعيب ، ويصطفى كل من وصف صاحب العزة والحكمة بصفات الكمال والإجلال ، والتعظيم والإكبار .

قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾(١) .

ـ إن العبد الذي تعَبَّد لله تعالى ، وأحبَّ العزيز الحكيم ليغار عليه ، وعلى أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فيعادي ويبغض ويجافي ، بل ويقاتل ويحارب كل من أشرك بهذا الإله ، وألحد في أسمائه وصفاته ، ووصفه بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، فهكذا يجب أن تكون ثمرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وتسبيحه وتقديسه ـ جلَّ في عليائه ـ وتعالى وتعاظم وتجلَّى عمَّا يقول المشركون علواً كبيراً .

---

(١) التوبة (٧١) .

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **أوثق عرى الإيمان الحُبُّ في الله والبغض في الله** »(١) .

ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلاَّ لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النار** »(٢).

ـ فيجب على العبد المسلم من منطلق إيمانه بالله تعالى وحبه لمولاه ، وتعبُّده له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا [وتسبيحه للعزيز الحكيم] ، أن ينزِّه صاحب العزَّة والحكمة عن كل ما يصفه به المشركون، وأن يتصدَّى لكل هؤلاء المشركين ، ومن هذه الافتراءات ما يلي :

---

(١) رواه ابن أبي شيبة بسنده في كتاب « الإيمان » ص (٤٥) تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني وقال أخرجه الطبراني في (الكبير) عن ابن مسعود مرفوعاً وهو حسن .

(٢) رواه البخاري كتاب (الايمان) باب (حلاوة الايمان) .

١ - [وصفهم الله بأن بينه وبين الجِنَّة نسباً]

قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون ﴾(١) .

لقد افترى هؤلاء المشركون على الله كذباً ، ووصفوه بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، بأن جعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً، فزعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن أمهاتهم سروات الجن ـ تعالى الله بعزته وحكمته عما قالوا وكذبوا علواً كبيراً ـ.

ـ وهذا الوصف من قاله ، أو اعتقده ، أو رضي به ، فهو مشرك كافر ، وإن مات على ذلك فقد حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار خالداً مخلداً فيها وبئس القرار، وذلك بما قال وافترى على رب العزة والحكمة .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْره : وجعل هؤلاء المشركون بين الله وبين الجِنَّة نسبا .

واختلف أهل التأويل في معنى النَّسب الذي أخبر الله عنهم أنهم جعلوه لله ـ تعالى ـ فقال بعضهم : هو أنهم قالوا ـ أعداء الله ـ : إن الله وإبليس أخوان .

وقال آخرون : هو أنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالوا : الجِنّة : هي الملائكة .

---

(١) الصافات (١٥٨ : ١٥٩) .

وقوله : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ يقول تعالى ذِكْره : تنزيهاً لله ، وتبرئة له مما يضيف إليه هؤلاء المشركون به ، ويفترون عليه ، ويصفونه ، من أن له بنات ، وأن له صاحبة))[1] .

ـ وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((أكثر أهل التفسير أن الجِنَّة ها هنا الملائكة .

ـ وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ : قالوا: ـ يعني كفار قريش ـ الملائكة بنات الله، ـ جلَّ وتعالى ـ .

ـ فقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ : فمَنْ أمهاتهن ؟ قالوا : مخدّرات الجنّ .

﴿ نسباً ﴾ مصاهرة .

ـ قال قتادة والكلبي ومقاتل ـ رحمهم الله ـ : قالت اليهود ـ لعنهم الله ـ أن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم .

ـ وقال مجاهد والسدى ومقاتل ـ رحمهم الله ـ أيضاً :

القائل ذلك كنانة وخزاعة قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوجوه من سروات بنات الجن .

---

(١) تفسير الطبري سورة الصافات آية (١٥٨ : ١٥٩) (٦ / ٣٢٨ : ٣٢٩) .

ـ وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ :

أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه .

وقال ابن عباس والضحاك والحسن ـ رحمه الله ـ أيضاً :

هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا))(١) .

٢ - [وصْفُهم الله ـ تعالى ـ بالجهل]

ـ قال تعالى : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه تعالى عما يشركون ﴾(٢) .

ويتجرأ المشركون ـ عليهم لعنة االله ـ على الله تعالى ، ويصفونه بالجهل ، وأنه لا يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، ويبتدعون من العبادات الباطلة لآلهتهم ، ويزعمون بهتاناً وزوراً أنها تقرِّبهم من الله زلفاً فيعبدونها ويركعون لها ويسجدون ، ويجعلونها شريكاً لله تعالى .

ويزعمون كذباً وزوراً أنها آلهة ويجب عبادتها والتقرُّب بها لله تعالى متهمين الله عزَّ وجلَّ بالجهل ـ تعالى عن وصفهم علواً كبيراً ـ فهل هم يعلمون مالا يعلمه

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الصافات آية (١٥٨) المجلد الثامن (جـ ١٥ / ٨٨) .

(٢) يونس (١٨) .

الله ، أم مع الله آلهة أخرى ولم يعلمها الله ، ولم يخبرهم بها ، وهم الذين يعلمونها ويعرفونها بعلمهم ـ القاصر ـ ؟!! وهم ليس عندهم من دليل على شركهم هذا وادعائهم هذا إلاَّ قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفاً ﴾[(١)] .

وقولهم أيضاً كما أخبر عنهم الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾[(٢)].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **ويقولون** ﴾ قولاً خالياً من البرهان :

﴿ **هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ أي يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ، ويشفعوا لهم عنده ،وهذا قول من تلقاء أنفسهم ، وكلام ابتكروه هم ، ولهذا قال ـ تعالى ـ مبطلاً لهذا القول : ﴿ قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾ أي ـ الله ـ تعالى هو العالم ، الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض ، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه ، أفأنتم ـ يا معشر المشركين ـ تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء ؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟!!

أأنتم أعلم أم الله ؟!

---

(١) الزمر (٣) .

(٢) يونس (١٨) .

فهل يوجد قول أبطل من هذا القول ، المتضمن أن هؤلاء الضُّلال السفهاء أعلم من ربِّ العالمين ؟!

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول ، فإنه يجزم بفساده وبطلانه .

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه أن يكون له شريك أو نظير ، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلاَّ هو ، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة »[1] .

٣ - وصفهم لله - تعالى - بعدم السمع والعلم]

- قال تعالى : **﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾**[2] .

إن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والمُسبِّح [للعزيز الحكيم] صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، يُنزِّه خالقه ومولاه عن العيب والنقص والقصور ، ومن العيب والنقص [عدم السمع] ، و[عدم العلم] ، وهذا ما وقع فيه المشركون الذين أشركوا بالله العزيز الحكيم ، ولم يُنزّهوه ، فوصفوه بعدم السمع ، وعدم العلم ، بل وتعاملوا معه بذلك فظنوا باطلاً

---

(١) تفسير السعدي لسورة يونس آية (١٨) ص (٣١٧) .

(٢) الزخرف : (٨٠ : ٨٢) .

بشركهم أن الله لا يسمع نجواهم ، ولا يطَّلع على سرائرهم فوصفوه بما لا يليق بالمخلوق فضلاً عن الإله ، وهم لا يعلمون ـ إما جهلاً وإما افتراءً ـ أن الله يعلم السرَّ وأخفى ، وأنه يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، وما هو أقل من ذلك .

ـ أما عباد الله الموحِّدون المسبِّحون ، والمتعبِّدون لصاحب العزة والحكمة ، ينزِّهونه عن كل عيب ونقص وقصور ، ويثبتون له كل صفات الكمال والجمال والإجلال والعظمة والإكبار ، ومن هذه الصفات صفة السمع ، وذلك على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، بدون تشبيه ، فهو لا يشبه خلقه ،وبدون تكييف فهو منزَّه عن الكيف ، وبدون تعطيل فهو المُتَّصف بكل صفات الكمال ، وهو القائل عن نفسه والواصف لذاته ـ جلَّ في عليائه ـ رداً على المشبِّهين ، وانكاراً على المعطِّلين ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1] .

ـ فمَنْ وصف الله عزَّ وجلَّ بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به نبيه ـ محمد ـ ﷺ ـ وعلى ما يليق به وبعظمته فقد سبَّحه حق التسبيح ، وأصبح من عباده الموحدين ، وتلمَّس الصراط المستقيم .

ومن اعتمد على عقله القاصر ، وقياسه الفاسد، ووقع إما في الإفراط فعطَّل ، وإما في التفريط فشبَّه ، فقد ضل الطريق ، وحاد عن الصراط المستقيم ، وهو على

---

(١) الشورى (١١) .

خطر عظيم ، إلاَّ أن تتداركه رحمة أرحم الراحمين ، فيعود إلى صراط الله المستقيم، ويعتصم بحبل الله المتين ، ويصف العزيز الحكيم بما يليق بالإله العظيم ، الله رب العالمين ، حتى يكون من الناجين ، ويُحشر في زمرة عباد الله الصالحين .

قال تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾(١) .

فالله يوبِّخ هؤلاء المشركين ويُهدِّدهم ويحذِّرهم من مغبة اعتقادهم الفاسد الباطل الذي يوقعهم في الشرك الأكبر ، وهو اعتقادهم بأن الله لا يسمع سرهم ونجواهم ، ويثبت سبحانه وتعالى لنفسه صفة من صفات الكمال وهي [السمع]، ويهدد هؤلاء الكفار أن كل ما قالوه ، وكل ما تناجوا به ، بل وكل ما أخفوه وأسروه سَمِعَهُ الله وعَلِمَهُ ، وأن عنده ملائكة كرام يكتبون كل كبيرة وصغيرة ، ويحصون أعمال وأقوال العباد ، وسوف يوفونه يوم القيامة حينما يروا كل شيء قد سُجِّل عليهم فيندومون ولات حين مندم . قال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا** ﴾(٢) .

---

(١) الزخرف (٨٠) .
(٢) الكهف (٤٩) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وقوله ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم** ﴾[١] يقول أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنَّا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم ، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم ، فلانعاقبهم عليه لخفائه علينا .

وقوله : ﴿ **بلي ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾[٢] يقول تعالى ذِكْره : بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم ، وأخفوه عن الناس من سرٍّ كلامهم ، وحفظتنا لديهم ، يعني : عندهم يكتبون ما نطقوا به من منطق وتكلمَّوا به من كلامهم))[٣] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم** ﴾[٤] أي : ما يسرونه في أنفسهم ويتناجون به بينهم .

﴿ **بلى** ﴾[٥] نسمع ونعلم .

﴿ **ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾[٦] أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم .

---

(١) الزخرف (٨٠).
(٢) الزخرف (٨٠) .
(٣) تفسير الطبري لسورة الزخرف آية (٨٠) (٦ / ٥٣٧) .
(٤) الزخرف (٨٠) .
(٥) الزخرف (٨٠) .
(٦) الزخرف (٨٠) .

- وروى أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها .

- فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟

- وقال الثاني : إذا جهرتم سَمِعَ ، وإذا أسررتم لم يسمع .

- وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم .

[قاله محمد بن كعب القُرطبي] .

﴿ سبحان رب السماوات والأرض ﴾[١] أي تنزيها له وتقديساً . نزَّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث ، وأمر النبي - ﷺ - بالتنزيه .

﴿ عما يصفون ﴾[٢] أي عما يقولون من الكذب))[٣].

٤ - [وصفهم لله - تعالى - بالفقر]

قال تعالى : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾[٤] .

إن الله قد غضب على الذين كفروا من اليهود والنصارى وذلك بما وقعوا فيه من الكفر والشرك وقولهم على الله ما لا يعلمون ، ووصْفِهم الله عزَّ وجلَّ بمالا يليق

---

(١) الزخرف (٨٢) .

(٢) الزخرف (٨٢) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الزخرف اية (٨٠) المجلد الثامن [جـ ١٠ / ٧٩] .

(٤) آل عمران (١٨١) .

بجلاله وعظيم سلطانه ، ومن ذلك نَسْبِهم إليه الولد ـ تعالى الله عمَّا قالوا علواً كبيراً ـ ، وأثبت الله عزَّ وجلَّ ذلك في كتابه العزيز حيث وصفهم بالكفر قائلاً : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾(١) .

ـ وحَكَمَ عليهم أيضاً بالشرك ونزَّه نفسه عن شركهم قائلاً ـ عزَّ وجلَّ في علاه ـ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاَّ ليعبدوا إلاهاً واحداً لا إله إلاَّ هو سبحانه عما يشركون ﴾(٢) .

ـ فلما وقعوا في الشرك الأكبر الذي يُخْرجهم عن دين الله ، أخذوا يصفون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، فقالت اليهود ـ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ـ تجرؤاً على الله ، وتوغلاً في الكفر والشرك [إن الله فقير] ـ فوصفوا الله ـ سبحانه وتعالى بالفقر ، ونسبوا لأنفسهم الغنى ، وذلك من جهلهم بالله وبأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، جهلهم بأن الله عزيز لا يحتاج لغيره ، وهو غني عن جميع خلقه ، حكيم يُدبِّر أمر جميع خلقه ، فلمَّا جهلوا حقيقة توحيد الأسماء والصفات ، وألحدوا في ذات الله ، ووصفوا الله بما لا يليق بذاته وعظيم سلطانه ، قالوا ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾(٣) .

---

(١) التوبة (٣٠) .
(٢) التوبة (٣١) .
(٣) آل عمران (١٨١) .

ونحن نردُّ عليهم كما ردَّ الله عليهم في قرآنه المجيد ، أن العذاب موعدهم وأن النار هي جزاؤهم وبئس القرار قال تعالى:﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾[١] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((ذكر تعالى قبيح قول الكفار ولا سيما اليهود . وقال أهل التفسير : لما أنزل الله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾[٢] . قال قوم من اليهود ـ منهم حُيي بن أخطب ـ في قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فنحاص بن عازوراء ـ أن الله فقير ونحن أغنياء يقترض منا .

ـ وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا ، لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين ، وتكذيب النبي ـ ﷺ ـ . أي : أنه فقير على قول محمد ـ ﷺ ـ لأنه اقترض منا .

﴿ سنكتب ما قالوا ﴾[٣] سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه في صحائف أعمالهم ، حتى تكون أوكد للحجة عليهم))[٤] .

---

(١) آل عمران (١٨١) .

(٢) البقرة (٢٤٥) .

(٣) آل عمران (١٨١) .

(٤) تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (١٨٠) المجلد الثاني (جـ ٤ / ١٨٧ : ١٨٨) .

ـ وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾[1] .

قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟

فأنزل الله : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾[2] .

ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : دخل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر رضي الله عنه ـ : ويحك يا فنحاص اتِق الله وأَسْلِم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو

---

(١) البقرة (٢٤٥) .

(٢) آل عمران (١٨١) .

الله ، فأكذبونا مااستطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله - ﷺ - وعلى آله .

فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك

فقال : رسول الله - ﷺ - « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » .

فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلمَّا قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك . وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾(٢) تهديد ووعيد ، ولهذا قَرَنَهُ تعالى بقوله : ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾(٣) أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شرَّ الجزاء ولهذا قال تعالى :﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾(٤) .

أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً))(٥) .

---

(١) آل عمران (١٨١) .

(٢) آل عمران (١٨١) .

(٣) آل عمران (١٨١) .

(٤) ال عمران (١٨١ : ١٨٢) .

(٥) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (١٨١ : ١٨٢) (٢ / ٤١٠) .

ـ ولنا مع هذه الآية الكريمة وقفتان :

ـ الوقفة الأولى : [إجرام اليهود وبشاعتهم] :

إن هذه الآية الكريمة تكشف لنا اليهود وتفضحهم ، وتبيِّن مدى إجرام ، وبشاعة ، وقُبْح ، وخُبْث ، وحقد ، ومكر ، وكفر اليهود عليهم لعائن الله وملائكته والناس أجمعين ، فلقد عرَّتهم هذه الآية الكريمة وكشفت عوراتهم ، وأزاحت النقاب ، وكشفت الستار عن طبيعة هؤلاء اليهود أحفاد القردة والخنازير، فلقد تجرؤا على الله تعالى ، ووصفوا الذات الإلهية بما لا يليق دون وَرَعٍ ، ولا خوف ، ولا حياء ، وجرَّهم هذا الجُرْم ، وهذه الوقاحة مع الله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ أنهم استهانوا برسله وأنبيائه ـ صلى الله عليهم وسلم ـ فكذَّبوهم وآذوهم ، بل وقتلوا كثيراً منهم ، كما أخبر الله عنهم في الآية التي معنا ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾[1] ، وقال عنهم أيضاً في محكم التنزيل : ﴿ **أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾[2] .

ونقول :

إذا كان هذا حال هؤلاء اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ مع الله تعالى خالقهم ، ورازقهم ، ومُمِدَّهم بكل أنواع القوة وأسباب الحياة ، وهو القادرعليهم : [الكفر ، والشرك ، ووصف الله بما لا يليق ...] .

---

(١) النساء (١٥٥) .

(٢) البقرة (٨٧) .

وإذا كـان هذا أيضـاً حـالهم مع رسل الله وأنبيـائه ، الذين بعـثهم الله إنقاذاً للبشرية من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن الظلمات إلى النور ، ومن النار إلى الجنة ـ بإذن ربهم ـ ومع ذلك ، قابلوهـم بكل أنواع الإساءة والإجرام من [التكذيب، الاستهـزاء ، السب ، اللعن ، الافتراء ، الضرب، الصَّلْب ، القتل ، ...] ـ فإذا كان هذا حالهم مع الله ورسله فكيف حالهم مع خلق الله ؟!!.

ـ كيف حالهم معنا نحن؟ كيف حالهم معنا وهم لايؤمنون ـ برسولنا ـ ﷺ ـ ؟!.

ـ كيف حالهم معنا وهم يَعُدُّوننا أعداءًا لهم ؟!!!

ـ كيف نأمنهم وقد خوَّنهم الله ؟!!

ـ كيف نُسلِّم لهم وقـد أخبر الله عنهم قائلاً: ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾[1] .

ـ كيف نسالمهم وقد أعلنوا الحرب على الله وعلى دينه وعلى رسوله ـ ﷺ ـ وعلى كل مؤمن؟!!

ـ كيف نعطيهم الأمن والسلام وأيديهم مُلطَّخة بدماء المسلمين ؟!

ـ كيف نجلس معهم على مائدة مفاوضات ـ كما يزعمون ـ وقد دنَّسوا مقدساتنا ، وانتهكوا حرماتنا ، وسلبوا أراضينا ، وقتَّلوا أطفالنا ، وذبَّحوا شبابنا ، ولم يتورعوا عن شيخ أو عجوز ، وعاثوا في الأرض فساداً ؟!!

---

(١) التوبة (١٥٥)

- كيف نضع أيدينا في أيدي هؤلاء اليهود - عليهم لعنة الله - وقد عاثوا في المسجد الأقصى فساداً وتخريباً ، ودنّسوه ، وحرّقوه ، ولم يحفظوا له حرمة ؟!!

- كيف تسلم صدورنا لهؤلاء اليهود - عليهم لعنة الله - أحفاد القردة والخنازير وقد تجرؤا على كتاب ربنا ، وعلى رسولنا - ﷺ - [حيث رسموا صورة خنزير وكتبوا عليها محمد ، ووضعوا تحت قدم الخنزير المصحف الشريف كتاب ربنا - ؟!!] .

- لعنهم الله بما فعلوا ، وخَرُسَتْ ألسنتهم بما قالوا ، وشُلَّت أيديهم بما كَتَبُوا ، وكُتِبَتْ عليهم الذِلَّة والمسْكنة ، والمهانة والصَّغار أينما كانوا وحيثما ارتحلوا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال تعالى : ﴿ **وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل** ﴾[1] .

- وقال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾[2] .

---

(١) المائدة (٦٠) .

(٢) البقرة (٦١) .

ـ الوقفة الثانية : [إنكار أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على اليهودي بيده] :

لقد ساق لنا الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ كما سبق سبب نزول الآية السابقة وهي قوله تعالى : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾(١).

وذكر القصة وأهدى لنا موقف الصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ (٢) . وذلك حينما تجرأ أحد أحفاد القردة والخنازير على أن يصف الله عزَّ وجلَّ بالفقر ، فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ غَيْرةً على الله وعلى الذات الإلهية ، ونهياً عن المنكر ، وتبرؤاً من الشرك وأهله ، وموالاةً لله تعالى ، ونصرةً لله ولدينه ، وغَيْرةً على أسماء الله تعالى وصفاته ، فلطم هذا اليهودي الكافر ، وهمَّ بقطع عنقه ، لولا تذكُّره للعهد الذي بينهم .

ـ رغم وجود أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وسط عدد كبير من اليهود ، فلم يمنعه ذلك من الغَيْرة على الله وعلى أسمائه وصفاته ، وتغيرالمنكر باليد ، وتأديب عدو الله ـ عليه لعنة الله ـ .

ونقول :

ـ أين نحن الآن من غَيْرة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ؟!!

---

(١) آل عمران (١٨١) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (١٨١) (٢ / ٤١٠) .

- أين أيدينا من يد أبي بكر - رضي االله عنه - التي رُفِعَتْ ولطمت عدو الله ؟!!
- أين نُصْرتنا لله تعالى من نُصْرة أبي بكر - رضي الله عنه - ؟!!
- أين عِزّتنا وشجاعتنا من عِزّة وشجاعة أبي بكر - رضي الله عنه - ؟!!
- أين تعبُّدنا لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، من تعبُّد أبي بكر - رضي الله عنه - ؟!!
- أين عبادة نُصْرة الدين ؟!!
- أين عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟!!
- أين عقيدة الولاء والبراء ؟!!
- أين ولاؤنا لله ولدينه ولرسوله - ﷺ - ولعباد الله المؤمنين من ولاء أبي بكر - رضي الله عنه - ؟!!
- أين براؤنا من الكفار والمشركين والمنافقين ، ومن اليهود والنصارى - عليهم لعنة الله أجمعين - من براء أبي بكر رضي الله عنه - ؟!
- أين أحفاد الصحابة - رضي الله عنهم - من أحفاد القردة الخنازير ؟!!
- أين أصحاب العزة والكرامة ، من أصحاب الذِلّة والمهانة ؟!!
- أين طُلاَّب الشهادة في سبيل الله - تعالى - من عُبّاد الدنيا ؟!!
- بل أين عُشّاق الجنة من أصحاب النار ؟!!

﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾(١) .

فإن الإمة الإسلامية في أشدّ ما تكون من الحاجة لمثل عقيدة أبي بكر - رضي الله عنه - ولِيدٌ آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر مثل يدٌ أبي بكر - رضي الله عنه - وغَيْرة صادقة على الله ودينه ورسوله - ﷺ - وعلى حُرُمات المسلمين ومقدَّساتهم ، وأعراضهم ، ودمائهم ، وأموالهم ، وآراضيهم ، مثل غَيْرة أبي بكر - رضي الله عنه - ولنَخْوةٍ إسلامية مثل نَخْوة أبي بكر - رضي الله عنه - ولولاء مثل ولاء أبي بكر - رضي الله عنه - ولِعزةٍ مثل عِزَّة أبي بكر - رضي الله عنه - . . . .

وما أبو بكر - رضي الله عنه - إلاّ رجل تربَّى على كتاب الله تعالى ونَهَلَ من سنة رسول الله - ﷺ - فهو صنيع وتربية [الكتاب والسنَّة] ، وها هو كتاب الله بين أيدينا ، وها هي سنة رسوله - ﷺ - حيَّة بين أَظْهُرِنا لمن أراد أن يسلك الطريق ، وينهل من المعين ، ويقتفي أثر الصالحين ، ويكون من سلالة أبي بكر الصديق - رضي الله عن الصحب أجمعين - .

٥ - [وَصْفُهم لله - تعالى - بالبخل]

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾(٢) .

---

(١) هود (٨١) .

(٢) المائدة (٦٤) .

إن المشرك الذي أشرك بالله تعالى ، وألْحد في أسمائه وصفاته ، لا يتورّع أن يصف الله ـ تعالى ـ بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، من صفات النقص والعيب، بل من الصفات التي لا يرضاها المخلوق لنفسه ، وينزِّه نفسه عنها ، فضلاً عن الإله ـ جلَّ في عليائه ـ الذي له كل صفات الكمال ، والجمال ، والإحسان ، والحُسْن ، والإجلال ، والإكبار .

ـ إن اليهود الذين أشركوا بالله ، هم الذين وصفوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفقر والتعامل مع الخلق بالربا ، وغير ذلك من الصفات التي لا تليق بالذات الإلهية.

ومن هذه الافتراءات أيضا والكذب على الله والإلحاد في أسمائه وصفاته وَصْفِهم لله ـ تعالى ـ [بالبخل] ، فلقد قالوا إن يد الله مغلولة ، فوصفوه ـ تعالى في عليائه ـ بالبخل ، وخشية الإنفاق ، وخشية الفقر ، وعدم الإحسان ، وعدم البِرِّ ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ مُبَرَّأٌ ومُنَزَّه عما يقولون وعما يصفون من صفات النقص والعيب والخبث ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ فهو ينفق بالليل والنهار ، كريم جواد ، مُحْسِن مِعْطَاء ، خزائنه ملأى لا يخشى ما يخشاه العباد المخلوقين ، فإن ما عند الله لاينفذ ، بل لايحبس رزقه ، وإحسانه حتى عمَّن عصاه ، ويتمتع في خيره ورزقه حتى الكافر ، ويرتع في فضائله ، ونعمائه حتى مَنْ أشرك به ، حتى هؤلاء اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ الذين وصفوه بالبخل ، وقالوا يده مغلولة لم يمنع عنهم رزقه ، حتى إذا أخذهم لن يفلتهم ، فإن أخذه أليم ، أخذ عزيز مقتدر ـ جلَّ في علاه ـ .

- وردَّ الله على هؤلاء اليهود - عليهم لعنة الله - قائلاً في كتابه العزيز ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾(١) .

- وردّ رسول الله - ﷺ - على هؤلاء اليهود وأمثالهم قائلاً فيما يرويه عنه الصحابي الجليل أبوهريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحَّاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض فإنه لم يَغض ما في يده ، وقال : عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يَخْفِضُ ويَرْفَعُ »(٢) .

- وفي رواية أخرى للبخاري - رحمه الله - : [الفيض - أو القَبْض - بدلاً من الميزان](٣).

- وفي رواية الإمام مسلم - رحمه الله - : [يمين الله - بدلاً من يد الله]، [والقَبْض - بدلا من الميزان](٤) .

- قال الإمام النووي - رحمه الله - :

((السَّح : الصبُّ الدائم .

(١) المائدة (٦٤) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : « لما خلقت بيدي ») .

(٣) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (وكان عرشه على الماء) .

(٤) رواه مسلم كتاب (الزكاة) باب (الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف) .

ومعنى لايغيضهما شيء: أي لا ينقصهما ، ويقال غاض الماء ، وغاضه الله ، لازم ومتعد .

ومعنى القبض : الموت .

وأما الفيض بالفاء : فالإحسان والعطاء والرزق الواسع ، وقد يكون بمعنى القبض بالقاف أي : الموت))[١] .

ـ وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

((قوله « ملأى » أنه في غاية الغنى وعنده من الرزق ما لا نهاية له في علم الخلائق .

« سحَّاء » : أي دائمة الصب .

« الليل والنهار » بالنصب على الظرف أي فيهما ، ويجوز الرفع .

« أرايتم ما أنفق » تنبيه على وضوح ذلك لمن له بصيرة .

« فإنه لم يفض » أي ينقص .

ـ كأنه لِمَّا قيل : « ملأى » أوهِمَ جواز النقصان فأُزِيل بقوله لا يغيضها شيء وقد يمتلئ الشيء ولا يغيض ، فقيل سحَّاء إشارة إلى الغيض وقرنه بما يدل

---

(١) انظر : شرح صحيح الإمام النووي كتاب (الزكاة) باب (الحث على النفقة) (٧/٧٩:٨٠) وذلك باختصار .

على الاستمرار من ذكر الليل والنهار ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر غير خاف على ذي بصر وبصيره بعد أن اشتمل من ذكر الليل والنهار بقوله أرأيتم على تطاول المدة لأنه خطاب عام والهمزة فيه للتقرير ، وقال هذا الكلام إذاأخذته بجملته من غيرنظر إلى مفرداته أبان زيادة الغنى وكمال السعة والنهاية في الجود والبسط في العطاء))[١] .

ـ وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وهذا خبر من الله تعالى عن جرأة اليهود على ربهم ، ووصفهم إياه بما ليس من صفته ، توبيخاً لهم بذلك ، وتعريفاً منه نبيه ـ ﷺ ـ قديم جهلهم ، واغترارهم ، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم ...

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾[٢] : يعني بذلك أنهم قالوا : إن الله بخيل علينا ويمنعنا فضله فلا يُفْضِل ، كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاءٍ ولا بذل معروف ـ تعالى الله عمَّا قالوا ـ أعداء الله !

فقال الله مُكذِّبهم ومُخبرهم بسخطه عليهم : ﴿ غلت أيديهم ﴾[٣] يقول : أمْسِكَتْ أيديهم عن الخيرات ، وقُبِضَتْ عن الانبساط بالعطيا .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني . كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ (٤٠٦/١٣] ،وذلك باختصار .

(٢) المائدة (٦٤) .

(٣) المائدة (٦٤) .

﴿ ولعنوا بما قالوا ﴾[١] وأُبْعِدُوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر ،وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب والإفك .

﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾[٢] يقول : بل يداه مبسوطتان بالبذل والإعطاء ، وأرزاق عباده وأقوات خلقه ، غير مغلولتين ولا مقبوضتين .

﴿ ينفق كيف يشاء ﴾[٣] يقول : يعطي هذا ، ويمنع هذا فيُقَتِّرُ عليه »[٤] .

ـ وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« يُخْبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبَّروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ .

ـ وقد قال عكرمة ـ رحمه الله ـ :

إنها نزلت في فنحاص اليهودي ـ عليه لعنة الله ـ وقد تقدَّم أنه الذي قال : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[٥] فضربه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ .

---

(١) المائدة (٦٤) .

(٢) المائدة (٦٤) .

(٣) المائدة (٦٤) .

(٤) تفسير الطبري لسورة المائدة آية (٦٤) (٣ / ١٢٩ : ١٣٠) وذلك باختصار .

(٥) آل عمران (١٨١) .

ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال :

قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس إنَّ ربك بخيل لاينفق فأنزل الله :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[(١)] .

ـ أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء ، إلاَّ عنده خزائنه ، وهو الذي ما يخلفه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ،الذي خلق لنا كل شي مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا »[(٢)] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة ، وعقيدتهم الفظيعة فقال ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾[(٣)] .

أي : عن الخير والإحسان والبرِّ .

﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾[(٤)].

وهذا دعاء عليهم ، بجنس مقالتهم . فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم ، بالبخل ، وعدم الإحسان فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً علهيم .

---

(١) المائدة (٦٤) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (٦٤) (٢/ ٧٦) .

(٣) المائدة (٦٤) .

(٤) المائدة (٦٤) .

فكانوا أبخل الناس ، وأقلّهم إحساناً ، وأسوأهم ظناً بالله ، وأبعدهم عن رحمته ، التي وسعت كل شيء ، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي ولهذا قال :

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[(١)] لا حجرعليه ، ولامانع يمنعه، مما أراد . فإنه تعالى ، قدْ بسط فضله ، وإحسانه الديني والدنيوي ، وأمر العباد أن يتعرَّضوا لنفحات جوده ، وأن لا يسدُّوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم .

فيده سحَّاء الليل والنهار ،وخيره في جميع الأوقات مدراراً يُفرِّج كرباً ، ويُزيل غماً ، ويغني فقيراً ، ويفك أسيراً ، ويجبر كسيراً ، ويجيب سائلاً ، ويعطي فقيراً عائلاً ، ويجيب المضطرين ، ويستجيب للسائلين ، وينعم على من لم يسأله ، ويعافي من طلب العافية ، ولا يحرم من خيره عاصيا ، بل خيره يرتع فيه البَرُّ والفاجر ، ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال . ثم يحمدهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهي من جوده ويُثيبَهم عليها من الثواب العاجل والأجل ، مالا يدركه الوصف ، ولا يخطر على بال العبد . ويلطف بهم في جميع أمورهم ، ويوصل إليهم من الإحسان ، ويدفع عنهم من النِّقم ما لا يشعرون بكثيرمنه فسبحان مَنْ كل النِّعم ، التي بالعباد ، فمنه ، وإليه يجأرون في دفع المكاره وتبارك مَنْ لا يُحْصى أحدٌ ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وتعالى مَنْ لايخلو

---

(١) المائدة (٦٤) .

العباد مِنْ كرمه طرفة عين ، بل ولا وجود لهم ، ولا بقاء إلا بجوده ، وقبّح الله مَنْ استغنى بجهله عن ربه ، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله . بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ونحوهم ممن حاله كحالهم ، ببعض قولهم ، لهلكوا ، وشقوا في دنياهم ، ولكنهم يقولون تلك الأقوال ، وهو تعالى ، يحلم عنهم ، ويصفح ، ويمهلهم ، ولا يهملهم »[1] .

---

(١) تفسير السعدي لسورة المائدة آية (٦٤) ص (٢٠٠) .

[المبحث الرابع]

[كيفيـــة التعبُّـد للعزيز الحكيم والتبرؤ من الشرك]

إن التعبُّد لله ـ تعالى ـ صاحب العزَّة والحكمة [العزيز الحكيم] بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، يستوجب على العبد المسلم أن يتبرأ من الشرك بأنواعه ودروبه ، ويبتعد عن أسبابه ودوافعه ، ويحذر من أن يقع في حبائله ، أو أن يُكدِّر صَفْوَ توحيده ، أو أن يخدش إسلامه ، أو يذبذب إيمانه .

ـ وإن صور التعبُّد لله تعالى بالتبرؤ من الشرك لتأخذ أشكالاً وصوراً كثيرة ومتعددة ، نذكر منها هنا بإشارة سريعة بعضها :

١ ـ تنزيه العزيز الحكيم عن الشرك :

إن من أوجب الواجبات ومن أعظم العبادات ، التي فرضها الله على عباده الموحِّدين أن يُنزِّهوه ـ جلَّ في علاه ـ عن الشريك ، فإن هذا أصل التوحيد ، وهو الذي من أجله خلق الله الخلق أجمعين كما قال تعالى : ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون** ﴾[1] . أي ليوحِّدون الله تعالى وينزِّهونه عن الشريك ، وكذلك لقد بعث الله جميع الرسل من أجل هذا الأصل العظيم .

---

(١) الذاريات (٥٦) .

قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[١] .

والطاغوت: هو كل ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ [أي اجتنبوا الشرك] .

ولذلك أكد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هذه القضية في كتابه العزيز حاثاً عباده المؤمنين على عبادته وحده ، وترك الشرك ، والتبرؤ من كل شريك يُصْرف له أي نوع من أنواع العبادات الظاهرة والباطنة .

ـ قال تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾[٢] .

ـ وقال تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو سبحانه عما يشركون ﴾[٣].

٢ ـ نبذ الوسطاء في العبادة :

إن من مظاهر التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ومن أُسس التوحيد ، وصفاء العبادة عدم اتخاذ الواسطة في التعبُّد لله تعالى ، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إله عزيز حكيم ، لا يحتاج إلى من يساعده ولا إلى من يوجِّهه ، حتى يَتَّخذ الوسطاء بينه وبين عباده ، يرفعون له عبادتهم ، ويشفعون لهم عنده ، إنما يفعل ذلك هؤلاء الملوك والأمراء والرؤوساء ، الذين تَضْعُف قوتهم ، ويقلُّ علمهم ،

---

(١) النحل (٣٦) .

(٢) الطور (٤٣) .

(٣) التوبة (٣١) .

وتَقْصُرُ حِكْمَتُهم ، أما هذا الإله العظيم - صاحب العزَّة والحكمة - يعلم السِّر وأخفى ، وصاحب عزَّة وقوة يُنفذ بهما ما أراده ، وصاحب حكمة يُصرِّف بها الأمور ، ويقضي بها بين عباده ، فيرحم من يشاء ويُعذِّب من يشاء بيده المُلك وهو على كل شيء قدير .

- وأخبر الله عن الكفار والمشركين أن من أنواع كفرهم وشركهم اتخاذ هذه الوساطة في عبادتهم لله - زاعمين كذبا وزوراً أنها تقرِّبهم إلى الله زلفى .

قال تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار** ﴾[1].

٣ - اعتقاد بطلان الشرك :

يجب على العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والذي سبَّح العزيز الحكيم - جلَّ في علاه - ونزَّهه عن كل نقص وعيب ، يجب عليه أن يعتقد بطلان الشرك وأنه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً ويتعبَّد لله بذلك ، فإن تسبيح العبد لهذا الإله اعتراف منه أنه منزَّه عن مشاكلة المخلوقين ومشابهتهم ، وأنه لا يحتاج للشريك الذي هو من دواعي النقص الذي يتَّصف به المخلوق .

---

(١) الزمر (٣) .

فلمَّا آمن العبد بهذا الإله ، وارتضاه له معبود ، وسبَّحه ونزَّهه عن كل نقص وعيب ، وعن كل ما يفتقر إليه المخلوق ، وجب عليه أن يعتقد بطلان الشرك ، وأنه لا يجوز في حق الإله الحق ، وأنه لا يليق بصاحب العزَّة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، أن يحتاج لغيره ، ويضطر لاتخاذ الشريك ـ حاشا لله تعالى في عليائه ـ .

ـ وهذا الاعتقاد من العبد المتعبِّد لربه هو من صُلْب التوحيد ، ومن لوازم التسبيح والتنزيه ، ولذلك أكَّد الله تعالى على وجوب هذا الاعتقاد [وهو بطلان الشرك] في آيات كثيرة مع سياق الأدلة العقلية التي تؤكد هذا المعتقد الشرعي .

ـ قال تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[2] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾[3] .

---

(١) الإسراء (٤٢ : ٤٣) .

(٢) الأنبياء (٢٢) .

(٣) المؤمنون (٩١) .

٤ ـ تنزيه العزيز الحكيم عن الولد والصاحبة :

إن من التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن ينزِّه العبد إلاهه ومولاه عن الولد والصاحبة ، فإنَّ من مقتضيات التسبيح والتنزيه والتقديس لهذا الإله أن يُنَزَّه عن الولد والصاحبة ـ التي هي الزوجة ـ لأنه إله عزيز حكيم لا يحتاج لغيره ، ولا يفتقر لأحد ، لأنه هو صاحب العزة والقوة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، ولا يحتاج لمن يعاونه من ولد ولا غيره ، ولا يحتاج لمن يُؤْنسه من زوجة وغيرها ، لأنه المنزَّه عن مثل هذه الصفات من صفات النقص ، فمَنْ سبَّح الله تعالى ، وعَبَدَه حق العبادة وجب عليه تنزيهه عن الولد والصاحبة ، وكل صفة نقص ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ .

قال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(١) .

ـ وقال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون** ﴾(٢) .

ـ وقال تعالى : ﴿ **أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم** ﴾(٣) .

---

(١) الإخلاص (١ : ٤) .
(٢) البقرة (١١٦) .
(٣) الأنعام (١٠١) .

٥ ـ تنزيه العزيز الحكيم أن يكون بينه وبين خلقه نسباً :

إن من التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ومن التسبيح والتنزيه للعزيز الحكيم أن ينزِّه العبد المؤمن خالقه ومولاه عن أن يكون بينه وبين خلقه وعباده نسباً ، وخاصة الجن ـ كما يزعم الكفار ـ وكما ادعى اليهود ـ عليهم لعائن الله جميعاً ـ فما يكون لهذا الإله العزيز الحكيم ، الذي بيده كل شيء ، وهو قادر على كل شيء ، وكل شيء في الكون وفق عزَّته وحكمته ، أن يحتاج لخلقه أو أن يتخذ فيهم نسبا ، أو يصاهرهم ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ .

ـ وقال الله تعالى مُسفِّهاً لهؤلاء جميعاً قائلاً : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً ولقد علمت الجِنَّة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون ﴾[(١)] .

٦ ـ تنزيه العزيز الحكيم عن الجهل والفقر والبخل :

إن من صور التعبُّد [للعزيز الحكيم] صاحب العزَّة والحكمة ، ومن لوازم تسبيح الله تعالى وتنزيهه وتقديسه أن ينزِّه العبد ـ المتعبِّد لخالقه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ـ إلاهه عن كل صفات النقص والعيب والتي منها [الجهل ـ والفقر ـ والبخل] ، وأن يتبرأ من هؤلاء الكفار والمشركين ، وعلى رأسهم [اليهود] ـ عليهم لعنة الله ـ الذين وصفوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وعظمته وكبريائه، فإن العبد الموحِّد لربه ومولاه، والمتعبِّد لخالقه ومُوجِده، ليغار

---

(١) الصافات (١٥٨ : ١٥٩) .

على التوحيد ، ويأبى أن يُنْسب لهذا الإله العظيم أي صفة من صفات النقص والعيب ، فهو ينزّه إلاهه عن كل صفات النقص والعيب ، واللعب ، والعبث ، ويتبرأ من كل مَنْ وصف خالقه ومولاه بأي صفة نقص ، بل ويعادي ، ويقاتل ويفتك بكل من تجرأ على الذات الإلهية ، ونسب إليها ما لا يليق بها . وذلك تعبُّداً لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وتحقيقاً لتوحيد الأسماء والصفات ، وطلباً للأجر والمثوبة ، وغَيْرةً منه على التوحيد .

ـ ولقد ذمَّ الله هؤلاء الكفار والمشركين وعلى رأسهم اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ في كتابه العزيز قائلا :

ـ ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(١) .

ـ وقال تعالى : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾(٢) .

ـ وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾(٣) .

---

(١) يونس (١٨) .

(٢) آل عمران (١٨١) .

(٣) المائدة (٦٤) .

الخاتمة

الخاتمـــــة

الحمد لله رب العالمين ، المُتسمِّى بالأسماء الحسنى ، والمُتَّصف بالصفات العليا ، الذي نَصَرَ عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقضى بالعزة والرفعة لعباده الموحِّدين ، وحكَم بالذُّلِّ والهوان على الكفار والمشركين ، والمنافقين وكل أعداء الدين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله - ﷺ - خير من عَرَف الله تعالى ، وأفضل من تعبَّد له بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وأشرف مَن طلب النصر والتمكين من العزيز الحكيم .

أما بعد

فبعد هذه الجولة السريعة مع التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ومن ذلك التعبُّد له باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] ، وبيان كفية التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب [النصر والتمكين] ، الذي هو هبة من صاحب العزة والحكمة لعباده المؤمنين ، وبيان علاقة ذلك التعبُّد، وهذا الطلب بالتسبيح . أردت في هذه الخاتمة أن أشير إلى شيئين وهما :

أولاً : [ما توصَّلتُ إليه خلال هذا البحث] :

لقد توصلت خلال بحثي هذا الذي بعنوان [**النصر والتمكين هبة العزيز الحكيم**] الذي هو حلقة في [**سلسلة التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى**

وصفاته العليا] إلى أمور كثيرة ، ومهمة جداً ، تحتاج إلى الوقوف عندها والتعايش معها ، وأُلخِّص هذه النتائج التي توصلت إليها في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : [أهمية وضرورة التعبُّد لله بأسمائه وصفاته]

لقد تأكَّد لي أثناء بحثي في أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته مدى عِظَم وشرف هذا العلم ، خاصة وأنه يتعلَّق بالذات الإلهية ، إنه يتعلَّق بالإله العظيم الذي له كل اسم حسن ، ومُتَّصف بكل صفات الكمال ، والجمال ، والإجلال ، والتعظيم ، والإكبار ، فإن شرف العلوم يكون بشرف مَنْ تتعلَّق به، فإنه الفخر كل الفخر للعبد المسلم أن ينشغل بالذات الإلهية يتعرَّف عليها ، ويعرف أسماء الله تعالى ـ ما ورد منها في الكتاب والسُّنة ـ ويتعرَّف على صفات الإله العظيم ، الذي يتَّصف بكل صفات الكمال والعظمة ، والمنزَّه عن كل صفات العيب والنقص والقصور ـ جلَّ في عليائه ـ .

فحريٌّ بكل مسلم ـ ومسلمة ـ أن يتعرَّف على خالقه ومولاه ، وأن يتعبَّد لله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يتعرَّف على كل اسم ، وما يتضمَّنه من صفة ، وما يقتضيه من عبودية خاصة ، قال الله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[1] .

---

(١) الأعراف (١٨٠) .

وكما قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« والأسماء الحسنى ، والصفات العلا مقتضية لأثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لأثارها من الخلق والتكوين ، [**فلكل صفة عبودية خاصة**] هي من واجباتها ومقتضياتها ، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح »[١] .

الأمر الثاني : [وجوب طلب النصر والتمكين من العزيز الحكيم وحده] :

وممَّا تأكَّد لدي من خلال البحث في أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وعَبْرَ التعبُّد لله تعالى باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزَّة والحكمة] ، أنه يجب على العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، صاحب العزَّة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، أن يتعبَّد لهذا الإله الذي يتَّصف بالعزَّة والقوة ، والذي له كل الحكمة ، وإليه الحكم ، بأن يطلب منه النصر على أعدائه ، ومنه وحده دون سواه إيماناً من العبد بقول صاحب العزَّة والحكمة في محكم التنزيل : ﴿ **وماالنصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما النصر إلاَّ من عند الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[٣] .

---

(١) (مفتاح السعادة) للعلامة ابن القيم الجوزية [٢ / ٤٤٢ : ٤٤٣] .
(٢) آل عمران (١٢٦) .
(٣) الأنفال (١٠) .

ـ فَمَنْ كـان متعبِّداً لله تعالى بأسـمائه الحسـنى ، وصفاته العليـا ، ومَنْ كان يريد النصـر المظفَّـر ، ومن أراد التـمكين في الأرض ، ومَنْ يتطـلَّع لتـأييـد الـعـزيز الحكيم، فعليه بطلب النصر منه وحده دون سواه .

ـ وإذا أرادت الأمة الإسـلامية أن تذوق طعم النصـر بعدمـا حُرِمَتْ منه زمناً طويلاً ، وإذا اشتقات للتمكين في الأرض ، وإذا حَنَّت إلى الزعـامة والقيادة والرفعة والريادة فـعـليـهـا أن تسلك هذا الـطريق، وهذا الطريق وحـده ، وهـو طريق طلب النصر والتمكين ، والعون والتأييد من العزيز الحكيم . جلَّ في علاه ـ .

ـ وعليـهـم قـبل أن يطلبـوا النصـر من الـعزيـز الحكيم أن ينصـروه هم أولاً ، وذلك بنصـر [دينه ، وكتابـه ، ورسوله ـ ﷺ ـ ، وعبـاده المؤمنين] ثم يطلبـوا بعد ذلك نصر العزيز الحكيم كما قال ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ ولـينـصـرنَّ الله مـن ينصـره إن الله لقوي عزيز ﴾(١) .

الأمر الثالث : [ارتباط التسبيح للعزيز الحكيم بالنصر والتمكين] :

من خـلال هذا البحث ، وبتتبع أكثر آيـــات التسبيح ، التي يَذْكـر فيهـا الله ـ سبـحانه وتعالى ـ تسـبيح السمـاوات والأرض وما فيهـما لله ـ جلَّ في عــلاه ـ ، وخَتْم معظمها باسمي الله الحسنيين [العزيز الحكيم]، وصفتي [العزَّة والحكمة] .

---

(١) الحج (٤٠) .

قال تعالى: ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ يسبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٢).

ـ وكذلك الآيات التي يَذْكر فيها الله ـ عزّ وجلّ ـ النصر والتمكين ، وتأييد عباده ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(٣) .

ـ وقول تعالى : ﴿ ولينصر الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾(٤) .

ـ وعند ذِكْر جنود الله الذين ينصر بهم عباده المؤمنين ، ويذِّل بهم الكافرين والمنافقين ختَم الآية أيضاً بصفتي العزة والحكمة ، .

قال تعالى: ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٥).

ولَمّا ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ نَصْره للمؤمنين على يهود بني النضير بدأ « سورة الحشر » بالتسبيح لله ـ جلّ في علاه ـ من كل مَنْ في السماوات والأرض ، ثم ختَّم الآية باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم]، وصفتيه الحميدتين [العزّة والحكمة]، ثم ذكربعد ذلك امتنانه على المؤمنين بنصره على يهود بني النضير وخذلانهم .

---

(١) الصف (١) .
(٢) الجمعة (١) .
(٣) آل عمران (١٢٦) .
(٤) آل عمران (٤٠) .
(٥) الأحزاب (٧)

ـ ومن هذا التتبّع يظهر مدى الترابط بين تسبيح الله تعالى والذي هو تنزيه الله عن كل عيب ونقص وقصور ، وبين طلب النصر من العزيز الحكيم الذي يتّصف بالقوة والحكمة ، والمنزّه عن الضعف وعن العبث والعشوائية ، فإن [العزيز الحكيم] هو المستحق للتسبيح والتنزيه ، وهو الذي يملك النصر بعزّته وقوته ، وحُكْمه وإحكامه.

ـ فمن أراد النصر من صاحب العزّة والحكمة فعليه أن يتوجّه إليه بالتسبيح والتنزيه عن كل نقص وعيب ، وإفراده وحده بصفات الكمال والجمال والتعظيم والإجلال ، وإفراده أيضا بالتوجّه إليه بطلب النصر منه وحده فهو وحده القادر على نصر عباده ، والنصر والتمكين هبة يهبها لمن شاء من أوليائه ، وألاّ يُطْلب النصر إلاّ منه ـ جلّ في علاه ـ ويُحذّر من طلبهما من غيره ، فالنصر والتمكين ، والظفر والتأييد ، والعزّة والرفعة في التعبّد للعزيز الحكيم ، وطلب النصر منه .

والذّل الهوان ، والخيبة والخسران ، والضياع والهلاك ، في التوجّه لغير العزيز الحكيم ، وطلب النصر والتمكين من غير صاحب العزة والقوة والحُكْم والحكمة فهذا هو الطريق ، وهذا هو السبيل ليحيا من حيّ من بينة ، وليهلك من هلك عن بينة .

ثانياً : توصياتي من خلال البحث :

لقد توصلت ـ بحمد الله تعالى ـ من خلال هذا البحث الذي هو في أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وما يتعلّق به من التعبّد لله ـ تعالى ـ باسميه الحسنيين

[العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزَّة والحكمة] ؛ إلى نتائج وحقائق ومُسلَّمات كثيرة ، وعليه أوصى ببعض التوصيات من خلال ما تبيَّن لي ، وأصبح في مكان العقيدة ، ومِمَّا أدين الله تعالى به ، ومن هذه التوصيات ما يلي :

١ - وجوب الإهتمام بتوحيد الأسماء والصفات ، فهو ركن ركين من عقيدة المسلم ، ولا يحصل الإيمان للمسلم حتى يحقِّق هذا النوع من التوحيد ، الذي يتعلَّق بالذات الإلهية ، والذي يختص بتعظيم الإله ، ووصفه بكل صفات الكمال ، والجمال ، والتعظيم ، والإجلال ، والإكبار .

فيجب على الأمة الإسلامية قاطبة [دول - وجماعات - وأفراد] تعلُّم هذا العلم وتعليمه للأجيال ، وأن يكون هذا التعلُّم على منهج أهل السُّنة والجماعة ، وأن يُحذِّروهم من عقائد أهل البدع والضلال خاصة في هذا الباب . - أعني باب الإيمان بأسماء الله - تعالى - وصفاته - الذي طالما ذلَّت فيه الأقدام ، وكثرت فيه الأهواء والضلالات .

٢ - يجب على المسلم والمسلمة التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا على ما يليق بجلال الله وعظيم سلطانه، تعبُّدًا على علم وفقه وبصيرة ، فيتعبَّد المسلم لربه وخالقه ومولاه بأسمائه الحسنى ، وما تتضمَّنه من معانٍ ، وما تقتضيه من عبودية خاصة ، فإن لكل اسم من أسماء الله تعالى ، وكل

صفة من صفاته عبودية خاصة كما قرَّر ذلك سلفنا الصالح[(١)] . قال تعالي :

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[(٢)] .

٣ - يجب على كل مسلم يتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزَّة والحكمة] عند طلبه للنصر أن يتوجَّه [للعزيز الحكيم] وحده بطلب النصر منه ، وعدم التوجُّه إلى أي مخلوق يطلب منه هذا النصر ، فإن الذي يملك النصر الحقيقي ، والذي بيده أسباب النصر جميعاً هو صاحب العزَّة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، فمن طلب النصر من العزيز الحكيم وَهَبَهُ صاحب العزَّة والحكمة [النصر والتمكين] ، ومن طلبه من غيره تركه الله وشِرْكه ، وأذلَّه بين خلقه ، وكتب عليه الذّلَّ والهوان، والمسكنة والخسران ، وسلّط عليه أهون خلقه ليذيقه أشدَّ أنواع الذُّلِّ والصغار . وذلك لأنه أعرض عن صاحب العزِّ والحكمة ، وطلب النصر، وتلَمَّسه عند غير [العزيز الحكيم] ، والله- عزَّ وجلَّ - يخاطب عباده المؤمنين الموحِّدين قائلاً : ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾[(٣)] .

---

(١) انظر : (مفتاح دار السعادة) لابن القيم [٢ / ٤٤٢ : ٤٤٣] .
(٢) الأعراف (١٨٠) .
(٢) آل عمران (١٢٦) .

وقال تعالى : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

٤ - ينبغي للمسلم المتعبِّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزّة والحكمة] أن يستعين في طريقه للتعبُّد لهذاالإله ، وعند طلبه النصر من صاحب العزّة والحكمة أن يستعين على ذلك [**بالتسبيح للعزيز الحكيم**] ، وذلك لمدى العلاقة والترابط بين (التسبيح) الذي هو تنزيه صاحب العزّة والحكمة عن كل نقص وعيب وقصور ، وبين صفتي (**العزةً والحكمة**) التي تقتضيه كمال القوة والقدرة ، وتمام الحكمة والحكم والإحكام ، وذلك ملحوظ في ختم آيات التسبيح - في معظمها - بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، وأيضا اثبات الله تعالى في آيات النصر أن النصر من عند صاحب العزّة والحكمة [العزيز الحكيم] .

- فدلّ ذلك على الترابط والتلازم بين التسبيح وطلب النصر من الله [العزيز الحكيم] - جلّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض العزيز الحكيم ﴾(٢) .

---

(١) الأحزاب (٧) .

(٢) الصف (١) .

- وقال العزيز الحكيم مؤكداً أن النصرمن عنده وحده قائلاً - جلّ في عليائه - . ﴿ وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

- وربط سبحانه وتعالى بن [**التسبيح - وصفتي العزةّ والحكمة - والنصر**] في قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾(٢) .

سائلاً المولى - عزّ وجلّ - أن يتقبّل منا صالح أعمالنا ، وأن يجعلها لوجهه خالصة ، وألاّ يجعل لأحد فيها شيئاً ، وأن ينصر أمتنا الإسلامية ، وأن يُمكّن لها في الأرض ، وأن يرفع راية التوحيد عالية خفاقة على مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يذلّ أعداءها ويجعلهم غنيمة للمسلمين وأن يشف الله صدور قوم مؤمنين ، وأن يُهيأ لهذه الأمة أمر رشد يُؤْمر فيه بالمعروف ، ويُنْهى فيه عن المنكر ، ويعزّ فيه أهل الطاعة، ويُذّل فيه أهل المعصية ، هو ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) آل عمران (١٢٦) .

(٢) الحشر (١ : ٢) .

الفهرس

كتب للمؤلف

١ ـ البيان في صفات عباد الرحمن
٢ ـ العقيدة الصافية للفرقة الناجية .
٣ ـ حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة والجماعة (رسالة ماجستير)
٤ ـ قبس من هدي النبي ﷺ

سلسلة الولاء والبراء

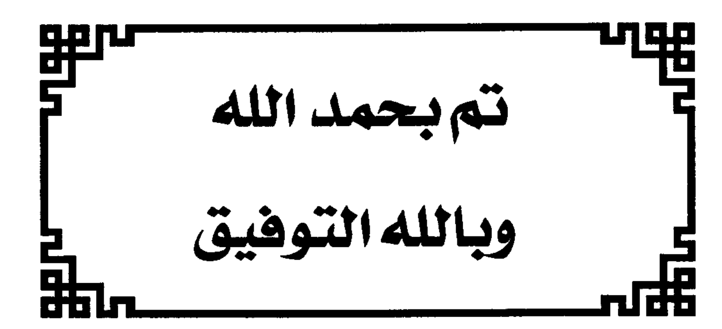
١ ـ الولاء الحميم للقرآن الكريم .
٢ ـ الولاء لدين الله .
٣ ـ معالم في طريق الإصلاح وإعداد النشء .
٤ ـ الولاء للمؤمنين أصل من أصول الدين .
٥ ـ البراء من العصاة والمنافقين .
٦ ـ البراء من الكفار والمشركين .
٧ ـ تحذير المسلمين من موالاة المنافقين .
٨ ـ الولاء المشؤوم لليهود والنصارى .

سلسلة التعبُّد لله بأسمائه وصفاته

١ ـ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى .
٢ ـ وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم .
٣ ـ إخلاص العبودية للعزيز الحكيم
٤ ـ النّصر والتمكين هبة العزيز الحكيم

« يصدر قريباً إن شاء الله ـ تعالى ـ »

[السنن الشرعية وأثرها في تغيير الأنفس والمجتمعات] (رسالة دكتوراة)


تم بحمد الله
وبالله التوفيق